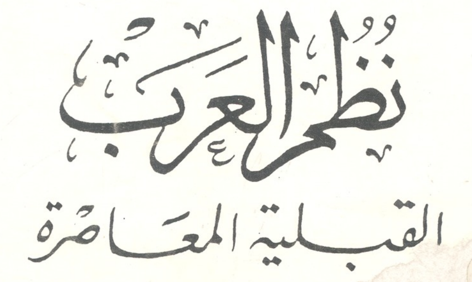
دكتور/ محمود سلام زناتي
أستاذ تاريخ وفلسفة القانون
وعميد/ كلية الحقوق ونائب رئيس جامعة أسيوط
لشئون الدراسات العليا والبحوث سابقا



زء الثالث

١٩٩٤

دكتور محمود سلام زناتي
أستاذ تاريخ وفلسفة القانون
وعميد كلية الحقوق ونائب رئيس جامعة أسيوط
لشئون الدراسات العليا والبحوث سابقاً



الجزء الثالث

١٩٩٤

مقدمة

عندما شرعت فى دراسة نظم العرب القبلية المعاصرة كان هدفى بصفة خاصة دراسة نظمهم القانونية باعتبار أن هذه الدراسة تدخل فى مجال تاريخ القانون . غير أننى كنت أصادف أثناء إطلاعى على المصادر المختلفة ، كثيرا من المعلومات التى تتصل بمجالات أخرى غير مجال القانون . فكان منها ما يتصل بالأداب الإجتماعية ، ومنها ما يخص المعتقدات الدينية أو الأمور الغيبية . وقد أثارت هذه المعلومات فضولى فكنت أجمعها وأحتفظ بها . ولما كانت هذه المعلومات تنطوى على جانب كبير من الطرافة ومن شأنها أن تلقى أضواء على كثير من العادات والمعتقدات السائدة فى مجتمعاتنا العربية بما فيها تلك التى لا تعيش فى إطار قبلى فقد رأيتنى منساقا إلى دراستها لأجعل منها جزءا من دراسة نظم العرب القبلية المعاصرة . وقد أحتفظت لها بهذا العنوان لأنها تدخل ، على أية حال ، فى مفهوم النظم بمعناها الواسع ، حيث أنها تشكل وجوها أخرى من نظام الحياة فى المجتمعات القبلية العربية .

وقد أسترعى إنتباهى وأنا بصدد هذه الدراسة وجود قدر غير قليل من التماثل بين العادات والمعتقدات القبلية العربية وبين بعض الأحاديث الواردة فى كتب الحديث وأراء بعض الفقهاء المعروضة فى كتبهم . ويكاد يكون من المستحيل إقتباس القبليين العرب هذه العادات والمعتقدات من كتب الحديث والفقه ، فلم يبق إذن إلا الفرض الآخر ، وهو إنتقال بعض العادات والمعتقدات القبلية إلى كتب الحديث والفقه عن طريق بعض المحدثين والفقهاء ذوى الأصل القبلى . ولاشك أن عملية النقل هذه بدأت منذ وقت مبكر ولعلها بدأت مع بداية التاريخ الإسلامى . وقد أستمرت عبر العصور التالية . ومع مرور الزمن إشتد إلتصاق الموروث القبلى بالتراث الإسلامى . وصار الناس ينظرون إليه باعتباره جزءا لا يتجزأ منه وخفيت على الأجيال اللاحقة مصادره التاريخية . ومع الزمن صار المسلمون يعتقدون فى الصفة الدينية لهذا الموروث القبلى ، ولا يقبلون طعنا فيه أو تشكيكا .

وينبغى أن نشير هنا إلى إختفاء بعض العادات التى كانت تمارسها بعض القبائل . فليس المفروض أن تقدم الدراسة الحالية معلومات آنية أى معلومات ما زالت قائمة فى وقتنا الحاضر . فثمة ظروف متعددة قد تؤدى إلى إختفاء هذه العادة أو تلك . لكننا لا نشك فى أن معظم العادات والمعتقدات المشار إليها ما زال قائما لدى القبائل العربية لا سيما تلك التى تعيش فى مناطق نائية وتكاد تكون منقطعة الصلة بمصادر المعرفة ، بعيدة إلى أقصى حد عن ظروف الحياة الحديثة .

كذلك ينبغى أن نشير إلى أن كثيرا من العادات والمعتقدات القبلية من ناحية أخرى تمتد به الحياة طويلا ويظل الناس يتبعونه ويؤمنون به رغم أنهم لم يعودوا يعيشون فى بيئة قبلية أصلا . فابناء القبائل عندما يهاجرون إلى المدن ويستوطنون بها يحملون معهم تراثهم القبلى وتتوارثه فى العادة ذرياتهم من بعدهم .

وأننى لأرجو أن يجد القراء أو بعضهم فى هذه الدراسة تفسيرا لبعض العادات التى قد يمارسونها أو المعتقدات التى قد يؤمنون بها .

والله ولى السداد .

دكتور / محمود سلام زناتى
١٩٩٤/٥/١

الفصل الأول

القبليون العرب والدين

لاحظ الرحالة من العرب وغيرهم ، ومنذ القدم وحتى عصرنا الحاضر ، أن كثيرا من القبليين العرب ، وبصفة خاصة البدو وسكان الجبال ، كانوا فى جهل مطبق بالدين ، ومن ثم لم يكونوا يمارسون شعائره أو ينفذون أحكامه ، فكثير منهم لم يكن يعرف من الدين سوى شهادة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " . فلم يكونوا يعرفون صلاة أو صياما أو زكاة .

ولم يكونوا ، فى زواجهم وطلاقهم وميراثهم ومعاملاتهم وجناياتهم يأخذون بأحكام الشرع الإسلامى بل كانوا يطبقون أعرافهم التى كثيرا ما انطوت على انتهاك صارخ لمبادئه وخروج سافر على أحكامه .

غير أن عاملا هاما كان سببا فى انتشار الوعى الإسلامى بين أبناء القبائل العربية ، لاسيما فى نجد والحجاز ، وهو ظهور الدعوة السلفية فى نجد على يد محمد بن عبدالوهاب ، التى انتشرت ، بدعم وتأييد آل سعود ، فى كثير من ربوع الجزيرة العربية .

ونتحدث فيما يلى أولا عن جهل القبليين العرب بالدين ، ثم عن عدم تطبيقهم لأحكام الشرع الإسلامى ، ثم عن أثر الدعوة السلفية فى نشر الوعى الدينى بالإسلام وممارسة شعائره وتطبيق أحكامه ، وأخير نسوق بعض نماذج من أدعية البدو .

المبحث الأول
جهل القبليين بالدين

لاحظ الرحالة منذ القدم أن القبليين ، فى كثير من أجزاء الجزيرة العربية ، كانوا فى جهل ، يكاد يكون مطبقا ، بأصول دينهم ، فلم يكونوا يعرفون منها سوى الشهادة .

يقول ناصر خسرو (ص ١٦٨) مثلا فى وصف أهل الأحساء فى القرن الخامس الهجرى " ويزعمون أن حاكم المدينة شريف من الأشراف قد منع الناس من تأدية شرائع الإسلام . وقال لهم رفعت عنكم الصلاة والصيام . وأخبرهم أن لا مرجع لهم فى أمور دينهم غيره . واسم حاكم الأحساء " أبوسعيد " .... وإذا سئل أهل الأحساء عن مذهبهم أجابوا نحن " بوسعيديون " ولا يصلون ولا يصومون . ولكنهم يعترفون برسالة محمد صلعم ويقرون بنبوته ... ويرابط على قبر " أبوسعيد " مؤسس الأسرة الحاكمة فى البحرين فارس على صهوة جواده ، ويتناوب الجند حراسة ذلك القبر ليل نهار ، وهم يتوقعون انبعاث أبى سعيد من القبر ، لذلك وضعوا على القبر فرسا مطهما فى غاية الزينة والأبهة ليركبه الأمير إذا قدر له أن ينبعث من قبره " .

ويصف ابن جبير (ص ١١٢) صلاة أهل السرو (فى جنوب غرب الجزيرة العربية) فى الكعبة بقوله :

" وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد ، وربما تكلموا فى أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد الى سجوده ، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة " .

وروى لنا العياشـي (ص ١١٨) مـا شـاهده مـن مسـلك الأعـراب فـي المدينة عند قدومهم إليها في الزيارة الرجبية وما حكى له عنهم فقـال : " وقـد خلق كثير من الأعراب ، وأكثرهم عرب جفاة ليس لهم من دين ولا مذهـب ، جلهم لا يعـرف صـلاة ولا صـومـا ، فتدخـل جماعـة منهـم المسـجد غاسـلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم ، فيقف أحدهم مليا ثم يسـجد علـى قـدر ما يرى ، إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر على حسب نشـاطه ثـم ينصرف ، وغالبهم على هذا الوصـف ، ومنهـم أفـراد يدينـون بديـن الحـق ، وسلامهم على النبى صلعم : حيا الله محمد ، رافعين بها أصواتهم .

وأخبرنى شيخنا الملا ابراهيـم عـن الشـيخ القشاشـى أنـه بينمـا هـو ذات يوم عند المواجهة ، إذ جاء أعرابى فـى شـملته ، وبيـده عصـاه ، حتـى وقـف أمام الوجه الشريف ، فضـرب بعصـاه الأرض مرتيـن وهـو يقـول : يـا محمـد يا محمد لا تقل أنا ماجئتك ، ها أنا ، وذهب ولم يزد على ذلك .

وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب ، وأكـثرهم جفاء ، فقلما تجد أحدهم يحسن رسوم الشريعة الظاهرة مـن صـلاة وصيـام إلا القليل ... فقد أخبرنى مخبر عن عرب الدرب أنه سـأل بعضـهم هـل صـام أم لا ؟ وهو رجل كبير كهل ، فقال : إنـي إلـى الآن لـم أصـم ، لكـن أبـى صـام ثلاثة أيام . فاستفهمه عن ذلك فقال : أن الرجـل عندنـا إذا قـارب أوان الهـرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام ، فيقولون فلان صـام ، وذلـك علامـة بلوغـه حـد الكبر ، وأمـا قبـل ذلـك فـلا يعـرف صيامـا ولا غيره ، وهـم جديـرون بذلـك لبعدهم من الامصار ، وقلة القرى فى بلادهم ، فلا يجدون أحدا يعلمهم الخـير ولا يرشدهم إليه ، وعلى تقدير دخولهم الأمصار فى بعض الأحيان فـلا يلقـى إليهم أحد بالا ، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلـون الصـلاة المتقدمـة مـن تتـابع السـجدات لا يزيـد علـى أن يضحـك منهـم ، أو يتغـافل ويذهـب عنهـم ، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياما أو حدا من حدود الشريعة ؟

ولقد رأيت رجلا بالينبع ظهر الشيب فى مفرقه ، وسألته عن مكة فقـال لى : ما حججت قط . وبينه وبين مكة ثمانية مراحل (؟) وسألته عن المدينة :

فقال دخلتها مرتين أو ثلاثا . وبينه وبينها ثلاثة مراحل ، وأمثال هؤلاء كثيرون " .

ويقول شقير (جـ ٢ ـ ص ٣٥٢) فى أوائل القرن الحالى عن بدو سيناء :

" يعترف بدو سيناء بالإسلام دينا لهم ، ولكن ليس فيهم من يعرف قواعد الإسلام ، بل ليس فيهم من يعرف قواعد الصلاة . وقد مازجتهم مدة سنين فلم أر منهم من يصلى إلا نفر يعدون على الأصابع ممن يخالطون المدن . هؤلاء لا يصلون الأوقات الخمسة على الترتيب ، بل يصلون كلما خطر ببالهم أن يصلوا . ولولا احتفال بدو سيناء بعيد الضحية ، وذكرهم النبى وحلفهم به والصلاة عليه ، لما علمت أنهم مسلمون " .

ويصف تيسيغر (ص ٢١٠) موقف قبيلة الصيعر ، وهى إحدى القبائل البدوية فى حضرموت ، فى هذا الخصوص بقوله : " عَرف آل صيعر بمجيىء قبل وصولى وتجمعوا فى الريضات للترحيب بى ، وقد استقبلونى بمودة فائقة ووجدتهم أناسا شجعانا مرحين ليس بهم جشع " بيت كثير " ، وإذا كانت القبائل الأخرى تدعوهم بالمارقين فإن ذلك على الأرجح افتراء يوحيه الكره والمنافسة ومهما كان ، فإن سمعتهم كزنادقة معروفة جيدا لدى الأعراب ، إذ أنهم لا يصومون ولا يصلون . ويدعون أن النبى " محمد أعفى أجدادهم من فريضة الصوم والصلاة " .

ويصف العظم (ص ، جـ ١ ، ص ١١٨) ما كانت عليه قبيلة عبيدة (احدى قبائل اليمن) من جهل مطبق بالدين ، فيقول : " وتحيط قبيلة عبيدة بمدينة مأرب وهيكل بلقيس ، وهى قبيلة عربية قديمة تدعى أن نسبها يتصل بصافر الحميرى ، ولا تزال محافظة على عادات وحشية للغاية ... وجميعهم على الفطرة الطبيعية ، ولا يوجد بينهم رجل واحد يعرف القراءة والكتابة ، وأكثرهم عراة لا يلبسون سوى أطمار يسترون بها عورتهم ... وقبل دخول جلالة الإمام (يحى) ما كانوا يعرفون الصلاة ولا الصيام ، ولا شيئا من

الفروض الاسلامية ، ولكن جلالة الإمام اهتم بشأنهم وأرسل مرشدين ومعلمين فلقنوهم أصول الدين وتعاليمه " .

ويقول آل علم الدين (ص ٢٤٨) عن بعض بدو شمال الجزيرة العربية :

" ولو سألت بدويا أو أحد الصلبه (احدى القبائل المحتقرة فى شمال الجزيرة العربية) عن دينه لأجابك : الله ومحمد رسول الله فلا يعرف البدوى الاتقان لأميته . ولا في دينه فلا يحسن الصلاة ولا التيمم أوالوضوء ، وإن حفظ شيئا من سور القرآن القصيرة ، فيحفظه بغير ما أنزل ، مصحفا ، أو محرفا مع عدم مراعاة الترتيب فى الآيات " .

المبحث الثانى
عدم تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية

فى ظل الجهل الذى كان سائدا لدى كثير من القبائل العربية ، وربما ما زال لدى البعض منها ، بأصول الدين ماذا ينتظر أن يكون موقفها من تطبيق أحكامه ؟ من البديهى أن يواصل هؤلاء القبليون اتباع أعرافهم التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، ولو كانت تخالف أحكام الشرع الاسلامى كل المخالفة ، وتخرج عليها بشكل فاضح .

وهذا بالفعل ما لاحظه العديد من الرحالة منذ قديم وحتى القرن العشرين .

يقول ابن المجاور (ص ٩٩) فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عن بعض قبائل اليمن : " وجميع أهل هذه الأعمال ، الجبال مع التهائم إلى حدود الحجاز ، لا يقبل أحدهم حكم الشرع ، وانما يرضون بحكم المنع ، ولاشك أنه حكم الجاهلية الذى يتحاكمون به " .

ويقول صبرى باشا (ص ٣٣٩) وهو مؤرخ تركى فى أواخر القرن التاسع عشر عن بعض قبائل الحجاز :

" ولكن واأسفاه كلما بَعُد عصر النبوة وكلما تناقص عدد الصحابة الكرام ، نجد بعض أفراد القبائل العربية وقد عادوا إلى سابق عهدهم ، وبدلا من أن يجعلوا الشرع الشريف يحكم بينهم ، نراهم يحتكمون إلى قوانين وضعية ، سنتها لهم العادات والتقاليد ، وآراء وخبرة بعض مشايخهم ، التى كانت تبعدهم عن الشرع الشريف فى كثير من الأحيان " .

ويقول الشاطرى (جـ ١ ، ص ٣٤٦) فى اتباع قبائل حضرموت لأعرافها المتوارثة عبر الأجيال وانصرافها عن تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية :

" والكلام يطول حول هذه التقاليد والتشريعات التى يرجع الكثير منها الى القرون السالفة ومنها ما هو من رواسب العصر الجاهلى ومعظمها مسجل فى مضامين وفى تأليف بلغنى بالتواتر عن ثقات شيوخ القبائل وغيرهم وأنه يدعى (المنّع) ضد حكم الشرع وهو اسم مرير ولا يعرف مصنفه بالضبط ولا توجد منه اليوم نسخ فى محل معروف " .

كذلك يصف لقمان (ص٦٠) موقف القبائل اليمنية فى هذا الخصوص بقوله :

" والمعروف أن القبائل فى جنوب الجزيرة العربية تتبع ما يسمى عندهم بالطاغوت . وهو عرف قبائلى محفوظ يتوارثونه جيلا بعد جيل ، وتكتب القوانين القبلية فى جذوع الأشجار وجلود الماعز وتدفن حتى يرجع إليها شيوخ القبيلة وقضاتها وقت الحاجة إليها " .

وفى مطلع العشرينات تولى أحد القضاة (فى بعض جهات اليمن) تقسيم تركة عائلة ريفية ، وعندما استحضر الورثة طلب وصية المتوفى ،

فوجد عليه دينا فرأى انتزاع الدين من جملة التركة قبل تقسيمها ، كما هو الشرع ، فرفض الورثة هذا ، فسرد عليهم الأحكام فى هذا الخصوص فلم يقتنعوا ، فتلى عليهم الآيات القاضية بتقديم الدين على التقسيم فلم يقبلوا ، فقال أما سمعتم قول على بن زيد : (الدين قبل الوراثة) فاقتنعوا : (البردونى ، ص ٩٤)

المبحث الثالث
أثر الدعوة السلفية

كان لظهور الدعوة السلفية فى نجد فى أواخر القرن الثامن عشر وانتشارها ، بتأييد آل سعود ، فى كثير من أجزاء الجزيرة العربية أثر بالغ فى انتشار الوعى الاسلامى وفى حمل القبليين العرب على ممارسة الشعائر الدينية ، وتنفيذ أحكام الشرع الاسلامى . وعندما انحسر مدها بسبب حملات محمد على باشا للقضاء عليها عاد كثير من الأعراب إلى سابق عهدهم إلى أن قامت المملكة العربية السعودية الحديثة فازدادت ممارسة القبليين لشعائر دينهم ، واتسع نطاق تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية .

ومن الشواهد على تأثير الدعوة السلفية فى انتشار الوعى الاسلامى وأداء الفروض الإسلامية ما ذكره بوركاردت (ملاحظات ، جـ١ ، ص ٩٩) فى أوائل القرن الماضى ، وذلك حيث يقول :

" لم يكن لدى البدو الى عهد قريب رجال دين أو أئمة : لكن منذ اعتناقهم المذهب الوهابى ،استخدم قلة من الشيوخ ، مثل الطيار وابن اسمير ، الملالى ، الذين علموا صغار أولادهم الكتابة . والعنزه صارمون فى أداء صلواتهم اليومية ولا تقال لديهم خطب أيام الجمع . وهم يراعون صيام رمضان بصرامة شديدة ، حتى أثناء رحلاتهم فى منتصف الصيف ، ولا شىء يحملهم على قطع الصيام سوى خشيتهم من الموت " .

كذلك يقول التنوخى (ص ٢٨) :
" فى القرون المتأخرة عم الجهل بالدين جزيرة العرب ، اللهم إلا بعض جهاتها كعمان واليمن ، ولم يستفق العرب من سباتهم ، ولا انقشعت عنهم ظلمات الجهل إلا بعد قيام محمد بن عبدالوهاب وآل سعود بثورتهم الدينية والسياسية والقومية . فترى اليوم أن عربان نجد والقصيم أقل من عربان بادية الشام وسواد العراق شرورا وجهلا بأمور الدين ، فعرب شمر مثلا يصلون ، وأما الروالة فلا يعرفون إقامة الصلاة " .

ومن الشواهد على انصراف بعض الأعراب عن أداء الفروض الإسلامية عندما انحسر تأثير الدعوة الوهابية وزال نفوذها ما ذكره بوركاردت (ملاحظات ، جـ ١ ، ص ٢٨١) فى أوائل القرن الماضى وذلك حيث يقول :

" لدى البدو فى كل شبه الجزيرة العربية أفكار صحيحة عن الله ، لكنهم قلما يراعون قواعد ديانتهم . وقد حاول الوهابيون دون جدوى جعلهم أكثر تدينا . وقد تدفع الرهبة من العقاب بعض القبائل التى كانت تحت سيطرة الوهابيين المباشرة إلى مراعاة شعائر دينهم على نحو أكثر انتظاما ، لكنها كانت استجابة إجبارية ، فبمجرد أن ضعفت السلطة الوهابية ، عقب هجمات محمد على باشا ، عاد البدو جميعا الى سابق عهدهم من حيث التكاسل فى القيام بالشعائر الدينية . وبينما اعتنق كثير من العرب المتوطنين فى نجد واليمن المذهب الوهابى فى حماس ، لم يكن من بين أنصاره سوى القليل جدا من البدو ، ولو أن بعضهم أيد بإخلاص نظام الحكم الذى أقامه المذهب الجديد ، وكان عليهم أن يبدوا حماسا فى الظاهر أو حتى تطرفا بأمل خدمة مصالحهم السياسية . وفى الحجاز فى الوقت الحاضر حيث قضى على النفوذ الوهابى ، يبدى البدو عدم انتظام أكثر مما كان عليه الحال من قبل ، ولكى يدللوا على أنهم تخلوا كلية عن المذهب الوهابى ، لا يؤدون الصلاة على الإطلاق " .

ويصف أحد الباحثين الانجليز (ديكسون ، ط؟) موقف البدو من

أبنـاء قبـائل شـمال شـرق الجزيـرة العربيـة فـى منتصـف القرن الحـالى مـن الإيمان بالله وممارسة الشعائر الإسلامية فيقول :

" البدوى الحقيقى رجل ذو إيمان عميق ، وحياته الشـاقة فـى الصـحـراء بما تنطوى عليه من أخطار دائمة للإنسان والحيوان تنمى فيه الشعور بـالقرب من خالقـه والاعتمـاد عليـه . فـالمنظر الكـالح الـذى يحيـط بـه ، والصحـارى الرملية الواسعة ، واللون الدمـوى لغـروب الشـمس المتوهـج واللـون الأصـفر القاتم للعواصف الرملية ، وهى تجسيد مؤكد للشـر المرعـب ، وأخـيرا وليـس آخـرا الرفرفـة الشـيطانية لفـرن السـاحر ، وهـى ترتعـش فـوق الأرض ، مـع أختها القاسية السراب الخادع دائما ، كل ذلـك يحملـه علـى الاقتنـاع بـأن اللـه الواحد الأحد قريب منه على الدوام وأنه إذا كان مسلما صادقا أعانه الله عنـد مجـىء الخطـر . فهـو دائـم التفكـير فـى اللـه واسـم اللـه علـى شـفتيه بصـورة متصلة . وهو يصلى خمس مرات يوميا ولا يمكنه أن يفعل شيئا دون التوسـل إلى الله أن يمنحه عونه ويعتـبر أن واجبـه نحـو اللـه مقدم علـى واجبـه نحـو جاره وأن واجبه نحو جاره مقدم على واجبه نحو نفسه " .

المبحث الرابع
نماذج من أدعية القبليين العرب

قلما يحفظ البدوى أو القبلى ، كما سبق أن رأينا شيئا من القـرآن حفظـا جيدا مضبوطا وقلما يعرفون قواعد الصلاة من ركوع وسجود . غيـر أن لهـم بعض الأدعية التى يتوجهون بها إلى الله سبحانه وتعالى ، التى تـنزل عندهـم منزلة الصلاة . ونسوق فيما يلى مقتطفات من هذه الأدعية :

فلدى قبيلة الشرارات (سلمان ، ص ١٦١) قد يدعو الرجل ربـه علـى النحو التالى :

" يا الله يا الله يا الله . قامت الصـلاة والله أقامها . يارب فرشت عباتى

تقبل صلاتى الحمد لله حمد البلاد بالمطر . حمد الأنثى بالذكر . حمد العين بالنظر . حمد من شاف عورة وستر . يا ماحى السيئات تمحى سيئاتى . يا كاسب الحسنات تكسب حسناتى وترحمنى وترحم أهلى وأمواتى . دخيلك من الإثنين الأسودين اللى بيدهم مطرق حديدين واحد يضرب على الرأس والآخر على الرجلين . استغفر الله على ما لهيت . واستغفرك بالله على ما سهيت . واستغفرك على زلة جنيت . وارحمنى حى وميت "

ولدى الحمايدة (سليمان ، ص ١٦٣) قد يصلى الرجل فيقول : " سبحان الله سبحان الله . يا مسير الجناح (أى الطير) ولا ندرى أين راح . يارب تسترنا وتستر عوراتنا . وترمى الظالمين بالظالمين وتطلعنا من بينهم سالمين"

ولدى بنى صخر (سليمان ، ص ١٦٣) قد يصلى الرجل قائلا : " يا مهرة بغطاها . الحمد لله الذى أعطاها . الله أكبر الله أكبر " .

ومن البدو (سليمان ، ص ١٦٤) من يصلى عند ارتفاع الشمس قائلا :

" طلعت الشمس . ارتفع العرش . أعطنا خير اليوم واكفنا شر أمس . واكفنا شر من زادت عليه النفس . من جن ومن إنس " .

وعند غروبها يقولون :

" يارب الغروب . لا تضيع علينا المطلوب عند مساك الطيب . جيب لنا فرحك القريب " .

وعند صعود الهلال يأخذون فى يدهم عودا يابسا ويكسرونه قائلين : " يا هلال الصعود كل شهر تعود يجعلك هلال مسرة لا هلال مضرة . در دو . در دو . در دو . هل هلالك وعز جلالك سبحانك فى مكانك " .

ويقول الحارث فى بدء عمله :

" يارب ترزقنا وترزق أهلنا . يارازق الهاجم والباجم يا مرزق الطير فِي ظلام الليل يارب الفلال وفضاة البال ياللـه أنا قلطناك (أى قدمناك) ومتوكلين عليك . يارب تسعدنا وتسعد عيالنا " .

ولهم دعاء خاص بالأمطار . فعندما ينقطع المطر وتيبس الأعشاب وتجف الآبار ويكاد العرب يهلكون من قلة المطر ، ترفع النساء أصواتهن ويسترحمن السحب . فتعمد النساء إلى خشبتين يرفعنهما على شكل صليب ويلبسنه الثياب النسائية الجميلة والحلى المزركشة ويصنعن رأسا لذلك الصنم ويطوقن عنقه بالقلائد الثمينة ، والأقمشة الحريرية . ويدعى هذا التمثال عندهن بأم الغيث . وتحمله السيدة العظيمة فى عشيرتها ويتبعها جمهور كبير من النساء وهن يرنمن :

" أم الغيث يا دائم — بلى زريعنا النائم
بلى زرع أبوجابر — الّى بلكرم دائم
أم الغيث يا دائم — اسقى زريعنا النائم
راحت أم الغيث تجيب الزلازل — ما جات غير الزرع طول السنابل
راحت أم الغيث تجيب الرياح — ما جات غير الزرع طول الرماح
راحت أم الغيث تجيب الرعود — ما جات غير الزرع طول القعود
أم الغيث يا دائم — خلى سيلها يدعج
أم الغيث يا ربى — اسقى زريعنا الغربى
أم الغيث يا دائم — اسقى زريعنا النائم

ويزعمون أن هذه الصلاة النسائية ترفع إلى العرش وتحرك قلب الرب عز وجل فيعطف على أولئك النساء والبنات المرتلات فيرسل مطرا مدرارا يحى الزروع ويملأ الآبار . (سلمان ، ص ١٦٤ و ١٦٥)

الفصل الثانى
السلوك الجنسى

يختلف المفهوم السائد لدى قبائل شمال الجزيرة العربيـة عمـا ينبغـى أن يكون عليه سلوك كل من الجنسين نحو الآخر ، عن المفهوم السائد لدى قبـائل الجنوب فى هذا الخصوص اختلافا بينا .

فالقاعدة العامة لدى قبائل الشمـال التشـدد بالنسـبة لاقتضـاء العفـة مـن النساء قبل الزواج وأثناءه تشددا يبلغ بها حـد الإفـراط ،بينمـا تتسـاهل القبـائل الجنوبية بالنسبة لهذا الأمر تساهلا يصل بها أحيانا إلى حد التفريط .

فالقـاعدة العامـة لـدى القبـائل الشـمالية هـى التشـدد المطلـق بالنسـبة للعلاقات السابقة على الزواج ، والخطر الصـارم علـى الزوجـة فـى الاتصـال بغير زوجها . والقاعدة العامة لدى قبائل الجنوب التساهل الى حـد مـا بالنسـبة للعلاقات السابقة على الزواج والسماح للزوجة فى حالات معينة بأن تكون لها علاقة جنسية بغير زوجها .

وإذا كانت القاعدة العامة لدى قبائل الشمال هى التشدد فى موضوع عفة النساء ، فقد يكون لهذه القاعدة بعض اسـتثناءات تفسـرها هجـرة بعـض قبـائل الجنوب واستقرارها فى الشمال . وإذا كانت القاعدة العامة فى قبـائل الجنـوب هى التساهل فى النظر الى عفة النساء ، فقد ترد على هذه القـاعدة اسـتثناءات يمكن تفسيرها بهجرة عكسية من قبائل الشـمال واسـتقرارها فيـه ، كمـا يمكـن تفسيرها فى ضوء تأثر هذه القبائل بالدعوة السلفية (الوهابية).

ومـن الممكـن أن نرجـع غلبـة التشـدد بالنسـبة لعفـة النسـاء لـدى قبـائل الشمال الى عدة عوامل .

١ - أن القبائـل الشماليـة كانـت منذ وقـت سـابق على الإسـلام تأخذ

بمفهوم القرابة الأبوية ، حيث ينسب الأولاد إلى أبيهم ويصبحون أعضاء في جماعة الأب . والملاحظ في المجتمعات الأبوية ، بصفة عامة ، أنها تميل إلى التشدد في اقتضاء العفة من النساء بحيث يكون أولاد الرجل قد جاءوا حقيقة من صلبه .

٢ - كانت قبائل الشمال أكثر انفتاحا على الحضارات القديمة المجاورة وأكثر استعدادا للتأثر بنظمها وتقاليدها .

ومن المعروف أن شرائع بلاد النهرين البابلية والآشورية ، وشريعة قدماء المصريين ، كانت تتشدد بالنسبة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين الجنسين ، سواء قبل الزواج أم أثناء الزواج .

٣ - أن قبائل الشمال كانت كقاعدة عامة أكثر تأثرا بالإسلام ، وكذلك أكثر تأثرا بالدعوة الاصلاحية (الوهابية) .

ويمكن تفسير التساهل بالنسبة للعلاقات الجنسية لدى قبائل الجنوب في ضوء الاعتبارات التالية :

١ - ثمة شواهد على أن كثيرا من قبائل جنوب الجزيرة العربية كانت ، وربما ما زال البعض منها ، تأخذ بمفهوم القرابة الأمية ، حيث ينسب أولاد المرأة إلى أقاربها من جهة أمها ويكونون أعضاء في جماعتها فمن الملاحظ أن القبائل التي تأخذ بالقرابة الأمية لا تتشدد في اقتضاء العفة من النساء حيث أن أولاد المرأة سواء ولدوا من علاقة سابقة على الزواج أم أثناء الزواج وسواء ولدوا من الزوج أم من غيره فهم ينسبون إليها ويكونون أعضاء في جماعة قرابتها .

٢ - قبائل جنوب الجزيرة العربية كانت أكثر ارتباطا بافريقيا منها بالحضارات الشمالية ومن ثم فإن قبائل جنوب الجزيرة العربية كانت أكثر

تأثرا بعادات وتقاليد القبائل الافريقية . ومن الثابت أن القبائل الافريقية أكثر تسامحا وتساهلا بالنسبة لعفة النساء من الحضارات القديمة .

٣ - أن كثيرا من قبائل جنوب الجزيرة العربية ، لاسيما تلك التى تعيش فى مناطق جبلية نائية ، ظل بمنأى عن تأثير الإسلام ، كما ظل أيضا بمنأى عن تأثير الدعوة الاصلاحية التى ظهرت فى نجد فى أواخر القرن الثامن عشر .

وفيما يلى نستعرض أولا موقف القبائل الجنوبية ثم موقف القبائل الشمالية .

المبحث الأول
قبائل جنوب الجزيرة العربية
وبعض قبائل المهجر

يشيع لدى قبائل الجنوب مفهوم بالنسبة للمرأة يختلف عن المفهوم السائد عنها لدى قبائل الشمال .

ففى الجنوب يشيع سفور المرأة واختلاطها بالرجال فى البوادى والقرى . ولا يشذ عن ذلك سوى بعض المدن وبعض الجهات القبلية التى تأثرت بالعادات الهندية أو الفارسية أو خضعت لمؤثرات دينية .

بل أن الأمر فى الجنوب لا يقتصر على ابراز المرأة وجهها ، وإنما يمتد إلى أجزاء أخرى من جسدها ، بل قد لا تجد المرأة غضاضة ، فى بعض الجهات ، فى السير عارية الصدر أو الخصر .

يقول ابن المجاور (ص ٥٢) فى أوائل القرن السابع الهجرى عن بعض قبائل اليمن :

" ليس بلبس نساؤهم إلا الأدم . وذلك أن المرأة تأخذ طاقين من أديم تخيط بعضه إلى بعضه وتقور فيه قوارة وتكتسيه ، فإذا مشت بان جميع بدنها من فوق ومن تحت . وإذا رأى غريب المرأة على ذلك الزى يقول لها: استترى . فيقول له زوجها : اكسها فان كساها وإلا قتله . لأنهم يقولون : من ستر غير " .

ويقول تاميزيه (ص٦٨) وهو طبيب فرنسي صحب الحملة التى أرسلها محمد على باشا إلى الحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر فى وصف زى المرأة فى قرية القنفدة :

" وهى تأتزر عادة بفوطة تستر جسمها من أعلى الخصر إلى أخمص القدم ، وتضع على أكتافها غطاء وفوقه ملاية ، إلا أن صدرها يظل مكشوفا ، ويظهر أنه تحرص على تغطية وجهها أكثر من حرصها على تغطية صدرها ."

ونستعرض فيما يلى بعض مظاهر السلوك الجنسى قبل الزواج وأثناءه.

أولا ـ السلوك الجنسى قبل الزواج :

تتساهل قبائل الجنوب ، كقاعدة عامة ، بالنسبة للعلاقات بين الجنسين . فمنها ما يسمح للفتية والفتيات باللقاء والرقص سويا بل والمداعبة مع الامتناع عن أى اتصال جنسى . ومنها ما يسمح بمثل هذا الاتصال الجنسى ، ولا يؤثمه ولو تمخض عنه حمل وانجاب أولاد . بل أن منها ما يسمح بنوع من زواج التجربة .

(أ) لقاءات بين الجنسين :

يسمح العرف لدى بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية بلقاءات بين الجنسين ، حيث يمكن لكل فتى أن يراقص الفتاة التى تروقه .

فلدى قبائل الحموم وقبائل سيبان فى حضرموت وقبائل عدن الغربية يلتقى الفتية والفتيات فى المناسبات المختلفة فى حلبات الرقص . حيث يرقص الجميع نساءا ورجالا ، وشيبا وشبانا دون أن يكون فى ذلك أدنى حرج ... ويستمر الرقص الى وقت متأخر من الليل ، يذهب بعده الفتيان والفتيات إلى أكواخهم ، بعد أن اختار كل فتى وفتاة من يروق له من فتيان أو فتيات الحى للنوم فى سرير واحد ولكن هناك تقاليد صارمة تجب مراعاتها فلا يحدث فى مثل هذه الحالات ما يخل بالشرف أو يسبب مضاعفات غير حميدة العواقب ، وهذا العمل يعتبر بداية الخطوبة ، ويستمر بعدها الخطيبان يخرجان معا للمرعى أو الصيد أو الزراعة ، ويحضران حفلات الرقص ، ويرقصان معا ، وينامان معا فى سرير واحد ، ويتناولان الطعام معا . وقد تستمر هذه الحالة سنة كاملة أو أكثر ، إما يفترقان بعدها دون أى التزامات ، أو يبدآن فى اتمام مراسيم الزواج : (محجوب زيادة ، بحث غير منشور) .

(ب) ـ علاقات جنسية :

يسمح العرف لدى بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية للفتية والفتيات بانشاء علاقات جنسية سابقة على الزواج . ولا يؤثم العرف مثل هذه العلاقات ولو تمخض عنها حمل وانجاب أولاد .

يصف حمزه (ص ١٠٨) عادة احدى قبائل تهامة فى هذا الخصوص فيقول : " ومن أرذل عادات (هذه القبيلة) الاختلاط الجنسى بين الرجال والنساء من الأبكار والثيبات ... وقد لا تتزوج البكر زواجا شرعيا قبل أن تكون ولدت ولدا أو أكثر سفاحا ، والظاهر أن كثيرين يرغبون فى زواج البنت ذات الرقم القياسى فى عدد أولاد السفاح . ويسمى ولد السفاح عندهم (ولد الهيجة) وفىَ لهجة أهل البلاد (ولد امهيجة) . والهيجة هى الغيضة أو الغابة ، أى الولد الذى ولد فى الهيجة وليس على فراش أهله .

ويصف شلحذ (العربيــة الجنوبية ، جـ ٣ ، ص ١١٠) الذى قام

بدراسة ميدانية علىَ قبائل الحموم فى حضرموت ١٩٧٠ موقف هـذه القبـائل المترخص من لعلاقات الجنسية فيقول :

" يسمح لعرف للفتاة ، وللزوجة في حالة تغيب زوجها ، باتخاذ عشـيق من بين رجال قبيلتها ، سواء كان عازبا أم متزوجا . غير أنه من الواجب أن يكون رجلا ذا شرف يتمتع بالصحة التامة ، ومعروفا بمزاياه الخلقية والبدنيـة علـى السـواء : سمو النفس والذكـاء والشـجاعة والكـرم والقـوة والنشــاط . وباختصـار الرجل المثالى الـذى يمكـن لامـرأة أن تحلـم بـه أبـا لطفلهـا . وفـى الواقع من واجـب المـرأة عنـد اختيارهـا عشـيقها أن تدلـل للجميـع علـى أنهـا لا تسـتهدف بفعلتهـا المتعـة الجسـدية ، وانمـا الرغبـة فـى انجـاب طفـل كـامل الاوصـاف . ويطلق على هذا العرف ، الذى يتجه نحو الاختفاء ، اسم الكسـب أو الاكتساب ، ولا يستشعر الحموم ، شأنهم فى هذا شأن قدامـى العـرب ، أى ضيق من جراء الإعلان عن ولادة تمت خارج الزواج . بل إن العشيرة التـى انجبت إحدى بنتها طفلا ينبىء بأنه سوف يكون رجلا عظيمـا ، تحـس بنـوع من الفخر . وطبقا لمـا أبلغنـى بـه المخبرون سـرعان مـا تُطلب للزواج الأم التى دللت على خصوبتها بهذه الكيفية . أما الطفل فـان لـم يتم تبنيـه مـن قبـل الزوج المقبل ، لذى قد يكـون هـو الـذى انجبـه ، فسـوف ينتمـى الـى عشـيرة الأم ، ويحمل لسم أمه أو اسم خاله . وكثيرا ما يلقب بلقـب ، لا ينطـوى علـى أية إهانة ، لإبراز صفة مولده غير الشـرعى علـى مـرأى مـن الجميـع حيـث يلقب بالفَرّخ " .

ويقول الشاطرى (٢٧٦) عن بعض قبائل حضرموت : " بلغ الاستهتار ببعض نساء بادية الحمـوم درجـة الاحتكـاك بـالجنس الآخـر ليس عـن دوافـع الرقص فحسب بل متى شاعت ، مما قد تولـد عنـه وجـود مفاسـد وأبنـاء غيـر شـرعيين ، ولمـا اسـتفاض عندهم هـذا التفريـخ ، كمـا يسـميه البعـض ، بـذل الوعاظ والمصلحون جهودا جبارة للقضاء على أسبابه ومنها ارتفاع المهور ".

وروى تيـغير (ص ١٩٩) أن مـن قبائـل جنُوب الجزيرة ما يسمح

العرف فيه للمرأة بإنجاب أولاد خارج الزواج . وذكر أنه عندما روى لمرافقيه قصة شاب ، ينتمي إلى إحدى قبائل العراق ، قتل أخته لأنه شك في سلوكها علق على ذلك أحدهم قائلا : أن من الوحشية قتل فتاة ولو كانت فاسدة " . وأكد أن أشياء كهذه لم تحدث بينهم إطلاقا .

وذكرت جراتز (ص ١٣٨) أن لدى بدو وسط عمان بعض حالات لأولاد غير شرعيين ، وهى حالات غير شائعة ، لكن عندما تحدث لا تتخلى القبيلة لا عن الطفل ولا عن الأم .

وكان العرف ، لدى بعض قبائل اليمن يسمح ، بنوع من زواج التجربة، فكان للخطيب معاشرة الفتاة التى يرغب فى الزواج منها ، وكان له بعد ذلك أن يقرر إتمام الزواج أو العدول عنه .

وفى وصف هذه العادة يقول ابن المجاور (ص ٥٤) فى أوائل القرن السابع الهجرى : " وإذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له عمرو بإيجاب القول ، دخل زيد إلى بنت عمرو واستفضها وبات معها طول ليلته ، فإذا أصبح خرج وترك نعليه فى بيت بنت عمرو فيعلم عمرو أنه رضى بها ، فحينئذ يعقد له عقد النكاح . وإن لبس حذاءه وغدا علم عمرو أن زيدا لم يرض ببنته . وهذا فى أجاويد هؤلاء القوم " .

وشبيه بذلك ما رواه اللواء رفعت باشا (ص ٣٤٨ ، هـ (١)) فى أوائل القرن الحالى عن عادة بعض البدو من سكان صحراء مصر الغربية من أن " العادة عند أهل مريوط فى الزواج أن يذهب الخطيب إلى الآبار التى ينزح منها المياه بكر النساء ، فينتقى منهن من يشاء ويسأل عن أبيها وأين يقيم ، ويذهب إلى خيمته ويخطب إليه إبنته ، فيدع له الخيمة بعد أن يخليها من أسرته ، حاشا المخطوبة فيجلس إليها الخطيب بعد أن ينصب بندقيته بالباب ، ويتحادثان ساعات ثم ينصرف ، وتعود الأسرة إلى بيتها ، ثم يعاود الخطب ذلك ، حتى تتوثق بين الخطيبين روابط الألفة والمحبة ،

فيتزوجها ولو بعد حملها منه . وإن رغب عنها إغترب عن أهلها سنة كاملة . ثم يلتجيء إلى عظيم ليقدر عليه دية ، فإن قبل ما قدر,وإلا قُتل " .

ثانيا ـ السلوك الجنسى أثناء الزواج :

لم يكن العرف لدى عديد من قبائل جنوب الجزيرة العربية يتطلب البكارة فى العروس التى تتزوج للمرة الأولى ، وفضلا عن ذلك كان العرف يسمح للزوجة ، فى حالات معينة ، بأن تكون لها علاقة جنسية بغير زوجها .

ونتحدث فيما يلى عن كل من هذه الأمور فى شىء من التفصيل .

(أ) عدم الإهتمام بالبكارة :

من المنطقى لدى القبائل التى تسمح للفتية والفتيات بعلاقات جنسية كاملة قبل الزواج أن لا تعير بكارة العروس أى إهتمام . لكن التساهل بالنسبة لإشتراط البكارة فى العروس نجده يكاد يكون عاما لدى قبائل الجنوب .

وقد وصفت رحالة غربية (جراتز ، ص ١٣٨) موقف العمانيين فى هذا الخصوص بقولها :

" وجود البكارة عند الزواج الأول أمر مفترض . ومع ذلك فإذا لم تكن الفتاة بكرا ليلة زفافها ، فلن تكون هناك ردود فعل عنيفة كتلك الشائعة لدى بعض عرب الشمال . ولقد تحدثت مع عدد من العمانيين حول الموضوع وكانوا جميعا يعتبرون أن " حوادث القتل من أجل الشرف " فى سوريا ومصر وغيرها أفعال بربرية ، ولا وجود لها هنا " .

ومع ذلك قد يجرى العرف بإعلان العريس بكارة العروس . ففى القبائل الشمالية يصعد العريس بعد فض البكارة إلى سطح المنزل ويطلق عدة عيارات نارية . (الشعبينى ، ص ١٦٩) .

(ب) الإستبضاع :

يسمح العرف لدى بعض قبائل حضرموت (الحموم) للزوجة ، أثناء غياب زوجها بأن تتخذ لنفسها عشيقا . طالما أن هدفها ليس مجرد إرضاء شهوتها ، وإنما الحصول على إبن يكون فخرا لعشيرته . ولهذا يفرض العرف عليها إختيار رجل يتمتع بمزايا بدنية وخلقية تؤهله لإنجاب طفل يكون موضع إعتزاز عشيرة المرأة . (شلحد ، العربية الجنوبية ، جـ ٣ ، ص ١١٠) .

(جـ) الضيافة الجنسية :

كان العرف لدى بعض القبائل الجنوبية يفرض على المضيف تقديم إحدى نساء بيته ، وبصفة خاصة زوجته ، لضيفه لكى تشاركه مخدعه . والشواهد على ممارسة بعض قبائل جنوب غرب الجزيرة العربية هذه العادة ، فيما مضى ، كثيرة .

يقول بن المجاور (ص ٥٤) مثلا عن إحدى قبائل اليمن : إذا نزل بهم ضيف يقولون له : بِم تتعشى ؟ يقول بكذا . وبِم تتغذى ؟ وما يقدم له إلا ما طلب وإشتهى عليهم . فإذا تعشى يقول الرجل لزوجته : روحى إكرمى الضيف ! فتجيء المرأة فتنام فى حضن الضيف إلى الصباح بلا خوف ولا حذر . ويقوم الصبح كل يغدو إلى شغله . ويقول عن أقوام آخرين : إذا نزل بهم نزيل يقولون له : بوّس وساحق ، وعض وعانق ، يعنى صاحبة البيت ، ولا تدخل فيها أى لا تطأها ، فإذا أدخلت فيها أدخلنا فيك هذا الخنجر .

ويقول الرحالة السويسرى بوركاردت (رحلات ، ص ٤٤٨) فى أوائل القرن التاسع عشر عن قبائل عسير أنه قبل أن يعلمهم الوهابيون تعاليم الإسلام الصحيحة لم يكونوا يعرفون من دينهم سوى شهادة أن " لا إله إلا الله ومحمد رسول الله " . ولم يكونوا يؤدون إطلاقا الشعائر المفروضة . وكانت قبيلة " مرقدة " وهى إحدى فروع قبيلة عسير الكبرى ، تمارس عادة قديمة لأسلافهم حيث كانت تعهد بإحدى نساء الأسرة لكى تكون رفيقا لمن ينزل

بخيامهم أو بيوتهم طيلة الليل . وفى الأغلب كانت المرأة التى تقدم على هذا النحو هى زوجة المضيف نفسه . فأبكار البنات لم يكن يضحى بهن من اجل هذا النظام الهمجى فى الضيافة . وإن إستطاع الغريب نيل الحظوة لدى رفيقته ، عومل صباح اليوم التالى بأكبر قدر من الإهتمام من قبل المضيف ، وزود عند رحيله بمؤونه تكفيه لما تبقى من رحلته ، ولكن إن لم يتمكن لسوء الحظ من إرضاء سيدة البيت وجد فى اليوم التالى ثوبه وقد انتزعت منه قطعة ، انتزعتها المرأة علامة على إحتقارها إياه ونظرا لإنتشار الخبر ، كان كل نساء المضرب وأطفاله يطاردون المسافر التعس وقد جلله الخزى . وقد واجه الوهابيون مشقة كبيرة فى سبيل حملهم على التخلى عن هذه العادة . وقد حدث بعد إقلاعهم عنها جفاف إستمر سنتين متتاليتين ، فاعتبرت القبيلة هذه الكارثة بمثابة عقاب لهم على تخليهم عن الطقوس الحميدة للضيافة التى مارسها أسلافهم خلال قرون عديدة .

كذلك لاحظ فيس ، وهو رحالة ألمانى مسلم أن النساء فى المنطقة الحدودية بين اليمن والمملكة السعودية ، كن يتمتعن بقدر أكبر من الحرية وكن أكثر حرية فى الإختلاط بالرجال منه فى الأقاليم الأكثر تشددا من الناحية الدينية فى شبه الجزيرة العربية . ويضيف أنه إلى عهد غير بعيد كان العرف فى هذه القرى الجبلية يقضى بإمداد الضيف ليس فحسب بالطعام والسكن وإنما أيضا بصحبة شابة تشاركه مخدعه . (فيلبى ، المرتفعات العربية ، ص ٢٨) .

وقد إختفت هذه العادة فى الوقت الحاضر بعد أن صارت هذه المناطق جزءا من المملكة العربية السعودية . وحيث طبقت أحكام الشرع الإسلامى تطبيقا صارما .

ويبدو أن هذه العادة قد إنتقلت إلى بعض البلاد العربية الأخرى نتيجة لهجرة بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية التى كانت تمارس هذه العادة إلى جهات أخرى .

فقد روى وسترمارك (ص ٩٤) فى أوائل القرن الحالى أن المضيف لدى بعض قبائل المغرب يعير ضيفه إبنته أو إحدى نساء بيته الأخريات إن لم يكن زوجته . فقد أبلغه أحد مخبريه من المغاربة بوجود هذا العرف فى إقليم الشاوية على شاطىء المحيط الأطلنطى . فقد جرت العادة فى هذه القبيلة بسؤال الغريب الذى يحل بهم عما إذا كان يفضل أن يكون " ضيف المسجد " أم " ضيف الخيمة " . وفى الحالة الأولى يحملون إليه طعامه فى المسجد ، وفى الحالة الثانية يصحبونه إلى خيمة خاصة حيث يمده صاحبها بالطعام وبزوجة مؤقتة .

(د) الإستخلاف على الزوجة :

كانت العادة تجرى لدى بعض قبائل جنوب غرب الجزيرة العربية بأن يودع الرجل زوجته عند رجل آخر عندما يزمع السفر . وكان على الرجل الذى يأخذ المرأة على سبيل الوديعة أن يقوم نحوها بواجبات الزوج نحو زوجته من حيث الحماية والإعالة وكان له فى مقابل ذلك أن يمارس عليها حقوق الزوج على زوجته ، ومن بينها الحق فى معاشرتها .

يقول ابن المجاور (ص ٢٦) فى أوائل القرن السابع الهجرى فى وصف هذه العادة لدى إحدى قبائل اليمن :

" فإذا خرج أحدهم إلى سفر ، أتت المرأة إلى عند المخلف أى عشيق تلك المرأة يحاضنها إلى أن يرجع زوجها ، فإذا قرب المسافر من منزله نادى بأعلى صوته : أيها المخلف اللجوج ، قد حان وقت الخروج ، ويدخل غفلة فإن وجده فى المسكن قتله . وإن كان قد خرج فقد عفا الله عما سلف . وسألت رجلا منهم فى مكة . فقلت له أيها الرجل النزيل ماذا يصنع المخلف ؟ فرد أسوء الجواب ، فقال : يسحق الخبز ويمحق المرأة " .

وقد جاء فى القاموس المحيط : ومحق تمحيقا وذلك إنهم فى الجاهلية ، إذا كان يوم المحاق بدر الرجل إلى ماء الرجل إذا غاب عنه ، فينزل عليه ،

ويسقى به ماله فإذا انسلخ كان ربه الأول أحق به .

فخلف الزوج إذن يعول المرأة (يسحق الخبز) ويضاجعها (يمحقها) في غيبة زوجها . فإذا عاد الزوج إسترد زوجته .

ويصف الرحالة السويسرى بوركاردت (رحلات ، ص ٤٥٣) فى أوائل القرن التاسع عشر هذه العادة لدى إحدى قبائل جنوب غرب الجزيرة العربية فيقول :

" إذا أزمع احد رجال هذه القبيلة القيام بسفرة ، أرسل زوجته إلى بيت احد أصدقائه ، ويكون مفهوما أن على هذا الصديق أنْ يحل محل الزوج فى كل شيء طيلة غيبته وأن يردها إليه حين عودته .

ومما يدل على أن هذه العادة ، عادة الإستخلاف على الزوجة أو تركها وديعة لدى صديق ، كانت شائعة لدى البدو فى الحجاز ما ذكره البلادى (١٦٥) من أن من قوانين البدو أن من أودع شيئا أو إئتمن عليه كان ضامنا له ما عدا الأحوال التالية :

١- المطرة الصابة ، والنار الشابة ، والقوم الكابة . أى ما يجرفه ويتلفه المطر أو تحرقه النار أو يسلبه الأعداء قهرا لا ضمان فيه .

٢- البهيمة فى ثلاثة أحوال : إذا قتلتها أختها فى المغلى أو والناس نيام ، أو قتلها بطنها ، أو قفزت من عل فتردت .

٣- العبد إذا أبق واجتهد الوديع فى ملاحقته والبُحث عنه .

٤- الثمرة المكشوفة ، أى المفتوح وعاؤها وذلك أنها مغرية واللوم

على صاحبها .

٥- المرأة إذا أمنت مع رجل ، وجاءت تشتكى وديعها لا يسمع القاضى منها ، وذلك فى عرفهم لإحتمالات منها : أنها قد تظالم الرجل لسبب أو آخر ، ويحفظون فى ذلك قصصا وأساطير ، وثانيها عدم إستطاعتها إثبات ما تدعى به . وثالثها إحتجاجا على ولى أمرها الذى يودعها مع غير محرم . وهو أمر يتنافى مع الإسلام ، غير أنه فى البادية مألوف . والقوم أعفاء موثوق بهم . ولكن لكل قاعدة شواذ ، ومن أقوالهم فيما تقدم : المرأة والتمرة لا تؤمن " .

ومن الواضح أن هذا المثل يعكس تأثير الإسلام الذى يعتبر العادة القديمة نوعا من الزنا .

(هـ) عدم التشدد فى الجزاء على زنا الزوجة :

لا يستتبع زنا الزوجة لدى قبائل الجنوب الجزاءات المتشددة السائدة لدة قبائل الشمال .

فلدى قبيلة القرا (فى ظفار) إذا زنت المرأة ، وهذا نادر جدا ، يطردونها من القبيلة إلى الشاطىء ، ويتبعون الزانى حتى يخرجوه بالسيف . فإذا لم يتمكنوا قبضوا على أية قريبة من قريباته ، وإرتكبوا معها نفس ما إرتكبه قريبها .

المبحث الثانى
قبائل شمال الجزيرة
وبعض قبائل المهجر

القاعدة العامة لدى قبائل شمال الجزيرة العربية هى إقتضاء العفة الكاملة من الفتيات قبل الزواج ، والحظر الصارم لكل علاقة بين

الزوجة وأى رجل آخر غير زوجها . وتنطبق نفس هذه القواعد على المطلقات والأرامل حيث يتطلب العرف منهن الإمتناع تماما عن الإتصال جنسيا بأى رجل .

وترتيبا على هذا المبدأ العام تميل القبائل الشمالية إلى إلزام النساء بإخفاء جميع أجزاء الجسم فيما عدا الوجه بل أن منها ما يفرض على النساء وضع النقاب ، بحيث تختفى كل معالم جسم المرأة .

فعلى سبيل المثال لدى آل مرة ـ ولو إنهم فى جنوب الجزيرة إلا أنهم خضعوا لنفس المؤثرات التى خضعت لها قبائل الشمال ، تضع النساء بعد البلوغ براقع سوداء بحيث يغطى البرقع الوجه كله .مع فتحتين للعينين . وأجسادهن تغطيها كلية أثواب طويلة الأكمام ، تصل إلى أقدامهن ، وسراويل تغطى سيقانهن تماما ، ويخفى غطاء رأس أسود كل شعر رءوسهن : (كول ، ص ٧٦) .

ونستعرض فيما يلى بعض مظاهر تشدد القبائل الشمالية بالنسبة لعفة النساء .

أولا ـ السلوك الجنسى قبل الزواج :

قد يحظر العرف لدى قبائل الشمال كل لقاء بين الفتية والفتيات وقد يسمح لهم باللقاء بل قد يسمح لهم فى بعض القبائل بالغزل لكن يحظر عليهم كل مداعبة جنسية ، ويعد كل علاقة جنسية قبل الزواج خروجا جسيما على مقتضيات العفة يستتبع قتل الطرفين .

ونتحدث فيما يلى فى شيء من التفصيل عن كل من هذه الأمور .

(ا) لقاءات بين الجنسين :

يحظر العرف لدى بعض القبائل لا سيما القبائل المتوطنة كل لقاء بين

الجنسين . وقد يسمح العرف لدى قبائل أخرى ، لا سيما القبائل البدوية بلقاءات بين أفراد الجنسين يتبادلون فيها عبارات الغزل .

لدى آل مرة على سبيل المثال ، يُتوقع من رجالهم معاملة نسائهم بتوقير وإحترام . ويبدون فى المناسبات الرسمية ، درجة كبيرة من التحفظ . لكن الفتية والفتيات الأصغر سنا عندما يكونون بمفردهم أو فى حضور أقارب أقربين ، يتمازحون ويضحكون مع بعضهم البعض . ويتبادلون شيئا من المداعبة الغزلية إذا لم يكن أبو الفتاة أو أحد إخوتها حاضرا : (كول - ص ٧٦) .

ولدى بعض قبائل سيناء (بلاد التيه) عادة تدعى الخلاط ، يجتمع فيها الشبان والشابات ليلا فى موعد معين قرب مخيمهم وذلك بغير علم أهلهم ، فيأخذون الطعام والشراب : الشبان يأتون بالخروف والدقيق والماء ، والبنات يأتين بالسمن واللبن . فيذبحون ويأكلون ويتآنسون ، ثم ينصرفون إلى خيامهم بدون أن تمس أعراضهن . وإذا مس شاب عرض فتاة فى الخلاط ، وظهر ذلك ألزموه بزواجها وإلا قتلوه : (شقير ، جـ ٢ ، ص ٣٥١)

(ب) حظر العلاقات الجنسية قبل الزواج :

يحظر العرف لدى القبائل الشمالية ، بصفة عامة ، كل علاقة جنسية سابقة على الزواج . وتعاقب هذه القبائل كل إنتهاك لهذه القاعدة بعقوبة تتسم بالشدة البالغة . ويقع تحت طائلة هذه العقوبة كل من الطرفين الذكر والأنثى . ويعتبر هذا الفعل إعتداءا على شرف أسرة المرأة وعشيرتها . ولهذا يعمد أبوها أو أخوها أو إبن عمها أو غيرهم من عصبتها إلى قتلها تطهيرا لشرفهم تخلصا من العار الذى لحقهم . كما يعمدون إلى ملاحقة شريكها لقتله لأنه بإتصاله جنسيا بإبنتهم جلب العار على رءوسهم .

ولدى بعض قبائل شرق الأردن إذا أحس أب بجرم إبنته قطع رأسها وعلقه على رمح وطاف بها فى كل القبيلة قائلا : هكذا يعاقب المجرم " .

ومنهم من يئدها حية ـ فيغطيها بالتراب إلى رأسها فقط فتأتيها الوحوش وتذيقها من العذابات أمرها . ومنهم من يسقيها السم الزعاف . ومنهم من يضع على جسمها دبسا أو عسلا ويتركها فريسة الذباب ، تموت أشنع الميتات . ومنهم من يأخذها إلى الفلاة فيضربها ضربا إليما ثم يربطها بأوتاد فى الأرض إلى أن تفترسها الحيوانات الضارية . ومنيم من يلقى بإبنته فى بئر عميقة ، ومنهم من يربطها إلى شجرة جرداء فى مواجهة الشمس فتحترق من حرارة الشمس وتموت . وأكثر الناس يقتلونها بلا شفقة بسيف حاد أو برصاصة فى رأسها : (سلمان ، ص ١٤٦)

ولدى الروالة إذا عرف الأب أو الأخ أن إبنته أو أخته حامل دعاها إلى خارج المضرب ، يتعلل بهذا السبب أو ذاك ، حيث يقتلها ويمزق جسدها إلى عشر قطع ويدفنها . ولن يقف أحد إلى جانب الفتاة ، ولن يسأل أحد عن السبب ، وسوف يتحدثون عنها كما لو كانت ماتت ميتة طبيعية : (موسيل ، ص ٢٤٠) .

بل أن القتل يتربص بالنساء لدى بعض قبائل الشمال ولو لم يثبت إرتكابهن السفاح ، لمجرد شائعة تلوكها الألسنة ثم يتضح بعد ذلك أن لا أساس لها من الصحة .

من ذلك مثلا ما رواه رجل إنجليزى كان يعمل فى وظيفة سياسية فى العراق عقب الحرب العالمية الأولى عن حادثة مفجعة وقعت على الضفة الغربية من الفرات حيث قال " كانت فتاة يتيمة تعيش مع أخيها فى خيمة قرب منزلى . وذات يوم إندفع أحد الخدم إلى البيت وأخبرنى أن الفتى طعن أخته ، وانها تناديني طالبة مساعدتى ، فذهبت إلى خيمتها حيث كانت الفتاة ممددة . قالت لى : " إننى أموت وعندى طلب أخير أطلبه منك " . سألتها " ما هو " . فقالت : أخبر أخى أننى بريئة ، وأننى لم أفعل أبدا أى شيء يجلب له العار . أننى أقسم على هذا وأنا أموت . أرجوك لا تعاقبه مطلقا . إننى أعلم أن الناس أخذت تتكلم عنى بالسوء . وحسب تقاليدنا لابد

من قتلى ، وقد فعل عين الصواب " : (تيسغر ، ص ٢٠٠) .

(جـ) ـ عدم السماح بالزواج بين المحبين :

يذهب العرف لدى بعض القبائل التى تتشدد فى موضوع عفة النساء إلى حظر الزواج بين الفتى والفتاة إذا عرف أنهما على علاقة حب سابقة .

فآل مرة يعترفون بالحب بوصفه عاطفة شديدة لصيقة بالذكور والإناث على السواء ، لكنهم يقولون أن الزيجات المناسبة لا تقوم على الحب . وفى الواقع إذا عرف عن فتى وفتاة أن كلا منهما يحب الآخر ، فسوف يرفض أبو الفتاة زواجهما خشية أن توضع سمعة الفتاة موضع شك .

ثانيا ـ السلوك الجنسى أثناء الزواج :

تتشدد القبائل الشمالية كقاعدة عامة ، فى إقتضاء أن تكون الفتاة بكرا عند زواجها الأول . وقد تقتضى الإعلان عن بكارة العروس ليلة الزفاف . وعدم بكارة العروس يعتبر لدى كثير من القبائل سببا كافيا لاعادة الفتاة إلى أهلها والمطالبة بإسترداد المهر . كذلك لا تعرف القبائل الشمالية تلك العادات التى كانت سائدة لدى بعض قبائل الجنوب والتى كانت تسمح للزوجة ، فى حالات معينة ، بمعاشرة غير زوجها .

ونتحدث فيما يلى عن كل من هذه الأمور فى شىء من التفصيل .

(أ) أهمية البكارة :

تعلق قبائل الشمال ، كقاعدة عامة ، أهمية كبرى على إحتفاظ الفتاة ببكارتها إلى حين زواجها . وتقر للعريس بالحق فى أن يعيد عروسه غير البكر إلى أهلها . ومن الرجال من يسارع إلى إعادة العروس غير البكر إلى أهلها بمجرد إكتشافه عدم بكارتها ومنهم من يتريث بعض الشىء وينتظر فرصة مواتية حتى لا يجرح مشاعر أسرتها .

فلدى بدو بير سبع بفلسطين إذا إكتشف الزوج ليلة الزفاف أن زوجته ليست عذراء ، من حقه أن يطلقها فى اليوم التالى مباشرة : (العارف ، ص ٦٨) .

ولدى الجبايش ، فى جنوب العراق ، إذا تبين أن العروس غير بكر ، كان ذلك سببا فى الطلاق : (سليم ، ص ٦١) .

وفى قرى صعيد مصر إذا أخطأت فتاة قبل زواجها وتبين عند زواجها أنها غير بكر ، فإن العار الذى يلحق أسرتها من الشدة بحيث أنه كثيرا ما يعمد الأب والأم إلى قتلها . فكثيرا ما يصطحبان الطفلة المسكينة ـ لأنها فى الغالب لا تكون أكثر من طفلة ـ إلى الصحراء حيث يقضيان عليها ، بذبحها عادة : (بلاكمان ، ص ٣٣) .

ولدى بدو جنوب تونس إذا وجد العريس عروسه ثيبا طردها حالا ، أو بعد أيام حسب قوة إحتماله للصدمة . وقل أن يوجد العاقل الذى يصبر مدة طويلة ليختار مناسبة أخرى للفراق حفاظا على سمعة الفتاة . أما السكوت تماما والرضا بالواقع فهذا لا يوجد فى تقاليد البادية وكثيرا ما تؤدى فضيحة الفتاة هذه إلى قتلها من طرف أبيها أو وليها : (المرزوقى ، ص ٩٥) .

ولدى كثير من القبائل العربية يجرى العرف بالإعلان عن بكارة العروس . ويتخذ الإعلان عن البكارة ، عادة صورة ابراز أو تعليق قطعة القماش التى تحمل أثر فض البكارة . وقد يتخذ الإعلان عن البكارة صورة إطلاق بعض الأعيرة النارية .

فلدى قبائل أولاد على ، فى صحراء مصر الغربية :

" تتم عملية إثبات وجود البكارة عند العروس عقب صلاة العصر وعقب عقد القران حيث تأتى مجموعة من الشباب يزفون العريس ويهللون ويصفقون حتى مدخل الخيمة ، ويدخل العريس الخيمة ويخرج جميع من بها

إلا العروس . ويطلب العريس من العروس الجلوس والمساعدة فى إظهار بكارتها لأن الجميع خارج الخيمة ينتظرون الجرد (الحرام) وعليه دم بكارتها . وتتم عملية إظهار البكارة بأصبع اليد وعند ثبوت سلامة بكارتها يخرج الجرد وينشر على مقدمة الخيمة . وعندئذ تهلل النسوة بالزغاريد والأغانى ويطلق الشباب والرجال الأعيرة النارية إبتهاجا بشرف العروس وأهلها " . (عطيوه ، ص ١٧٧) .

ولدى بعض البدو فى جنوب تونس يجرى العرف بأن يقف العراسة (أصحاب العريس) أمام باب الغرفة يتفقدونه بالطرق من حين إلى آخر ، ليسرع العريس بإعلان الإنتصار ، غير إنهم لا يصدقون مجرد الإعلان بل لابد من إطلاعهم على الدليل المتمثل فى الثوب الملطخ بالدماء : (المرزوقى، ص ٩٥) .

ومع ذلك قد تستهجن بعض القبائل عادة الإعلان عن البكارة وترى فيها إجراء بربريا .

فلدى آل مرة ، فى الربع الخالى ، مثلا تعتبر بكارة العروس ، فى اول زواج لها ، شرطا لا غنى عنه ، ومع ذلك فهم لا يتطلبون قطعة من القماش ملوثة بالدم كدليل على البكارة وعندما أبلغهم كول (باحث أمريكى) عن هذه العادة لدى أقوام آخرين إستنكروها وإعتبروها عادة بربرية : (كول، ص ٧٤)

وقد يكتفى لدى بعض القبائل بالإعلان عن فض البكارة بإطلاق طلق نارى .

فقد روى أحد أبناء اليمن أنه وهو صغير صعد إلى سطح بيتهم ليلا بعد العشاء وسمع صوت طلق نارى من بيت مقابل لبيتهم ففزع وهرع إلى مكان والده الذى كان سامرا فيه مع بعض أصدقائه فأخبره بما سمع فتحدثوا بقولهم : هذا فلان الحريو (العريس) قد إفتض عروسته الحريوة . فإطلاق

النار إعلان بذلك . وذكر أنه شاهد نفس هذه العادة فى بعض جهات العراق عندما كان فى زيارة له : (الحوالى ، ص ١٣٤) .

(ب) التشدد فى إقتضاء العفة من الزوجة :

لا تسمح القبائل الشمالية للزوجة بالإتصال بغير زوجها بأى حال من الأحوال . ولا يتساهل القبليون الشماليون بالنسبة لزنا الزوجة . ويجرى العرف عندهم بإعتبار زنا الزوجة سببا كافيا لطلاقها . بل أن زنا الزوجة يستتبع قتلها على يد زوجها إذا كان هو فى نفس الوقت قريبها الأقرب وإلا قتلها أبوها أو أخوها .

يقول بوركاردت (ملاحظات ، جـ ١ ، ص ١١٠) فى أوائل القرن التاسع عشر أنه إذا كان لدى عربى دليل واضح على خيانة زوجته إتهمها أمام أبيها أو أخيها . وإذا ثبت الزنا بصورة لا تدعو للشك ذبحها الأب نفسه أو أخوها .

ويقول ديكسون (ص ١١٥) فى منتصف القرن العشرين عن قبائل شمال شرق الجزيرة العربية أن الرجل إذا تزوج من قبيلة أخرى وإتضح له أن زوجته غير وفية ، لم يبالى كثيرا لكنه يلمح لعصبتها أنها ليست على ما يرام . فيقوم أبناء عمها بقتلها . وهم يقتلونها تطهيرا لشرف الأسرة ، وحتى يمكنهم رفع رءوسهم فى مجلس الرجال .

ولدى قبيلة بنى صخر ، فى شرق الأردن ، إذا إرتكبت إمرأة متزوجة زنا طلقها زوجها وأرسلها إلى رب أسرتها وهو فى العادة أبوها أو أخوها . ويجلس رجال أسرتها لمحاكمتها ويقوم الزوج بدور المدعى لا بدور القاضى. وإذا وجدت مذنبة ، قد يجرونها فى الحال خارج الخيمة ويذبحونها : (سيبروك ، ص ٨٠)

وفى قرى صعيد مصر يعاقب على زنا الزوجة بالموت الذى يتخذ

أحيانا صورة الإغراق . وإذا أمكن القبض على شريكها من الممكن إلقاؤه معها فى نهر أو ترعة : (بلاكمان ، ص ٣٤) .

وقد تتعرض الزوجة لدى قبائل الشمال لألسنة تلوك سمعتها وعندئذ لا يجد عصبتها مفرا من قتلها تطهيرا لسمعتهم وقد يتضح فيما بعد أن الإتهام كان مجردا من الصحة .

فقد روى مثلا أن فتاة بدوية من عشيرة عريقة ، فى شرق الأردن ، كانت متزوجة فى عشيرة أخرى . وجاء فاسق بنبأ سىء حيث وضع قطعة من قماش أسود فى بيت أهلها وقال هذه إبنتكم ـ أى أنها سودت سمعتهم فى ديار الغربة . وعملت عملا قبيحا . وأرسلوا إليها شقيقها يطلبونها . وعندما وصلت إلى حوطة أحد الأولياء برز بقية أهلها وطاردوها ففهمت أنهم يريدون بها سوءا ، فدخلت حوطة الولى ، ودخلت على قبره وقالت " (أنا دخيل على الله ثم عليك أيها الولى) ومع ذلك قتلوها فكان أن قطع الله ذرية تلك العائلة ، وتلاحقت عليهم المصائب . وتبين فيما بعد أن الذى فعل ذلك كان مدسوسا من شخص كان يحبها . ولم يتزوجها فرغب فى الإنتقام منها عندما لم يستطع الحصول عليها : (العبادى ، من القيم والأداب البدوية ، ص٨٦) .

الفصل الثالث

تقسيم العمل بين الجنسين

تجرى العادة فى المجتمعات القبلية بتوزيع الأعمال على أفراد الجنسين . فثمة أعمال يقوم بها الذكور وثمة أعمال تتولاها الاناث وثمة أعمال يمكن للذكر أو الأنثى القيام بها دونما تفرقة . والخطوط العريضة للتقسيم التقليدى للعمل بين الجنسين واحدة فى المجتمعات القبلية المختلفة ، ففى الأعم الأغلب يختص الذكور بالأنشطة التى تقتضى مجهودا عضليا كبيرا بينما يختص الاناث بالأعمال المنزلية اليومية التى لا تقتضى مثل هذا الجهد . ويختلف التقسيم التقليدى للعمل بين الجنسين تبعا لطبيعة حياة المجتمع وكونه مجتمعا رعويا أم مجتمعا زراعيا .

ولدى القبائل العربية المعاصرة نجد توزيعا تقليديا للعمل بين الجنسين ، فثمة أعمال يجرى العرف بقصرها على الرجال وثمة أعمال أخرى تعتبر خاصة بالنساء . وثمة أعمال يجوز القيام بها لكل من الرجال والنساء على السواء . ومن الأعمال المقصورة على الرجال أعمال لا يجوز ، بحال من الأحوال ، أن تقوم بها امرأة ، وأخرى يمكن للمرأة عند الضرورة القصوى القيام بها . وبالمثل ثمة أعمال مقصورة على النساء لا يجوز للرجال ، بأية حال من الأحوال ، القيام بها ، وأعمال يجوز لهم القيام بها عندما تقتضى الضرورة ذلك . وإذا كان التقسيم التقليدى للعمل بين الجنسين ، متماثلا لدى غالبية القبائل ، فقد تشذ بعض القبائل فى هذا الجانب أو ذاك من جوانب هذا التقسيم .

ونستعرض فيما يلى أولا الأعمال التى يجرى العرف باعتبارها من اختصاص الذكور ثم تلك التى تعتبر من اختصاص الإناث .

المبحث الأول
أعمال الذكور

يجرى العرف ، لدى القبائل العربية ، باختصاص الرجال بأعمال معينة لا تشاركهم فيها النساء .

فالرجال مثلا هم الذين يقومون بالغزو والحرب . فيخططون للغزو ويتولون تنفيذه . وهم الذين يدافعون عن مضاربهم فى مواجهة الغزاة . والرجال هم وحدهم الذين يقومون بالقتال فى الحروب . غير أن للنساء دورا فى الحروب القبلية . فالمرأة وان لم تشارك فى القتال مشاركة فعلية ، فعلى عاتقها يقع تمريض الجرحى وسقاء العطشى ونقل جثث القتلى ، وبعث الحمية والنخوة فى نفوس المقاتلين . وقد يقر لهن العرف ، فى بعض القبائل ، بالحق فى إنهاء القتال عندما يشعرن أن رجالهن على وشك أن تحل بهم الهزيمة .

والرجال هم الذين يقومون بقنص الحيوانات البرية ، لاسيما الكبيرة منها ، سواء باستخدام الصقور أم الكلاب . ومع ذلك قد تشارك النساء فى صيد الحيوانات الصغيرة كالفئران والحشرات مثل الجراد .

والرجال ، لدى كثير من القبائل ، هم الذين يتولون رعى الحيوانات الكبيرة مثل الإبل والأبقار ، ويقتصر دور النساء على رعى الغنم والماعز .

فلدى بدو عمان الرجال مسئولون عن كل ما يتعلق بالإبل ، بينما النساء مسئولات عن الماعز . (جراتس ، ص ١٣٢) .

ومع ذلك ففى بعض القبائل العربية لا يتولى رجال القبيلة رعى الإبل بل يعتبر هذا العمل من اختصاص الفتيات أو الخدم .

فلدى عرب سيناء وعرب الشرقية ثمة قاعدة مقررة هى أنه لا ينبغى للرجال أو الصبية على الاطلاق سوق البهائم الى المرعى . فهذا الواجب مقصور على فتيات المضرب غير المتزوجات ، وهن يقمن به حسب الدور ... ولدي بدو آخرين يتولى الرعى الصبية أو الخدم : (بوركاردت ، جـ ١ ، ص ٣٥٢) .

ومن الأعمال التى يجرى العرف لدى القبائل العربية بجعلها من اختصاص الرجال حلب الماشية .

وفى بعض القبائل يجرى العرف بقصر حلب الماشية ،أيا كان نوعها ، صغيرة أم كبيرة على الرجال ، بحيث لا يسمح للنساء بحلبها تحت أى ظرف من الظروف :

فلدى قبيلة القرا (فى ظفار) على سبيل المثال يَحْظر العرف على النساء المساس بضرع البقرة أو الناقة أو الماعز . واذا فعلت احداهن ذلك ارتكبت مخالفة خطيرة : (توماس ، ص ١١١) .

وفى بعض القبائل يقتصر الحظر على الحيوانات الكبيرة مثل الإبل أو البقر أو الجاموس بينما يسمح للنساء بحلب الغنم والماعز .

ففى حضرموت هناك حظر ، يكاد يكون عاما ، على المرأة ان تحلب الناقة (انجرامز ، ص ٨١) ولدى بدو ماديا (فى شرق الأردن) لا يسمح للنساء بحلب الإبل (العزيزى ، ص ١٦٦) . ولدى عرب الأهوار (فى جنوب العراق) وهم يقتنون الجاموس عوضا عن البقر والإبل حيث أنهم يعيشون فى البرك والمستنقعات يعتبر حلب الجاموس عملا خاصا بالرجال ليس للنساء فيه نصيب : (تيسيغر ، ص ٥٨) .

وثمة قبائل لا يوجد لديها حظر على النساء فيما يتعلق بحلب الماشية

الكبيرة بل على العكس قد يعتبر الحلب عملا لا يليق بالرجل. كما هو الحال في شمال عمان حيث يعتبر قيام الرجال بحلب الأبقار من الأعمال المشينة : (توماس ، ص ١١١) .

وفى بعض القبائل يقتصر ذبح الحيوانات أو الطيور على الرجال دون النساء . وفى بعض القبائل يعتبر هذا الخظر شاملا حيث يمتنع على المرأة القيام بعملية الذبح أيا كانت المناسبة ، بينما يقتصر الحظر فى قبائل أخرى على ذبح الحيوان كأضحية فلا يمتد الى ذبحه من أجل الطعام مثلا .

فلدى بدو عمان تعتبر المرأة مسئولة عن رعى الماعز ، ومع ذلك فان ذبح الماعز وتقطيعها هو من عمل الرجال : (جراتس ، ص ١٣٢) . ولدى أولاد على ، فى صحراء مصر الغربية ، يحظر على النساء ذبح الحيوانات بمختلف أنواعها بل يحظر عليهن ذبح الطيور الداجنة . ولدى قبيلة الفقراء تعتبر المرأة غير صالحة لذبح حيوان على سبيل الأضحية .

ولدى القبائل التى تعتبر الزراعة عملها الرئيسى يقوم الرجال بما تتطلبه الزراعة من أعمال شاقة مثل عزق الأرض وقطع الأشجار وانتزاع جذورها تمهيدا لزراعة الأرض . ويشارك أفراد كل من الجنسين فى القيام بالأعمال الزراعية الأخرى ، مثل البذر وتنقية الزروع من الأعشاب الضارة وحراسة المحصول من الطيور والحيوانات ثم حصاد المحصول .

المبحث الثانى
أعمال الاناث

يجرى العرف لدى القبائل العربية ، بصفة عامة ، باعتبار الأعمال الخاصة بالبيت أو الخيمة أعمالا نسائية يقتصر القيام بها على النساء دون الرجال .

فالزوجة والبنات يقمن بكل العمل المنزلى . فهن يطحن القمح فى الرحى ، أو يدققنه فى الهاون ، ويجهزن الافطار والعشاء ، ويعجن العيش ويخبزنه ، ويصنعن الزبد ، ويحضرن الماء ، ويعملن على النول ، ويصلحن غطاء الخيمة : (بوركاردت ، ملاحظات ، جـ ١ ، ص ٣٥٥) .

وإذا كانت القاعدة العامة أن النساء هن اللاتى يطهين الطعام ، فان لهذه القاعدة بعض استثناءات .

فلدى بدو عمان يقوم الرجال عادة بطهى الطعام وخبز العيش ، لاسيما أثناء وجود الضيوف ، حيث تجلس النساء يتجاذبن أطراف الحديث ويتناولن العديد من فناجين القهوة بينما يقوم الرجال باعداد الطعام : (جراتس ، ص ١٣٢) . وفى ظفار لا تحلب الزوجة البقر ولا تقوم بطبخ الطعام ، فهذا من عمل الرجال ، وإنما تتولى رعى الماشية وجلب الماء ، وجمع الوقود ، وعمل الأوانى الفخارية ، وجمع الدريس : (توماس ، ص ١١١) .

ولدى القبائل البدوية تعتبر كل الأعمال التى تتعلق بالخيمة أعمالا خاصة بالنساء .

يقول جورمانى (ص١٧) مثلا عن نساء نجد أن كل النساء البدويات ، سواء كن رفيعات أم وضيعات النسب ، ولو كان لديهن عبيد ، ملزمات بنصب الخيام وتجهيزها وهدمها وطيها وتحميلها وإنزالها كلما دعت الحاجة .

ولدى آل مرة (فى الربع الخالى) تعد الخيمة مسئولية النساء فقط ، فهن اللاتى يهدمنها ويطوينها وينقلنها ويقمنها ثانية .ثم إن أى رجل لا يمكن أن يعيش بمفرده أو حتى مع رجال آخرين فى خيمة بدون امرأة ، بينما قد تعيش امرأة مطلقة أو أرمل فى خيمة بمفردها مع أولادها . فالرجل الوحيد يقيم دائما فى خيمة آخر : (كول ، ص ٦٤) .

ولدى بدو سيناء على الزوجة غزل الشعر والصوف . وحياكة الخيام والأخراج والغرائر والفرش . وجلب الماء من الآبار والعيون والحطب من الأودية . وطحن الحبوب والعجن والخبز وحلب الإبل والأغنام . والخض (لستخراج الزبدة من اللبن) ورعى الأغنام عند الاقتضاء : (شقير، جـ ٢ ، ص ٣٩٠) .

وقد رأينا ، منذ لحظة ، أن المرأة لدى القبائل البدوية قد تشارك فى أعمال الرعى ، فقد يعهد إليها بالحيوانات الصغيرة ، الغنم والماعز ، وقد يعهد إليها لدى بعض القبائل برعى الإبل ، بل ان من القبائل ما يجعل رعى الإبل من اختصاص النساء .

ولدى القبائل الزراعية تشارك المرأة الرجل فى القيام بالكثير من الأعمال التى تقتضيها الزراعة .

وقد وصف رحالة سورى (العظم ، ص ٨٩) دور المرأة اليمنية فى هذا المجال وغيره من المجالات بقوله :
" وفى أثناء الطريق كان يمر بنا كثير من النساء القرويات ذاهبات بمفردهن أو مع رجالهن الى الحقول والجبال لقضاء الأعمال المختلفة . والنساء القرويات فى اليمن كغيرهن من نساء القرى فى جزيرة العرب يقمن بمعظم أعمال الرجال من زراعة وحراثة ونقل وذهاب الى الأسواق لبيع الحاصلات وجلب البن وتقشيره الى غير ذلك من الأعمال الخشنة وعلاوة على مشاركتهن للرجال فى هذه الأعمال فإنهن يقمن بأعمال منزلهن خير قيام

ويعنين بتربية أطفالهن وقد لاحظت أنهن نشيطات جدا على العمل ويشتغلن ليل نهار دون كلل أو ملل ، ولا يتناولن من الراحة إلا قسطا يسيرا " .

وفى عسير يغلب على النساء السفور ومخالطة الرجال ، وعليهن — إلا القليل من النساء المترفات وزوجات الشخصيات البارزات - مدار الأعمال . فالمرأة هى التى تحطب وهى التى تسقى الماء ، وتقوم بسائر شئون البيت ، وتشارك الرجل فى المزرعة إن كانت لهم مزرعة . (رفيع ، ص ٣٣) .

وقد لاحظ أكثر من رحالة أن التقسيم العرفى للعمل بين الجنسين مجحف بالإناث ، حيث أنه يقتضيهن العمل الدائب المستمر ، دون كلل أو ملل . بينما عمل الذكور قليل متقطع . فهم ، خصوصا الكبار منهم ، يحيون حياة تنطوى على الكثير من الفراغ أو الكسل ، حيث يمضون معظم وقتهم تحت الخيمة يحتسون القهوة أو يدخنون الغلايين ، أو يلعبون السيجة أو يتسامرون على نحو أو آخر .

يقول بوركاردت (ملاحظات ، جـ ١ ، ص ١٨٨) مثلا أنه من الواجب الاعتراف بأن الزوجة والبنات لا يتعبن من القيام بالأعمال الملقاة على عاتقهن ، بينما يجلس الزوج أو الأخ أمام الخيمة يدخن غليونه أو عندما يدرك أن غريبا وصل إلى المضرب ، وذلك عن طريق حجم الدخان غير العادى الذى ينبعث من محرم الخيمة الى نزل بها الغريب ، يذهب الى تلك الخيمة ويرحب بالغريب ، ويتوقع دعوة للعشاء وشرب القهوة معه .

ويقول بوركاردت فى موضع آخر من كتابه (جـ ١ ، ص ٣٥٥) أن البدوى فى خيمته هو أكثر المخلوقات كسلا . فبينما تقوم النساء بالعمل اليدوى والأشغال المجهدة ، لا يفعل الرجال شيئا سوى تدخين غلايينهم ولعب السيجة . فهكذا يمضون ساعات فراغهم .

ويقول أيضا (ص ١٨٧) أن العربى فى خيمته بالغ الكسل والخمول ،

فشغله الوحيد هو إطعام فرسه ، أو حلب نياقه فـى المسـاء ، والذهـاب للصيد بواسطة صقره بين الحين والآخر ، أما قطعان الحيوانات فيتولى أمرها رجل مأجور لهذا الغرض .

ووصـف أحد شيوخ بدو سيناء ، فى أوائل القرن الحـالى ، حياتـه اليومية فى مخيمه فقال : نقوم كل يوم عند مطلع الشمس فيذهب الرعاة بالإبل والأغنام إلى المراعى ، الشبان لرعى الإبل والشـابات والفتيـان لرعى الأغنام وتبقى النساء فى البيت لتحضير الطعام . وتجتمع بـاقى رجـال المخيم فى خيمتى يأتون من الصبح ومع كل منهم حفنة من البن فنوقد النـار ونصنـع قرص الملـة ونأكلـه ، ثم نعمل القهوة ونشربها معا ، ونجلس نتحدث فـى شؤوننا الخاصة وأكثرهـا عن الإبل والغزوات السابقة واللاحقة ، أو نلعب السيجة المعروفة فى مصر وليس عندنا من الألعاب غيرها ، أو نغنى على الربابة ونشرب الدخان إلى الضحى . فينصرف كل منا إلى خيامه فيجد طعام الظهر قد أعد له فيتغذى . ويرجع إلـى المجلس فنتحدث أو ننـام أو نلعب السيجة الى العصر ، فنصنع القهوة ونشربها ونعود الى التحدث أو اللعب إلـى الغروب ، إذ تعود الإبل والأغنام من مراعيها ، ويكون طعام العشاء قد أعد فيذهب كل منا إلى منامه . إلا إذا كان عندنا فرح فنلعب الدحية أو السامر إلى نصف الليل أو أكثر وهكذا .... هذا حالنا فى الربيع وأما فى الشتاء فإذا نـزل المطر وارتوت الأودية اهتم الناس بالزرع ثم الحصـاد . وبعد حصـد الـزرع يكون النخيل قد نضج ثمره وآن وقت جمعه . فيذهب كـل مـن كـان لـه نخيل إلى الطور أو فيران أو قطية أو العريش ، فيبقون هناك إلى ان يجمعوا الثمـر ثم يتفرقون إلى مصـالحهم : (شقير ، جـ ٢ ، ص٣٨٥) .

الفصل الرابع
آداب اجتماعيــة

تسود لدى المجتمعات القبلية العربية آداب معينة منها ما يتعلق بالطعام ومنها ما يتصل بالتحية ومنها ما يخص النساء . ونتناول فيما يلى كلا من هذه الآداب فى شىء من التفصيل .

المبحث الأول
آداب الطعام

يتضمن العرف القبلى تنظيما للموضوعات المتصلة بالطعام . فثمة أطعمة محظورة وأخرى مباحة . وثمة أطعمة يسمح بها لأفراد أحد الجنسين دون أفراد الجنس الآخر . وقد يحظر العرف على أحد الجنسين تناول الطعام على مرأى من الجنس الآخر . وفضلا عن ذلك فثمة قواعد يجرى بها العرف تنظم ما ينبغى ان يكون عليه سلوك كل من المضيف والضيف عند تناول الطعام فهناك " اتيكيت " خاص بالضيافة . وهناك قواعد خاصة بتقديم واحتساء القهوة ...... الخ .

وسوف نتناول ، فيما يلى الحديث ، فى شىء من التفصيل عن كل من هذه الأمور .

أولا – المباح والمحظور من الطعام :

القاعدة ، لدى القبائل العربية ، أن كل الحيوانات يجوز أكل لحومها ، فيما عدا بعض الحيونات التى يحظر العرف أكلها . وكذلك الحال بالنسبة للنباتات والأعشاب والجذور والثمار .

وإذا كانت القاعدة جواز أكل لحوم الحيوانات جميعها فإن من القبائل ما يحظر تناول أطعمة حيوانية معينة .

ففى ظفار (عمان) لا يأكل الجبليون (القرا) لحم الضبع والثعلب ، وكذلك البيض والدجاج من المحظورات . ويختلف ما يجوز أكله وما لا يجوز فى جنوب الجزيرة العربية ، من مكان إلى آخر . ففيما عدا سكان المدن ومجموعة القبائل التى تسكن الوسط وتتحدث لغات غير عربية ، يؤكل الضبع في كل مكان فى حضرموت . وعلى العكس يفضل بدو عمان الثعلب . أما الذئب فلا يأكله أحد على الاطلاق : (توماس ، الأصل ، ص٦٠) والحظر الخاص بالضبع ليس حظرا عاديا فهم لا يمتنعون فحسب عن أكل لحمه وانما يمتنعون عن قتله أو المشاركة فى قتله . ويعتقدون أنه حيوان سحرى . فهو ناقة الساحرة ومن يهاجمه سوف تناله يد سيدته المنتقمة . ولسوف تموت أبقاره ، فضلا عن مصائب أخرى سوف تحل به . (توماس ، ص٦١) .

وفيما عدا قبائل القرا ، يستبيح أهل حضرموت أكل الضبع ويبررون أكله بأن النبى (صلعم) قد حلله لهم . ولهم فى هذا الشأن قصة أو اسطورة .

فقد ذكر باحث غربى (توماس ، ص٦١) أن أحد رفقائه من أهل حضرموت قال له أن هؤلاء الرجال (سكان جبل القرا بجنوب عمان) ليسوا امثلنا نحن العرب . وبالنسبة لنا نحن " الكرب والصيعر " لحم الضبع مباح ونحن نسميه كبش النبى فالنبى نفسه أباح لنا أكل الضبع وشرع يشرح له كيف حدث هذا فقال :

" فى مرة من المرات ادعت ضبع ولد غزال باعتباره ولدها . ومثلت الضبع والغزال أمام النبى حيث ادعت كل منهما أن الغزال الصغير يخصها . فصرفهما النبى وطلب إليهما أن يمثلا أمامه مرة أخرى صباح اليوم التالى . وقبل طلوع الفجر أتت الغزالة تترقص الى خيمة النبى فسألها النبى " كيف قضيت الليل أيتها الغزالة ؟ " لقد قضيت الليل ساعة بعد ساعة مثل (Cassio paeia) دائما فى مكانى .

وبعد طلوع الشمس أتت الضبع تتمخطر على مهل وسألها النبى " وكيف أمضيت الليل أيتها الضبعة ؟ " يا نبى قضيت الليل نائمة فى حماية الله إلى أن طلع نجمه العظيم الشمس " .

فاتجه النبى (صلعم) إلى الغزالة وقال لها : خذى الصغير ، انه صغيرك .

وعندئذ قفزت الضبعة وصاحت يارب إلعن النبى وأياه . وعندئذ تناول النبى المدق من هاون البن وضرب الضبعة وهى تستدير لتهرب ولهذا السبب ضمرت رجلاها الخلفيتان إلى حجمهما البائس الحالى وأصبحت الضبعة طعاما للإنسان . حقيقة كبش النبى " :(توماس ، ص ٦١) .

ومن الطريف أن بعض قبائل صحراء مصر الشرقية ، العبابدة ، شأنهم فى هذا شأن قبائل القرا فى ظفار ، لا يأكلون البيض ولا الطيور الداجنة . فقد روت باحثة مصرية (بدوى، ص٢٢) أنها نزلت ضيفة على إحدى نساء هذه القبيلة وعندما عزمت على الرحيل أهدتها هذه السيدة كيسا من النايلون به حوالى عشرون بيضة فطلبت اليها أن تبقيها لها ولكنها أفهمتها أنهم لا يأكلون لحوم الدواجن والطيور وكذلك البيض فهى محرمة فى تقاليدهم . ولما أخبرتها الباحثة بأنها حلال وليست محرمة ردت عليها بمثل شعبى لديهم يقول : من خل بعادته قلت سعادته.

ومن الحيونات البرية التى يستطيب البدو أكل لحمها : الضب . وقد ذكرت رحالة انجليزية (ستارك ، ص١٩٦) أنه أثناء رحلتها فى حريضة بحضرموت اصطاد صبى ضبا وتولى واثنان من البدو شيه وهو ما زال فى جلده . وأحضروا إليها كبده الصغير وقطعة من ذنبه وكان طعمها مماثلا لطعم لحم الدجاج . واقتسم أفراد الفريق المصاحب لها بقيه لحمه وأعطوا الصبى رأس الضب اعترافا بحقه بوصفه قانصه .

كذلك يشيع لدى القبليين العرب أكل الجراد .

ففى اليمن رغم أن الناس كانوا يعتبرون مجىء الجراد كارثة عظيمة حيث كان يلحق بالأشجار والزروع أبلغ الضرر ، كانوا يعمدون إلى التنافس فى جمعه ، حيث كانوا يجدون متعة فى أكله وكانت لهم فى إعداده للأكل طرائق ثلاثة . تتمثل الأولى فى شيه على صاج أو مقلاة ، والثانية فى سلقه فى قدر وضع فيه الماء والملح ، والثالثة فى شيه بطيئا فى الفرن . (الحوالى ، ص١١٩) .

وروى أحد كتاب اليمن أن شيخا له هاجر الى القاهرة فى أوائل الثلاثينات من التقويم الهجرى وتزوج امرأة مصرية . وحدث أن أغارت الجراد على المزارع وكانت كبيرة الحجم على خلاف المعهود بها فى اليمن . فكان يأخذ الجرادة ويشويها ويأكلها . فرأته زوجته المصْرية . فدعت والدها وأخبرته بأنها رأت اليمانى يأكل الجراد . وتفرت من زوجها مما أدى إلى طلاقها (حوالى ، ص١٢٠) .

ولدى قبيلة الفقراء يظهر الجراد ، كقاعدة عامة فى الربيع . وهو يهرع من الشرق تحمله الريح التى قد تدفع به حتى البحر الأحمر . وعند وصوله يقوم الفقراء بعملية جمع ضخمة فى الصباح قبل طلوع الشمس . وبعد غليه وتجفيفه يجعلون منه ، بواسطة رحاياهم ، نوعا من الدقيق يستخدمونه فى تتبيل طعامهم . وبدلا من أن يلقوا به فى الماء المغلى ، يعرضونه أحيانا على النار فى حفرة كبيرة ويشوونه . ويطحنونه بعد ذلك بالرحى للاحتفاظ به كدقيق . ويأكلونه أيضا بعد شيه . وقد قال عنه أحد الفقراء أنه " ممتاز بالنسبة للمعدة ، ولا يمكن أن يكون خلاف ذلك لأنه يتغذى على كل نباتات الصحراء " . وقد لاحظ العرب أنه يكون فى الربيع ذا مذاق أفضل ، حيث يكون سمينا ويكون لحمه معطرا . أما فى الخريف فهو أجف وأنحف .

وعندما ينمو العشب (عقب سقوط الأمطار) تستدير وجنات الأطفال ، وتختفى النحافة ، وتغنى النساء ، وتتحول الصحراء عندئذ الى جنة حقيقية . لكنها سعادة لا تدوم سوى لحظة . فبعد أسبوعين تحرق الشمس كل شىء ولا يجد المرء على الأرض سوى الزواحف التى يلاحقونها بشراهة ، وبصفة خاصة الضب الذى يقومون بشيه .

كذلك يصطادون اليرابيع وهى نوع من فئران الرمال ، ويعدونه فريسة شهية . وفى أوقات أخرى يبعث الله بنعمته فى صورة سحب من الجراد . وإذا كانت هذه الحشرات سمينة وجيدة الغذاء التقطوها فى الصباح عندما تعانى من البرد ، وأكلوها بعد طهيها . وبعد تجفيفها يسحقونها مع التمر وتعد عندئذ طعاما شهيا : (مونتنى ، ص٢٤) .

ورغم أن البدو من العرب يعتمدون على اللبن ومنتجاته اعتمادا أساسيا فى فصل الجفاف ، فهم يأكلون فى فصل الربيع كثيرا من الأعشاب والنباتات التى تنمو على شواطىء الجداول والمستنقعات .

فلدى قبائل شمال الحجاز يتعيش الأعراب على النباتات التى تنمو على شواطىء الجداول والأنهار ان وجدت . أو على شواطىء البحيرات التى تتجمع مياهها من مياه الأمطار ... وعند اشتداد الجوع والقحط كانوا يطحنون أوراق الشجر ويضعون بعضا من هذا الدقيق فى أفواههم ويشربون عليه الماء فقط . وفى أوقات القحط التى تندر فيها المياه ويعم الغلاء ، كانوا يعيشون على حبوب العرعر فقط : (صبرى باشا ، ص٣٧٠) .

ثانيا : شراب مسكر :

رغم اختفاء عادة تناول مشروبات مسكرة لدى الغالبية الغالبية من القبليين العرب ، فإننا نجد قلة منهم ما زال العرف عندهم يجرى بتناول مشروب مسكر يتخذونه من جمر النخيل .

ففى الصدارة بأقصى الشمال الغربى لحجر (فى حضرموت) توجد ينابيع مياه حارة يروى بها النخل ، وهى لا تؤذى جذوره . والناس هناك يستخرجون عصارة أثمار النخيل ويشربونها كنوع مخدر ، وهو مسكر إذا أخذ بمقدار كبير وهذا الشراب منتشر فى بلاد حجر : (اليافعى ، جـ ، ص ١٣٣) .

كذلك روت رحالة انجليزية عن احدى قرى اقليم هجر ان رجال هذه القرية تغلب عليهم البدانة ويرجع ذلك الى عادتهم فى تناول كميات كبيرة

من شراب مخمر يصنع من عصارة النخيل . وذكرت أن أحد مرافقيها من أهل المنطقة أحضر لها للإفطار شيئا منه أخذ توا من الشجر . وأبلغها أنه غير مخدر إذا شرب قبل الظهر وأنه من الجائز ، من ثم ، للمسلم أن يتناوله فى الصباح . وذكرت أن مذاقه خليط من القيرموت الإيطالى والبيرة ، وأنه مخدر دونما شك (انجرامز ، ص٨٦) .

ثالثا ـ أطعمة خاصة بأفراد كل من الجنسين :

يجرى العرف ، لدى بعض القبائل العربية ، باختصاص أحد الجنسين بأطعمة معينة ، وقد يجرى العرف أيضا باختصاص أحد الجنسين بأجزاء معينة من لحم الحيوان واختصاص الجنس الآخر بأجزاء أخرى .

ففى اليمن لعسل النحل مذاق قوى ويعتقد أن له خاصية تقوية الباه لاسيما إذا تم تناوله مع اللحم . وهو أمر لا يفعله سوى الرجال حيث يعتقد أنه من غير المستحب إثارة النساء أكثر من اللازم (انجرامز ، ص٣٨) .

كذلك يجرى العرف باختصاص الرجال بقطع معينة من الذبيحة ، واختصاص النساء بقطع أخرى .

فلدى بدو سيناء لا تقدم اليدان والرجلان ولحم الرقبة ولحم البطن على موائد الرجال بل تحفظ للنساء . ويعد تقديمها على موائد الرجال إهانة لهم . وبعض العرب لا يحتفلون بالذبيحة الا إذا رأوا رأسها على المنسف ، منهم عربان ضبا والمويلح ، ولكن عرب سيناء يتركون الرأس للنساء ويجعلون الكبد على المناسف بدل الرأس . (شقير، جـ٢ ، ص٣٦٨) .

رابعا ـ حظر تناول الطعام على مرأى من الجنس الآخر :

يحظر العرف ، لدى كثير من القبائل العربية ، على أفراد كل من الجنسين تناول الطعام على مرأى من أحد أفراد الجنس الآخر .

فقد ذكر ابن المجاور (ص١٥٠) فى أوائل القرن السابع الهجرى عن قبيلة بنى الحرث فى اليمن أن أحدا من أهل هذه القبيلة لا يأكل خبزا مقابل

امرأة ولا يشرب ولو مات جوعا وظمأ .

واختلاط الجنسين عند الطعام يعد فى اليمن خروجا على المألوف والتقاليد ، لا يمكن التسامح به . وتنطبق هذه القاعدة على خيمة البدوى كما تنطبق على قصر السلطان . (هولفرسز ، ص٥٨)

ولدى بدو سيناء لا تأكل المرأة مع زوجها على مائدة واحدة حياء . (شقير ، جـ ٢ ، ص٣٨٨) .

ولدى غالب البدو فى جنوب تونس لا تجتمع المرأة مع الرجل على الطعام بل ان الزوجة تأكل طعامها خفية عن الزوج ، ويعتبرون ذلك من الحياء اللازم للمرأة . (المرزوقى ، ص١٥٤) .

خامسا ـ آداب الضيافة

للضيافة ، لدى القبليين العرب ، آدابها الخاصة سواء فيما يتصل بكيفية استقبال الضيف أم فيما يتعلق بسلوك المضيف والضيف عند تقديم الطعام ، ام فيما يخص كيفية تناول الطعام .

فثمة آداب خاصة باستقبال الضيف والترحيب به . وتقضى هذه الآداب باظهار البشاشة فى وجه الضيف القادم وتقديم القهوة أو غير ذلك من المأكولات أو المشروبات قبل سؤاله عن شخصيته ومن أين جاء وإلى أين يتجه .

فلدى قبائل الحجاز عند دخول الضيف إلى الخيمة أو الدار يهب الكل للقائه . وبعد أن تقدم إليه القهوة ثلاث مرات متتاليات ، يسأل عن حاله واسمه وعشيرته ويستفسر منه عن سبب قدومه . (صبرى باشا ، ص٣٦٩) .

ولدى قبائل الحجاز أيضا أول مظهر من مظاهر الكرم العربى هو أن يقدم إلى ضيفه ثلاثة فناجين متتالية من القهوة ، بشرط أن تكون من البن

الطازج الذى أعد بعد وصول الضيف الى المنزل ، وأن تعد أمام الضيف او على مسمع منه . وبعض الأغنياء المقتدرين يفضل تقديم التمر والزبد واللبن قبل القهوة ، ثم تقدم القهوة . ويعقبها السؤال عن الصحة والأحوال ، وعبارات الترحيب والتكريم ، وبعدها يأتون بالطعام المعد خصيصا .

ولدى آل مرة تسبق وليمة الضيف ويعقبها الشاى والقهوة والتمر وتمرير البخور .

كذلك الحال عند تناول الطعام هناك قواعد لابد من اتباعها وعدم الخروج عليها سواء من قبل المضيف ، أم من قبل الضيف ، أم من قبل الأشخاص الآخرين .

فلدى آل مرة تُعد النساء الأرز وعندما يتم طهى اللحم يقوم أحد الرجال بنشر الأرز على صينية مستديرة كبيرة يبلغ قطرها أربعة أقدام على الأقل ، ثم يضع اللحم فوق الأرز . ويؤخذ المنسف إلى شق الرجال حيث يتجمع الضيوف من الذكور ، ويشرعون فى تناول الطعام ، مستخدمين أيديهم اليمنى فقط ، حيث أن اليد اليسرى تعتبر نجسة . وطبقا للاتيكيت العربى يمتنع المضيف عن تناول الطعام إلى أن ينتهى جميع الضيوف من تناول طعامهم . ويحتفظ للمضيف ونساء الخيمة بجزء من اللحم . فى العادة كتف بالإضافة إلى الضلوع . (كول ، ص٥٠) .

ولدى قبائل الحجاز يدعو صاحب البيت الضيف إلى الطعام قائلا : (حياك الله على موجودنا) . وهذه الجملة الى جانب كونها دعوة على الطعام وتحية للضيف على قبوله تناول الطعام ففيها اعتذار رقيق ومهذب عند عدم كفاية الطعام إن بدا ذلك . وتقضى العادات البدوية بعدم تناول صاحب البيت الطعام مع الضيف بل عليه أن يضع الطعام فى مكانه المخصص فى الخيمة أو الدار ويدعو الضيف إلى طعامه ثم ينسحب هو . أما إذا كان هناك حضور من الجيران فعليهم أن يشاركوا الضيف طعامه . وإذا كان الطعام عبارة عن خروف أو حمل كامل ، فعلى الضيف نفسه ان يقسمه إلى أرباع متساوية ما عدا الرأس ، ثم يرسل بربع منها الى أهل البيت فى الداخل عن

طريق واحد من الموجودين على الطعام ثم يشرع فى تناول الطعام بادئا باسم الله . وبعد تناول الطعام يحيى أحد الحضور صاحب البيت قائلا : (يا مضيفنا أنعم الله عليك) فيرد عليه التحية قائلا : (هنيئا وعافية ولا تروا علينا فيما قصرنا به . قدركم عند الله أعظم) . وبعد ذلك يتناول صاحب الوليمة ما تبقى على البساط من طعام هو وكافة الجيران . وإذا دخل ضيف على خيمة وهم يأكلون الطعام ، جلس إلى الطعام دون أى تكلف . وإذا لم يجلس الى الطعام نظروا إليه نظرتهم إلى الخائن : (صبرى باشا ، ٣٦٧) .

وذهب بعض الرحالة إلى أن العادة تجرى لدى العرب بأن يتناول نساء الخيمة ، عند الوليمة ، طعامهن بعد انتهاء الرجال من تناول طعامهم وأنهن لا يأكلن سوى البقية الباقية من الطعام .

يقول بوركاردت (جـ١ ، ص٦٥) مثلا أن النساء يأكلن فى المحرم ما تبقى من عشاء الرجال . ومن النادر أن يسعدهن الحظ بتذوق اللحم فيما عدا رأس الخروف وأقدامه وكبده . وبينما يهرع رجال المضرب الى الخيمة التى يستضاف فيها أحد الغرباء ويشاركون فى العشاء ، تأتى نساؤهم متلصصات إلى محرم المضيفة ليسألن ساقا او قطعة تافهة أخرى من الحيوان الذى ذبح من أجل المناسبة .

ويقول هولفرىز (ص٥٨) عن عادة أهل اليمن فى هذا الخصوص انه لايُسمح للنساء ، إلا بأكل ما يتبقى من الطعام فى غرف المنزل الخلفية ، بعد أن يفرغ الرجال من الطعام .

كذلك يقول شقير عن بدو سيناء (جـ ٢ ، ص٣٦٨) أن العادة لديهم هى أن يرسل كبير الضيوف من قصعته نصيبا من اللحم إلى راعية البيت ، إذ النساء لا يأكلن إلا فضلات الرجال .

ومع ذلك يشير بعض الرحالة والباحثين إلى أن من آداب الضيافة أن يقطع الضيف [illegible] تناول الطعام ، قطعة من اللحم يبعث بها إلى [illegible] الخيمة

أو سيدة البيت .

يقول كول (ص٥٠) مثلا عن آل مرة فى الربع الخالى أن المضيف ونساء الخيمة يحتفظ لهم بجزء من اللحم .

ويقول صبرى باشا (ص٣٦٨) أن العادة لدى عرب الحجاز تجرى ، إذا كانت الوليمة تتمثل فى خروف كامل ، بأن على الضيف نفسه أن يقسمه إلى أرباع متساوية وأن يرسل بربع منها الى البيت فى الداخل ثم يشرع فى تناول الطعام .

وانتقدت رحالة انجليزية (انجرامز ، ص٦١) قامت برحلتها فى حضرموت فكرة أن النساء يأكلن فضلات الرجال بقولها : هناك فكرة مقتضاها أن المرأة العربية تأكل فضلات الوجبة التى تقدم للرجال ، لكن تجربتى مع بيوت الأثرياء والمتوسطين والفقراء لم تتح لى فرصة مشاهدة حدوث ذلك على الاطلاق . بالقطع يقوم الخدم بتنظيف الأطباق بعد تناول سادتهم وسيداتهم الطعام ، ويجلس الأولاد بعد أن يقوم الأكبر سنا ، لكن الرجال والنساء يأكلون عادة فى نفس الوقت ، ولو أنهم يتناولون الطعام منفصلين ، ويقدم الطعام إلى الجميع من نفس المطبخ .

ومن الشائع لدى القبليين استخدام البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) لاسيما عند الشروع فى القيام بعمل : عند الوقوف أو وقت النوم ، أو البدء فى السير ، أو ارتداء ثوب جديد ، أو استقبال ضيف . ولا يمد عربى يده اطلاقا لتناول الطعام قبل النطق بهذه البسملة . وعندما سأل بعض الباحثين الغربيين أحد أفراد قبيلة الفقراء عن السبب فى النطق دائما بهذه الكلمات ، أجاب : من ينطقها يأكل فى صحبة الله ، وإلا فسوف يكون الشيطان نديمه : (جوسان وسافينياك ، العرب ، جـ ٥ و ٦ ، ص٢٨ ، ص ٣٥٩) .

ويتطلب العرف من الضيف أن يتأنى فى تناول الطعام ، وينظر الى الرجل الذى يأكل الطعام بنهم ويزدرده ازدرادا ، بعين الاحتقار .

فلدى قبيلة الفقراء يطلق على من يأخذ أثناء تناول الطعام فى جماعة قطعة من اللحم من الكبر بحيث لا يقوى على ابتلاعها وصف " خشان " . فآداب اللياقة البدوية تدين هذه الشراهة . وقد روى أن اعرابيا تناول قطعة لحم مربوطة بخيط . وتعلق الخيط بإحدى الأسنان ، وحال دون قطعة اللحم والنزول فى الحلقوم . وخشى العربى المختنق على شرفه ، فما كان منه إلا أن شق فمه ، ليسمح لرفاقه بمعاينة وجود الخيط الذى كان يشد اللحم ، وأنه من ثم لم يكن يستحق تسميته (بخشان) : (جوسان وسافينياك ، العرب ، جـ٤ ، ص١٨٤) .

سادسا ـ آداب القهوة :

يعشق البدو شرب القهوة ، وقد عرفوها منذ زمن بعيد ولها فى حياتهم أهمية تتجاوز مجرد كونها شرابا منبها . أما الشاى فلم يعرفوه إلا منذ وقت قريب ، وليس له عندهم ما للقهوة من أهمية .

وللقهوة لدى البدو آداب خاصة سواء من حيث إعدادها ، أم من حيث تقديمها ، أم من حيث شربها .

(أ) إعداد القهوة :

تعد القهوة أولا بأول ، حيث يحمص البن ويغلى فى كل مرة يراد فيها شرب القهوة . ويتم إعدادها أمام شق الرجال ويتولى إعدادها أحد الرجال : عبد (عندما كان الرق قائما) أو خادم أو أحد أبناء صاحب الخيمة ، أو صاحب الخيمة نفسه إذا إقتضى الأمر . ولا يسمح للنساء بإعداد القهوة للضيوف . وبعد أن يغلى البن فى إنائه بعض الوقت ، يصب مُعِد القهوة بضع قطرات منها ويتذوقها ليعرف ما إذا كانت بلغت الحد المطلوب من النضج . فإذا وجدها على ما يرام بدأ فى تقديمها .

(ب) تقديم القهوة :

من مقتضيات تقديم القهوة عند البدو أن يحمل مقدمها إناء القهوة

(الدلة) بيده اليسرى وبضعة فناجين فى يده اليمنى . ويبدأ فـى صـب القهوة فى الفناجين واحد بعد الآخر . وعليـه أن يقدم فنجـان القهوة بيده اليمنـى . ويتشدد البدو فى ذلك غاية التشدد ، فلا يجوز فى عرفهم الإمساك بإناء القهوة باليد اليمنى وتقديم الفنـاجين بـاليد اليسـرى . حيث أنهم يعـدون اليـد اليسـرى نجسة لا يجوز إستخدامها فى تناول الطعام أو تقديم القهوة .

وقد روى الزركلى (ص ٢٠١) أنـه وصحبـه مـروا برجـل مـن كبـار القوم على مقربة من الطائف فاحتفى بهم وأكرمهـم بـالقهوة والشـاهى ونهـض أحدهم ينوب عنه فى تقديم الفناجيل فأبى مضيفهم إلا أن يكون هو الساقى لهـم ، فأصروا على أن يكون أحدهم فـامتثل . وتقدم أحدهـم فـأخذ الإبريـق بيمنـاه والفناجين بيسراه (كما هى العادة فـى أكثر البـلاد لسـهولة الصـب بـاليمين) فأنكر عليه صاحب البيت عملـه ، وقـال : إن العـرب لا تسـقى باليسـار وإنمـا تحمل الإبريق بيسارها وتقدم الفنجان بيمينها .

وعلى مقدم القهوة مراعاة عدم صبه كثيرا من القهوة فى الفنجان فيكفـى ملء ملعقة كبيرة حيث أن ملء الفنجان يعد إهانة لـدى البـدو . فـإذا مـلأ معد القهـوة الفنجـان وقدمـه للضيـف فكأنمـا يقـول لـه " اشـرب قهوتــك وارحــل " (موسى ، ص ١١٣) .

كذلـك علـى مقدم القهوة أن يبـدأ فـى تقديمهـا ملتزمـا يمينــه وأن يبـدأ بتقديمهـا إلـى أى شـيخ كبيـر المقـام أو إلـى الأشــخاص البــارزين فــى حالــة وجودهم . (دوتى ، ص ٢٨٧) .

(جـ) شرب القهوة :

يتناول الضيف فنجان القهوة بيده اليمنى . وقد يجرى العرف بأن يعـزم من تناول فنجان القهوة على أحد الحاضرين بأن يبدأ هو بشربها . وفى العـادة يمتنـع هذا الشخص عن تناولهـا وهـو نـوع مـن المجاملـة مـن جـانب الأسـمى مكانة ممن هو أدنى منه . (دوتى ، ص ٢٨٧) .

كذلك من مقتضيات شرب القهوة عدم شرب ما فى الفنجان دفعة واحدة ، بل عليه أن يشربها رشفة رشفة وبعد أن يشرب على هذا النحو ثلاثة فناجين عليه أن يرفض الفنجان الرابع . ولا مانع من إحتساء القهوة مرة أخرى بعد مضى بعض الوقت .

ولدى بعض القبائل العربية يقضى العرف بضرورة إحتساء القهوة بأعداد فردية أى فنجان أو ثلاثة أو خمسة .. إلخ فالعدد الزوجى غير مقبول .

فقد روت باحثة مصرية (بدوى ، ص ٢٠) انها عندما زارت سيدة مسنة من نساء العبابدة قدمت لها فنجانا من القهوة قائلة لها " الجبنة نرقد ونقوم عليها " يعنى أنهم يشربونها فى الصباح والمساء ، ولما شربته أعادته فعادت لها ثانية وقالت شرب الجبنة يابنيتى فردى ؛ يعنى أن شربها يكون بإعداد فردية من ١ إلى ١١ مرة فهم لا يقبلون العدد الزوجى فلا يصح شرب فنجانين فقط .

(د) عدم تقديم القهوة مظهر للمقاطعة الإجتماعية :

جرت عادة القبائل العربية لا سيما البدوية منها بإحتساء القهوة منذ وقت طويل . وإرتبط بنسيج حياتهم الإجتماعية . فكما كان تقديم القهوة يعتبر لديها مظهرا هاما من مظاهر إكرام الضيف فإن رفض تقديمها لشخص معين أو الإمتناع عن إحتسائها لدى شخص معين هو تعبير عن الإحتقار والإزدراء لهذا الشخص بسبب فعل منكر وقع منه أو سلوك آثم صدر عنه .

فلدى كثير من القبائل العربية يعتبر الجبن فى القتال والفرار من المعركة والتخلى عن رفقاء السلاح سلوكا مخزيا يستتبع العار والإحتقار ومن المظاهر التى يعبر بها المجتمع القبلى عن إحتقاره وازدرائه لمثل هذا الجبان رفض تقديم القهوة له فى مجلس الرجال .

فلدى قبائل شرق الأردن عندما يجتمع الرجال ويستسلمون إلى

الإستمتاع فى هدوء بلذة تذوق فنجان من القهوة ، لا يمكن لسيد الخيمة ، ودون أن يخل بكل قواعد الضيافة ، أن يرفض تقديم القهوة إلى الجبان الذى جلس بين المجتمعين ، لكن جبنه لا يبقى مع ذلك دون عقاب ، حيث تأتى إمرأة فى نفس اللحظة التى يرفع فيها المحارب الجبان الشراب المعطر إلى شفتيه ، فتنزع الفنجان بعنف من يديه وتسكبه على الأرض وتصيح : " أيها الجبان لا حق لك فى إحتساء القهوة " وقد يقوم الشيخ نفسه بإنتزاع الفنجان الذى قدمه إليه بنفسه ، بعنف قائلا : القهوة للرجال ، النساء مثلك لا يشربن منها " . (جوسان ، ص ٢٣٢) .

ولدى بدو سيناء من أكبر المعايب أن يفر الرجل من القتال أو يجبن عن نجدة رفيقه أو يسرق مطمورة جاره فمن فعل هذه الجرائم كلها أو واحدة منها إحتقر ورذل .

وإذا دخل مجلسا ووزعت القهوة على الجلوس مد الساقى يده بالفنجان موهما أنه يقدم القهوة حتى إذا مد يده لتناول الفنجان كبه الساقى على الأرض إستخفافا وإحتقارا لشأنه فينصرف من المجلس من غير أن ينبس ببنت شفة . (شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٧٠) .

ولدى قبائل شرق الأردن يجرى العرف فى حالة الزواج بأنه إذا تم إختيار الفتاة وتهيأت كل الأسباب تذهب الجاهة ــ وهى وفد من الرجال المقربين إلى العريس ـ لطلب يد العروس من أبيها أو من ولى أمرها فى الوقت المحدد وحضورها يكون عادة فى المساء . وبعد الجلوس يتشعب الحديث حتى تدار القهوة السادة عادة ، على الحاضرين إبتداء بكبير القوم . وقبل شرب القهوة ، يقول كبير الجاهة ووجيهها (جيناك طلابّين ، ومن عند الله وعندك ما نرجع خايبين ، تريد بنتك فلانة لفلان) . فيجيب والد الفتاة أو وجيه قومها (أشربوا قهوتكو ، تراها أجتكو هدية ما وراها جزية) . ويكون المهر قد حُدد مسّبقا . عنئذ يشربون القهوة . وبعد أيام تجرى مراسيم الخطوبة وتقديم تهدايا وما إلى ذلك أما إذا حدث الرفض فجأة رغم التفاهم

المسبق ، فإن الجاهة تترك منزل والد العريس دون شرب القهوة . إذ أن الرد يعتبر إهانة (للجاهة) ، وعدم شرب القهوة من قبل الجاهة يعتبر إهانة مقابلة لوالد العروس عندئذ يقال : لنذال ما تنشرب قهوتهم : (حلقة العناصر المشتركة ، ص ١٤٨)

المبحث الثانى

آداب التحية

للتحية لدى القبليين العرب طقوسها ورسومها التى جرى بها العرف ويستهجن الرأى العام الخروج على هذه الطقوس والرسوم وتختلف هذه الطقوس والرسوم من قبيلة إلى أخرى . كما تختلف تبعا لمكانة الطرفين وسنهما وجنسهما .

ونستعرض ، فيما يلى بعضا من أساليب التحية لدى القبليين العرب .

ففى حضرموت يدعو الصغير من هو أكثر تقدما منه فى السن بياعم أو يا أب ، أو يا خال ويا أم ويا خالة ويا عمة . وتقبيل اليد مظهر من مظاهر الإحترام عندهم . فيقبلون أيدى كبار العلماء والطاعنين فى السن ، يقبل أيديهم الشبان والأطفال ، كما يقبلون أيدى آبائهم وأمهاتهم . ويقبل غير العلوى يد العلوى ويلقبه بالسيد وبالحبيب إشارة إلى محبته له ، من أجل إنتمائه إلى الرسول محمد صلعم ، إعترافا بما قدمه أجداده من خدمات علمية وإصلاحية لهذا الشعب (الشاطرى ، حـ ١ ، ص ٢٩٢) .

ولدى آل مرة ، فى الربع الخالى ، يتجلى تفاعل تأثيرات القرابة فى الطرق الإحتفالية لتحية فئات الناس المختلفة فالزوار الذكور من آل مرة

أنفسهم يقتربون أولا من شق الرجال بالخيمة ، حيث يحيون كل الرجال الحاضرين رجلا رجلا . وإذا كانوا شبابا حتى الثلاثين تقريبا ومن نفس جماعة القرابة قبل أحدهما الآخر على الشفاة تقبيلاً خفيفا . وإذا كانوا في منتصف العمر أو أكبر سنا ، أو كانوا من جماعات قرابة مختلفة لمس كل منهما بأنفه أنف الآخر مرتين أو ثلاثا . وعندما يحي رجلا مسنا أفراد جماعته الأصغر سنا يقبلون أنفه ، وإذا كانوا أعضاء جماعات قرابة مختلفة قبلوا أنفه أو لمسوا بأنوفهم أنفه (كول ، ص٧٦٠) .

ولدى بدو سيناء إذا دخل بدوى على صديق له فى مجلس وقف له وصافحه ، ثم أدنى رأسه من رأسه حتى يمس حاجبه الأيمن حاجب صديقه الأيمن ، ويشرع يقبله فى الهواء . ثم يجلسان فى الأرض ويدور بينهم السلام الآتى أو نحوه :

سلامات يا فلان	الله يسلمك
سلامات	الله يبقيك
كيف أنت عساك طيب	والله نحمد الله طيب بخير
كيف عيالك	طيبين بخير فى أمان الله
كيف الربيع	نحمد الله زينة
الزرع كيفنه	خصاب الحمد لله يعوض بذارهِ شراقى بطال

وفى عمان عندما يلتقى الرجال تكون التحية بتقبيل الخد الأيسر ثم الكتف الأيمن . غير أن رجال القبائل البدوية لا يعرفون تقاليد المجاملة . فإذا حضر أحدهم إلى مكان فإن الموجودين فيه لا يقفون لتحيته الأمر الذى يخالف التقاليد المتبعة فى سائر البلاد العربية . أما بالنسبة للرجل المسن أو الشيخ فإنه يحيا بتبادل القبلات أولا ثم التراجع إلى الخلف لبضع ثوان قبل الجلوس . (توماس ، ص ١٠٧)

ويقول بوركاردت (حـ ١ ، ص ١٨٨٠) أن العرب يحيون الفرد .

بعبارة " السلام عليكم " ، ويخاطبون بهذه التحية حتى النصارى " وإذا كان الغريب معرفة قديمة قبلوه ، وإذا كان رجلا عظيما قبلوا لحيته .

وإذا تلاقى شخصان بينهما ثأر ، وقال أحدهما للآخر " السلام عليكم " ، وأجابه الآخر " وعليكم السلام " فمعنى ذلك أن العُداء زال بينهما مؤقتا (اليافعى ، حـ ٢ ، ص ١١٦) .

ولدى قبيلة جنيبة (إحدى قبائل سلطنة عمان) عندما يقابل رجل من إحدى عشائرها رجلا من نفس العشيرة يحييه بقبلة الأنف ، فيلمس كل منهما بأنفه أنف الآخر ، أولا على الجانب الأيمن ثم على طرف الأنف . ومن عادة النساء أن يغطين أيديهن بطرف الطرحة قبل أن يمددنها لأى رجل : (جراتس ، ص ٩١) .

كذلك تتطلب الآداب لدى قبائل عُمَان أن يخلع المرء نعليه على بعد خطوات من الشخص الذى يحييه ، ويحدث هذا حتى فى الصحراء . فعند الإقتراب من المضرب توضع النعال دائما بعيدا عن الجالسين : (جراتس ، ص ٩٠) .

ومن قواعد التحية لدى بدو الطائف أن راكب مادون الفرس والبغل إذا أراد السلام على راكب الفرس يبتدئه قائلا : كَرُمت ، السلام عليكم . وإن كانوا جماعة قال : كرمتم ، السلام عليكم . وبعضهم يكتفى بلفظ السلام فقط . ويريدون بلفظ كرمت أو كرمتم الإعتذار عن أنه غير مساو لراكب الفرس أو مايماثلها . (الزركلى ، ص ٢٠٦) .

ولدى بنى صخر فى شرق الأردن عندما يدخل إلى الخيمة أو يرحل عنها شخص ذو أهمية يقف الجميع ويردون تحيته " سلام عليكم " لامسين الجبهة بالأصابع . وإذا كان الضيف صديقا ومساويا كان متقال (شيخ القبيلة) يحتضنه ويقبله ، أما الرجال الأدنى فكانوا يركعون على ركبة واحدة ويقبلون

يد متقال : (سيبروك ، ص ٧٣) .

كذلك جرى العرف ، لدى القبليين العرب ، بإتباع أساليب خاصة فى تحية الرجال للنساء لا ينبغى الخروج عليها أو الإنحراف عنها .

فلدى آل مرة بعد أن يحى الزائرون جميع الرجال يحيون نساء البيت . فإذا كانوا من حمولات أخرى وليس ثمة علاقات مصاهرة ، فهم يقتصرون على توجيه تحية شفوية عبر الحاجز الذى يفصل بين شق الرجال وشق النساء (المحرم) ولا يدخلون فيه لتحيتهن . لكن إن كانوا من نفس الحمولة فإنهم يدخلون إلى شق النساء ويحيون النساء مباشرة . فإذا كانوا من عائلات مختلفة تصافحوا بالأيدى . وإذا كانوا من عائلة واحدة رفع الرجل نقاب المرأة وقبلها على وجنتها بغض النظر عن السن وعن كون أحدهما متزوجا أم غير متزوج .

وإذا لم يكن الزوار من آل مرة ، فإنهم يقتصرون على مصافحة الرجال ولا يحيون النساء إطلاقا . لكن إن كانت النساء يعرفن الزوار ، فقد يحيين الرجال شفاهة من شقهن . وأية إمرأة تأتى مع الزوار الذكور تتجه مباشرة ، ومن الجانب الخلفى للخيمة ، إلى شق النساء . وإذا كن نساءا من آل مرة ، ذهب إليهن رجال البيت ، فى فترة ما من الزيارة لتحيتهن . (كول ، ص ٧٦)

وفى عمان إذا كانت المصافحة هى الطريقة المتبعة بين العرب فيما عدا النساء ، فإنهم هنا يكتفون بلمس أطراف أصابع بعضهم البعض ويتعين على المرأة أو الفتاة فى هذه الحالة أن تسحب يدها بسرعة فائقة من يد الرجل أثناء التحية ، أما إمساك يد الفتاة أو لمس راحتها ، كما هو معروف فى أوربا ، فيعتبر عملا منافيا للتقاليد . وقد يدفع أهل الفتاة للإنتقام من الرجل . (توماس ، ص ١٠٧) .

ولدى بدو سيناء إذا إلتقى بدوى ببدوية من أقاربه أحنى لها رأسه فتقبله في جبينه وتصافحه (شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٨٣) .

وليس من عادة القبليين العرب ، على خلاف الأوربيين ، أن يقبل الرجال ، على سبيل التحية ، أيدى نسائهم . وقد حدث في أوائل القرن الحالى أن نزل رحالة أمريكى ضيفا على الشيخ متقال شيخ قبيلة بنى صخر ، وأثناء إقامته مع القبيلة نزل هو والشيخ متقال ضيفين على إحدى سيدات القبيلة وعندما عزما على الرحيل أراد أن يهدى لمضيفتهما قطعتين من الذهب لكى تثقبهما وتعلقهما فى قلادتها ، لكن الشيخ متقال أبدى تحفظا على رغبته خشية أن تشعر المضيفة بإهانة . وبدلا من ذلك أنحنى الأمريكى وقبل يدها معربا لها عن شكره متبعا الأسلوب الأوربى . وكانت حركة جديدة تماما بالنسبة لها ، حيث أن تقبيل اليد فى الصحراء هو نوع من التكريم يؤدى فحسب للرجال ، للشيوخ الأقوياء والسلاطين . وضحكت السيدة وسألت لتعرف ماذا يقصد فأخبرها بأنها عادة أفرنجية مألوفة للإستئذان فى الإنصراف من صحبة سيدة رائعة الجمال . (سيبروك ، ص ٨٧) .

وإذا كانت هناك طقوس تحية خاصة بالرجال فيما بينهم ، وطقوس أخرى خاصة بالتحية بين الرجال والنساء ، فهناك أيضا طقوس خاصة بالتحية بين النساء فيما بينهن .

وقد نقلت إلينا السيدة سالمة فى مذكراتها (ص ٢١٨) طرفا من هذه الطقوس : ويبدأ السلام بالقبلات والمصافحة ، فالزائرة تقبل يد ربة البيت أو رأسها أو وجنتيها أو كتفها ، على حسب النسبة بالمكانة بين الإثنتين . أو أن تكتفيا بالمصافحة أن كانتا على منزلة متساوية ، ثم تجلس الزائرة إلى جانب ربة البيت على " المدة " إن كانت صنونا لها ، أو بعيدا عنها قليلا ، وإلا فتجلس على الأرض أن لم يؤهلها مقامها للجلوس العالى جنب ربة البيت .

المبحث الثالث

آداب النساء

يفرض العرف لدى القبليين العرب على النساء آدابا معينة . وتتصل هذه الآداب بجوانب الحياة المختلفة .

ففي اليمن لا تنادَى للمرأة بإسمها ، والأسم الذى تنادى به هو الإسم الأول لأقرب الذكور إليها ، حتى النسوة أنفسهن يلقبن بعضهن بعضا بأسماء الرجال كقولهن السيد محمد أو السيد عبدالله بدلا من أسم المرأة الحقيقى الذى قد يكون زينب أو فاطمة مثلا . (جوهر وأيوب ، ص ١١٠) .

ولدى بدو سيناء لا تنادى المرأة زوجها بإسمه بل تكنيه باسم ولده البكر ذكرا كان أو أنثى . فتقول : " يا أبا فلان ، أو يا أبا فلانة " . وإذا لم يكن له ولد كنته باسم أبيه . وتحلف المرأة برأس أبيها لا برأس زوجها وبذراع ولدها فتقول : " من رأس أبى " ، و " من ذراع ولدى " . أو تقول " وحياة ضعوفى " أى أولادى . (شقير ، حـ ٢ ، ٣٨٨) .

ولدى قبائل أولاد على فى صحراء مصر العربية من النادر إستخدام النساء أسماء أزواجهن ، ولكنهن يشرن إليهم باستخدام عبارات مثل " هذاك " أو الشايب " أو " صاحب بيتى " ويتبدين ، على الأقل فى حضور الآخرين ، رسميات وبعيدات عن أزواجهن ولا يبدين عواطفهن علانية وإذا أبديت نحوهن شعرن بحرج بالغ . (أبولغد ، ص ١٥٤) '

ولدى بدو سيناء لا تجلس النساء فى مجالس الرجال ولا يعقدن مجالس بينهن كالرجال ، بل تزور البدوية جارتها وقتا قصيرا . ثم تعود إلى خيمتها . وإذا كانت المرأة راكبة ومرت بمجلس رجال ترجلت ومشت على قدميها . وهى إذا ركبت الإبل لا تركب على الغبيط بل تركب على صلب الجمل . وأما إذا ركبت الحمير ركبت ركوب الرجال. (شقير، حـ ٢ ، ص ٣٨٤) .

ولدى بعض القبائل العربية ينظر إلى تحجب المرأة فى مواجهة رجال معينين بوصفه مظهرا من مظاهر الإحترام لهم . وفى هذه القبائل تتحجب النساء فى مواجهة الرجال الأكبر منهن سنا ولو كانت تربطهم بهن قرابة قريبة بل ولو كانوا من المحارم بالنسبة لهن ، بينما لا تتحجب المرأة فى مواجهة الأصغر منها سنا ولو كانوا من غير المحارم وفى مواجهة الغرباء أو الأدنى منها من حيث المكانة الإجتماعية ولو كانوا أكبر منها سنا .

من ذلك مثلا ما يجرى به العرف لدى قبائل أولاد على ، فى صحراء مصر العربية ، حيث تتحجب المرأة فى مواجهة أبيها وكبار السن من أعمامها أو جماعة قرابتها ، وأبناء عمها وأقارب زوجها الأكبر منها سنا . وتحجب النساء فى مواجهة الرجال المتزوجين أكثر من تحجبهن فى مواجهة غير المتزوجين . وهن يتحجبن دائما فى مواجهة الرجال الأكبر سنا من غير أفراد العشيرة ، أو الغرباء . إلا إذا كان هؤلاء الرجال ينتمون إلى فئات أدنى إجتماعيا أو من غير البدو بينما لا تتحجب النساء فى مواجهة أزواجهن أو إخوتهن أو أبناء عمومتهن أو أصهارهن الأصغر منهن سنا ، ولا فى مواجهة التابعين لأزواجهن مثل الموالى ، أو الرجال الأدنى إجتماعيا من أزواجهن . وإذا كان هناك فارق سن كبير بين المرأة وزوجها فمن الشائع عدم تحجبها فى مواجهة الرجال الأصغر منه سنا ولو كانوا أكبر منها سنا . . . وعندما يفقد الرجال شرفهم بسبب الجبن أو التبعية الشديدة أو الغدر أو لأى سبب لآخر ، تتوقف النساء عن التحجب فى مواجتهم :(أبولغد ، ص ١٦٢).

ويجرى العرف لدى بعض القبائل العربية باعتبار المرأة غير أهل لذبح الطيور أو الحيوانات سواء لعدم ختانهن ، أم لعدم طهارتهن بسبب الدورة الشهرية (الحيض) .

فلدى قبيلة الفقراء لا يمكن للنساء ذبح أضحية لأنهن نجسات بسبب عدم ختانهن . وفى حالة ما إذا كان من اللازم إسالة دم شاة أو ماعز وجب على المرأة أن تبحث عن رجل يسيل الدم ، وإذا لم تجد رجلا تركت الحيوان

يموت (يفطس) بدلا من أن تذبحه بنفسها أما البدو المجاورون ، كالعطاونة مثلا ، فيمكن لنسائهم ذبح الضحايا لأنهن لسن نجسات ، حيث أنهن مختونات: (جوسان وسافنياك ، العرب ، حـ ٧ ، ٨ ، س ٢٠ ، ص ٥٠٧).

ولدى أولاد على ، فى صحراء مصر الغربية ، يقتصر ذبح الحيوانات على الرجال وهو قيد كثيرا ما يفضى إلى متاعب للناس فمن المناظر المألوفة فى المضرب رؤية البنات يجرين من بيت إلى بيت وهن يحملن الأرانب من آذانها والدجاج من أقدامها بحثا عن رجل يذبح الحيوانات التى ترغب أمهاتهن فى طهيها . وتظهر نجاسة الإناث الشعائرية فى حل مشكلة عدم وجود رجال على الإطلاق . فعندما لا يوجد أى رجل ، يسمح العرف لإمرأة جاوزت سن الحمل بتضحية حيوان وذلك بأن تضع السكين فى يد صبى مختون وتقبض بيديها على يده ، وتذبح الحيوان بالفعل ، غير أنه من اللازم أن يتفوه الصبى نفسه بالصيغة الدينية (الله أكبر) : (ابولغد ، ص ١٣٢) .

الفصل الخامس

رواسب لعبادات قديمة

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الشمس والقمر, وغيرهما من الأحرام السماوية . وجرت عادتهم بإعتبار بعض الحيوانات مقدسة لهذا المعبود أو ذاك .

وقد بقيت فى عادات القبليين العرب المعاصرين بعض رواسب تنم عن المعتقدات القديمة . ويمارس القبليون بالطبع هذه العادات دون أن يدركوا كنهها او مدلولها ، فهم يمارسونها بحكم العادة لا أكثر ، حيث صارت جزءا من الموروثات الشعبية التى تتناقلها الأجيال ، جيلا بعد جيل دون أن تعى أصلها .

ونستعرض ، فيما يلى بعضا من الرواسب المتخلفة من المعتقدات الوثنية القديمة .

أولا ـ رواسب لعبادة الشمس

كان العرب يعبدون الشمس . وفى جنوب الجزيرة العربية كانوا يعبدونها بوصفها إلهة أى أنثى ، بينما فى بلاد النهرين كانت تعبد بوصفها إلها أى ذكرا .

ومن الممكن أن نتبين بعض رواسب لهذه العبادة فى التراث القبلى المعاصر .

ففى بعض قرى اليمن جرت العادة بأنه إذا اقتلع لطفل سن ، أخذ قليلا من تراب مشوب بحصا صغار وقليل من الملح وخلط الجميع وأدخل السن المقلوعة بين ذلك وقال بأعلا صوته : " يا عين عين الشمس خذى سنى سن حمار ، وأبدلينى بسن غزال ويرمى بما فى يده بكل ما أوتى من قوة قبال

عين الشمس ، شريطة أن يكون وقت الزوال أو بعد طلوع الشمس ، وبعد أن ترجع تلك القبضة المرمى بها إلى الأرض يفتش عن السن فإن لم يجدها دل ذلك على أن الشمس قد قبلتها ، وإن وجدها أعاد الكرة على تلك الصفة المذكورة لأن الشمس ما قبلتها وهكذا إلى أن تغيب عن الأبصار : (الحوالى ، ص ١٦٤) .

وفى قرية ترمسعيا بفلسطين يمسك الطفل الذى يبدل بأسنان الحليب الأسنان الدائمة ، بسنه المخلوعة وينظر إلى الشمس ويقول " يا عوينة الشمس خذى لك سن ها لحمار وأعطينى سن غزال من أسنان أولادك الصغار " . ثم يرمى سنه إلى أعلى : (دراسة فى المجتمع والتراث الشعبى الفلسطينى ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٠) .

وفى مصر جرت العادة بأن الطفل إذا خلع سنا من أسنانه قذف بها إلى الشمس وقال " يا شمس يا شموسة خدى سن الحمار وهاتى سن العروسة " . (أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة ١٩٥٣) .

وفى المغرب عندما يفقد طفل أحدى أسنانه ، يلقى بها فى إتجاه الشمس وهو يصيح : " ها هى : خذى سن حمار وأعطينى سن غزال . أو يقول " يا شمس ، خذى الصفرة وأعطينى الشبه (حجر الشب) . وتوجد عادات مماثلة فى الجزائر . (وسترمارك ، ص ١٤١) .

ولدى سكان الجبل فى ظفار حين يمرض أحدهم تذبح بقرة وينثر دمها على كتفى المريض وصدره عندما تكون الشمس مرتفعة فى السماء ، ولابد أن يكون الحيوان المذبوح أنثى ، وهذه التفرقة فى الجنس لا تراعى عند التضحية فى حالة الموت : (اليافعى ، ص ٢١٣) .

وقد يقول البدوى فى شرق الأردن ، عند طلوع الشمس : " طلعت الشمس إرتفع العرش أعطنا خير اليوم واكفنا شر الأمس ، وأكفنا شر من زادت عليه النفس ، من جن ومن إنس " : (سلمان ، ص ١٦٤) .

ويصـف رحالـة أوربـى (بلجريـف ، ص ٨٠) زار شـرق الجزيـرة العربيـة ، حوالـى منتصـف القرن الماضـى ، موقـف رفقائـه مـن البـدو عنـد طلوع الشـمس فيقـول : كـان رفقاؤنـا يحولـون ، بمجـرد أن تقطـع الشـعاعات الأولى التى ترسلها الشمس متوازية إلـى الـوادى خـط الأفـق ، وجوههـم إلـى القرص البازغ ويبدأون فـى تـلاوة أدعيتهـم وإبتهـالاتهم ، دون وضـوء ودون أن يضعـوا قدمـا علـى الأرض ، ولا يتوقفـون عـن الدعـاء إلا بعـد أن يبـدو الكوكب مكتملا بكل ضيائه السـاطعة ، أعلـى حافـة الصحـراء . (أشـار إليـه وستر مارك ، ص ١٤١) .

ثانيا ــ رواسب لعبادة القمر

تركت عبادة القمر بعض رواسب تتجلى فى الترحيب بظهور قمر جديد والإبتهال إليه ، وتبادل التهنئة به .

فعلى سبيل المثـال عندمـا كـان أفـراد قبيلـة الفقـراء وهـى إحـدى قبـائل عنزة وتقطن الحجاز يُسألون عمـا إذا كـانوا يبتهلـون إلـى القمـر أو الشـمس ، كانوا يجيبون (عندما يظهـر هـذان الكوكبـان نقـول (لا إلـه إلا اللـه) لتـأكيد توحيد الله . لكن عندما يظهر القمر الجديد من عادتنا أن نكرر : أيها البـدر ، أيها السعيد ، لقد أنقذتنا من الشر فيما مضـى ، إنقذنا من الشر القائم: (جوسـان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٥ ـ ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٧١ ، هـ ٤) .

ولدى بدو سيناء مثلا يقولون عند رؤية الهـلال : " يـا إللـى سـلمتنا فـى اللى زل سلمنا فى اللى هل ، يا الله حلوية يا الله جلوية يا اللـه دعـوات أولاد الحلال " . ويهنئون بعضهم بعضا بظهوره . فيقول الواحد " مبارك شهركم" ، فيجيبه الآخر " لنا ولكم " :(شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٩٧) .

وروى أحد الرحالة الغربيين (موسيل ، العربيـة الصحراويـة ، ص٧٣) أنه عندما ظهر هـلال قمر جديـد رفـع بليهان (أحد مرافقيه من البدو) عينيـه إليه ، ومد يده نحوه ، وحياه على النحو التالى : " يا هلال يا سيد ، يا سعيد".

ولدى بدو شرق الأردن يأخذ البدوى ـ عند صعود الهلال ـ فى يده عودا يابسا ويكسره قائلا : يا هلال الصعود كل شهر تعود ، يجعلك هلال مسرة لا هلال مضرة ، دَرْدو . دَرْ دو ، دَرْ دو . هل هلالك وعز جلالك . سبحانك فى مكانك " : (سلمان ، ص ١٦٤) .

وفى المغرب إستطاع بعض الباحثين التعرف على كثير من رواسب عبادة القمر .

فمن الشائع مثلا لدى النساء فى المغرب صب ماء فى قادوس وتعريضه لأشعة القمر فى حالة إكتماله ثم إستخدامه فى عملية سحرية . وبعض التعاويذ لا يمكن كتابتها إلا فى ضوء القمر ، والتعاويذ التى تستهدف أى زيادة ، كزيادة الحُب أو زيادة المال ـ سوف تظل مجردة من الفعالية إذا لم تدون أثناء فترة نمو القمر . (وستر مارك ، ص ١٤٢) .

كذلك يعمد كل من يشاهد الهلال الجديد إلى إنتزاع قبضة من العشب من الأرض ويقذف بها فى إتجاه الكوكب قائلا : " ألقى إليك بشىء أخضر ، لا تتسبب لنا فى أذى أو شر " ، أو يقدم إلى القمر الجديد أشياء جافة يطلب فى مقابلها أشياء خضراء ، أو يتفوه بدعاء كالتالى : " ليجعل الله بركتك تحل علينا ، لينمو مالنا بأسرع من نموك ، ليزده الله أثناء سطوعك " . (وستر مارك ، ص ١٤٣) .

وعندما يشاهد الرجال القمر الجديد يقفون وينظرون إليه وهو يصعد فوق الأفق ، ثم يحولون وجوههم نحو السماء ويدعون فى حماس : من أجل أن ينجح كل أمر من أمورهم أثناء فترة هذا القمر ومن أجل أن يخلصهم الله من أعدائهم " .

وفى فلسطين يقلب الفلاحون بين أصابعهم قطعة من الفضة يقدمونها إلى القمر الجديد على أمل أن يكون الشهر " أبيض " أيضا بالنسبة لهم . (وستر مارك ، ١٤٣) .

ثالثا ـ حيوانات مقدسة

هناك ما يشير إلى ان العرب كانوا ـ قبل الإسلام ـــ يقدسون الغزال ، فقد كانوا يحتفظون بتمثالين لغزالتين فى الكعبة . ومن المحتمل أنهم كانوا ينظرون إلى الغزال بوصفه حيوانا مقدسا للإله القمر ، نظرا للتشابه بين قرنى الغزال أو الوعل وبين الهلال .

وقد بقى فى موروثات بعض القبائل العربية رواسب من هذا المعتقد الوثنى القديم نستعرض بعضا منها فيما يلى :

فقد ذكر ابن المجاور (ص ١٤٩) فى أوائل القرن السابع الهجرى أن عرب التهائم ـ من سورَع إلى أعمال أبين مع جميع العقارب ـــ إذا وجد أحدهم غزالا ميتة أخذوها وغسلوها وكفنوها ودفنوها . وبقى للغزال عزاء فى جميع القبائل مدة سبعة أيام ، مشققين الجيوب ، مقطعين الشعور ، يذرون التراب على المفارق .

ويقول الشاطرى (ص ٣٤٨) أن الحضارم منذ العهد الحميرى يُكّبرون الوعل . وقد وجد بعض السواح الأجانب أحجارا فى شرق حضرموت وربما كانت قرب شعب هود عليها كتابة بالمسند تدل على تقديسه وعلى أنها آثار ذلك العهد ، واستمر عبر التاريخ تعظيم الوعل والإحتفال بإصطياده إلى اليوم .

ويقول لقمان (أساطير من تاريخ اليمن ، ص ٢٢) :

" ومن النقوش التى تم إكتشافها حتى الآن نرى أن الناس كانوا يرمزون إلى الإله القمر بقرنى الوعل أو الثور لأنهما أقرب شبها بالهلال . وكانوا يضعون القرنين فوق الأبواب الخارجية أو فى أركان المنازل تبركا بمعبودهم القمر .

وعلى الرغم من إنقراض عبادة الأفلاك السماوية لا يزال كثيرون فى الريف والمدن يضعون القرنين فوق الأبواب وأركان المنازل ويرسمون صور الشمس والهلال والنجم داخل غرف منازلهم ، وهم يفعلون هذا للزينة ولمنع خطر العين الحاسدة ، غير مدركين أنها عادة توارثوها عن الآباء الذين عبدوا القمر والشمس والزهرة المخمسة للنجم الذى كانوا يسمونه عثتر ويعبدونه على إنه ابن القمر والشمس " .

الفصل السادس
تقديس الأشجار والأحجار والماء

يسود فى المجتمعات القبلية بصفة عامة الإعتقاد فى أن للأشياء الجامدة أرواحا ، شأنها فى هذا شأن البشر ، فللشجرة روح وللحجر روح وللماء روح ... إلخ وأن أرواح الجماد مثلها مثل أرواح البشر يمكنها أن تنفع ويمكنها أن تضر . وللحصول على نفعها وإستبعاد أذاها لابد من التقرب إليها . ويتخذ التقرب إليها صورا وأشكالا عدة .

ويشيع لدى القبليين العرب الإعتقاد فى أن الأرواح التى تتلبس الأشجار والأحجار والمياه قادرة على النفع كما هى قادرة على الإيذاء . فهى قادرة على تحقيق المنافع لمن يتقربون منها ويتوددون إليها . وهى قادرة أيضا على إيذاء من يتعرضون لها أو يعتدون عليها .

وفيما يلى نتحدث ، فى شىء من التفصيل عن المعتقدات السائدة لدى القبائل العربية حول الأشجار والأحجار والماء .

أولا ـ تقديس الأشجار

تقديس الأشجار عادة شائعة للغاية لدى القبائل العربية لا سيما البدوية منها . وقد نقل إلينا كثير من الرحالة الغربيين والعرب ما شاهدوه ووقفوا عليه فى هذا الخصوص .

ونستعرض فيما يلى بعضا من أقوالهم :

يصف أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر (وصف مصر ، حـ ٢ ، ص ١٩٨) موقف البدو فى مصر من تقديس الأشجار فيقول :

عندما تنمو شجرة بالقرب من مقبرة ، أو فى أية ظروف قد تضفى

عليها نوعا من مظهر المعجزة ، فإنها تحمل البدو على الإعتقاد بأن بها روح جنى ، وتصبح من ذلك الوقت أمرا مقدسا ، بحيث لا يمكن إنتهاك حرمتها بقطع فرع منها أو حتى بقذفها بحجر ، ويعلقون بها شعر الرأس وشعر الجسم ومزقا من القماش ، وقطعا من الورق خطت عليها حروف غريبة وكلمات سحرية ، ويأملون من وراء الطقوس التى يصحبون بها هذا الفعل أن يسخروا القدر لصالحهم وأن يوقعوا الضرر والأذى بأعدائهم ، وقد شاهدت وسط الصحراء ، بين القاهرة والسويس ، شجرة ضخمة من أشجار الأكاسيا مغطاة بمزق من القماش ، ويعسكر بالقرب من هذه الشجرة عادة القافلة الكبيرة التى تتوجه كل عام إلى مكة " للحج " ويقوم العرب بهذا الأمر فى تقديس كبير ، وقلما يفوت الحجاج أن ينذروا هناك نذورهم إذا ما كتبت لهم النجاة من أخطار السفر ، وذلك بأن يعلقوا فى فروعها جزءا من ملابسهم " .

ويصف دوتى (حـ ١ ، ص ٣٦٥) فى أواخر القرن الماضى نظرة البدو - فى الجزيرة العربية - إلى الأشجار فيقول :

" خرجت يوما لأقطع أوتاد خيمة من شجرة السنط الضخمة الوحيدة التى تقوم بالقرب من القلعة ، وهناك كانت ترقد ماعز وشياه الحامية وقت الظهرة بعد سقيها . ورأيت هناك " دولان " يقود قطيعه وإنتظرت لكى أسأله عن حسابه أو لكى أطلب إليه أن يقطع الأخشاب من أجلى فأجابنى :

- والله يا بن عمى أطلب منى أى شىء آخر ، ففى هذا الهلاك لكلينا . لا . أتوسل إليك ، لا تكسر يا خليل ولا تقطع حتى ولو فرعا واحدا من كل هذه الفروع ، فأنت لست من هذا البلد وأنت لا تعرف . أنظر أعلى هل ترى قطع القطن وقرون الماعز التى تتدلى من هذه الأغصان ، انها تخص البدو . لكن الكثير منها سقط عقب الرياح التى هبت مؤخرا . وهل ترى هذه المسامير لقد دقها بعض الحجاج فى الجذع أثناء قيامهم بالدعاء .

وعندما وضعت يدى من جديد على غصن طيب وتناولت سكينتى إحتضننى دولان وقال :

ـ يا خليل من يقطع هذه الشجرة لابد أن يموت .

ـ ما هذا الجنون ، هل تخاف من الأشجار ؟

ـ أنا إن جنا يتلبسها ، لا تكن متهورا إلى هذا الحد . والله إنـى لأقول الحقيقة . إن بدويا كسر مجرد غصن واحد ومات بعد لحظة وهلك كل قطيعه . يا خليل الليلة الماضية جمعت فتاة صغيرة بعضا مـن العصى الساقطة من أجل أهلها ، وعندما أشعلوا النار وحياتك تيبست ذراع البنت ، وحملوها فى الحال إلى داخل القلعة ، حيث قام الحاج نجم ، بتعليق بعض التعاويذ عليها ، وبرحمة من الله شفيت " .

ويصف شقير (حـ ٢ ، ص ٣٥٤) فى أوائل القرن الحالى موقف بدو سيناء من تقديس الأشجار فيقول :

" على نحو نصف ساعة جنوبى بئر " رفح " توجد شجرتا سدر الواحدة بجانب الأخرى تدعيان " المقرونتين " ويقال لكل منهما الفقيرة . وللغربية منهما غصن مجوف ينحنى حتى يمس الأرض وجدت فى تجويفه قطعا صغيرة من النقود القديمة والحديثة ومسامير وخرز وحب عدس ، وقد علق فى أغصان الشجرتين أباريق الزيت فسألتهم فى ذلك فقالوا : إن نساء البدو يكرمن هاتين الشجرتين وينذرن لهما النذور ومتى جئن للزيارة وضعن شيئا من آثارهن فيهما وأنرنهما بسرج الزيت كما يفعل البدو كافة عند زيارة الأولياء .

وعلى نحو نصف ساعة من العريش فى طريق " لحفن " غابة صغيرة من شجر الطرفاء تدعى الفقيرة يزورها العرب للتبرك بها وهم ينيرونها ويودعون عندها حبالهم وأشياءهم .

وفى صحن قلعة " نخل " شجرة قديمة العهد كان الأهلون يعتقدون أنها ولية وينيرونها بالسرج إلى عهد قريب ولا عجب فى ذلك فإن شجرة ظليلة

فى صحارى سيناء المحرقة لمن أكبر النعم على أهلها " .

وفى قبيلة " بلى " يبجلون شجرة تسمى صالحة ويزورها العرب كثيرا من أجل شفاء مريض أو للوفاء بنذر . وفى أغصانها الكثيفة يعقدون قطعا من القماش أو لآلىء . وتعلق النساء فيها أساورهن وينبحون أضاحى عند الجذع . ويحب البدو ، بصفة خاصة أن يذوقوا حلاوة النوم فى ظلها لأنهم أثناء هذه الراحة يشاهدون ،كان هذه الشجرة ويسمعون بصفة خاصة أغانيهم . وهم يحرصون على الإمتناع عن مد أيديهم إلى غصن لكى يقطعوا منه فرعا ، فمثل هذا الفعل يشكل خطيئة ، يعاقب عليها فى الحال : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٧١ ، هامش ٨) .

ويقول سلمان (ص ١٨٦ ـ ١٩٢) عن موقف أعراب شرق الأردن من الأشجار :

" نالت الأشجار والغابات فى شرقى الأردن إكراما عظيما لزعمهم أنها مبيت الأرواح الخفية . . . . ومن الأشجار المكرمة عند الأعراب شجرة السنديان فهى وثيقة الأصل ، ممتدة الأغصان ، مورقة الأفنان صيفا وشتاءا فيراها الأعراب مرتفعة نحو السماء ، فيخيل إليهم أنها أصابت قوة غريبة من الأرواح الساكنة فيها . فكثيرا ما يمر الحارث تحت غصونها فيلقى إليها محراثه غير خاش صولة القوم اللئام لأن الروح يحفظه . وربما ألقوا إلى جوانبها جوالق الحنطة والشعير ، فلا يتجرأ أحد على سرقتها ..... وكم من إمرأة عقيمة أتت ورقدت تحت الأشجار المقدسة طالبة من رب الشجر أن لا يجعلها عارا بين النساء .... ومن أغرب ما شاهدنا أن جماعة من بنى حميدة كانوا مجتمعين فى وادى الموجب حول شجرة دوم وكان شيخها يدهن قشرتها بالسمن والزيت فسألناه عن السبب فى ذلك فقال : هذه الشجرة مكرمة .... وكثيرا ما يعلقن عليها الأنسجة الملونة . وقد رأينا النساء يعلقن شعورهن فى أغصان الأشجار شكرا لنعمة نلنها أو دفعا لمصيبة .... وروى لى الشيخ رغل المجالى أنه كان فى أرض الثمد شجيرة رتم قطعها رجل صخرى فقتل لساعته لأنها كانت مقدسة .... وشجرة عبدالله فى الربة لها

منزلة رفيعة من الإجلال فيقولـون فـى أقسـامهم " لا وحيـاة أبـوى وحيـاة اللـه وحياة شـجيرة عبداللـه إنـى لـم أفعـل كـذا " . وإذا طـال الجـدل بيـن خصميـن يقصدان هذه الشـجرة ويضعـان يديهمـا علـى سـاقها ويقـولان : بحيـاة شـجيرة عبدالله " .... وهذه الأشجار تجير من يستظل بها من إنسان أو حيوان . فإذا رأى الصياد غزالا تحت أغصـانها أو طيرا على أفنانها لا يصيبها بـأذى لأنهـا أصبحت فى مأمن من حياتها فلا يحتطب منهـا ولا يصـاد طيرهـا . وكـم مـن راع أتـى بغنمـه وزار تلـك الأشـجار وطـاف بهـا وذبـح لهـا ذبيحـة ونضجهـا بـالدم . والعـرب الحـاليون يستحلفون أولادهـم أن يدفنـوا بعـد وفـاتهم بـالقرب منها . ولذلك ترى أكثر المقابر فى شرقى الأردن حول الأشجار المقدسة "

وشـاهد أحـد البـاحثين الغربيين فـى منطقـة صـخريـة فـى جبـل الأمـير جنوب شرق حلـب شـجرة قصـيرة جافـة ــ ذات أشـواك ــ فـى إرتفـاع قامـة الرجل تتدلـى مـن أغصـانهـا خـرق مـن كـل نـوع وتحيـط بجذعهـا أكـوام مـن الحجارة من كل نوع ، صـغـيرة وكبيرة ، كـانت موضوعـة علـى أغصـانهـا . ومثل هـذه الشـجرة يسـمى " زرور " وهـى مذبـح الصـحـراء . فعندمـا تتلهـف إمرأة على ولد ، وعندما يحتاج البدوى إلى المطر أو عندما يتلهف على شـفاء فرسه أو جمله من المرض يأخذ حجرا ويثبته عند قدم الزرور ، أو يثبتـه فـى مكان ما بين غصنين من أغصانها . (زويمر ، ص ٢١١) .

ويتحدث رحالة غربى عن الأشجار المقدسة فى اليمن فيقول :

" كـان الوثنيـون العـرب يحـترمون الأشـجار ، علـى أنهـا مقـر أربـابهم وكانوا يقيمون إحتفالاتهم الدينية تحتهـا ، ويعلقـون أسـلحتهم علـى أغصـانهـا ، وما زالت بعض هذه الأشجار المقدسة التـى تغطـى فروعهـا بمختلـف النـذور المربوطة إليهـا ، قائمـة فـى جـوار الكثـير مـن المـدن والقـرى ، وتحـاط هذه الأشجار عادة بأسـيجة مـن الحجـارة ، تحيـط بباحـة مقدسـة " : (هولفريـتز ، ص ٤٦) .

نخلص من هذا العرض لأقوال الرحالة والباحثين ، العرب والغربيين ،

إلى أن أساس تقديس الشجرة عند القبليين العرب هو ما تقدمه الشجرة ، لا سيما إذا كانت وارفة الظلال ، للمسافر المنهك عبر الفيافى والقفار فى أوقات القيظ من شعور بالراحة والإطمئنان . غير أن التقديس لا يمتد إلى كل الأشجار بدون تفرقة ، وإنما يقتصر على أشجار معينة يتميز كل منها بظرف خاص . فقد تقدس الشجرة لأنها قائمة فى صحراء قفر ، أو نابتة فى وسط الصخر ، أو لأنها تتميز بضخامة غير عادية ، أو لأنها نبتت على مقربة من قبر أحد الأولياء ، أو فى مكان قتل فيه أحد المحاربين الأبطال .

ويعتقد القبليون أن مثل هذه الأشجار تشكل مأوى لروح من الأرواح قد تكون روح جن أو ملاك وقد تكون روح ولى أو بطل .

ويعتقد القبليون أن الروح التى تسكن الشجرة يمكنها أن تنفع وأن تضر. فهى تنفع من يتقرب منها ويتودد إليها . فقد تمكن العاقر من الإنجاب ، وتشفى المريض من مرضه وترد المسافر سليما معافى إلى أهله . وهى تحمى من يلوذ بها تكفل الأمان لكل ما يودع تحتها . وهى على العكس تنتقم من كل من يتعرض لها . وتعاقب كل من يؤذى المحتمين بها ، أو يعتدى على الأشياء الموضوعة تحت رعايتها .

ثانيا - تقديس الأحجار

يشيع فى المجتمعات القبلية تقديس الأحجار لإعتقادهم أيضا أن هذه الأحجار تتلبسها أرواح خيرة أو شريرة . والأحجار التى تكون موضع تقديس هى فى العادة أحجار تتمتع بشكل غير مألوف .

وكان من الشائع لدى القبليين العرب تقديس الأحجار . ففى شرق الأردن (سلمان ، ١٩٦) يوجد العديد من الأحجار التى يضعها الأعراب موضع التقديس .

ففى غربى قرية " ماعين " توجد صخرة ملساء مكرمة عند الأعراب

يقبلونها ، ويقيمون عليها صلاتهم . ويوجد فى مرتفعات حمام الزرقاء حجر متطاول يشبه المسلات يدعى الحجر المنصوب . فالأعراب عند صعودهم فى الربيع من الحمراء إلى مشارف الجبال يطوفون به ويقدمون ذبيحة لصاحبه . وتوجد صخرة تسمى صخرة " مكاور " مشهورة بعجائبها ، يطوف الراعى حولها ، ويتبرك بلمسها ، ولها قوة على طرد الأمراض وشفاء المصابين . وفى قرية " معان " هناك مغارة واسعة تدعى مغارة بنات العين ، وفى داخلها حجر منصوب يشبه صورة إنسان ، تكرمه النساء ويمسحنه بالسمن والزيت ، ويضئن له المصابيح فى أوقات معلومة . وفى معان أيضا توجد " أم حديقة " ومزارها قائم بين أشجار ظليلة ومياة مترقرقة . وما هو إلا صخرة مستديرة يبلغ إرتفاعها مترين .... وترقد العاقر أياما على تلك الصخرة ، وتحتك بها ، وتبكى بدموع سخينة . وكثيرا ما تطوف حولها دفعات متوالية ، وتقدم لها من النذور السمن والكحل والحناء . ومنهن من يقصصن شعرهن ويعلقنه ذكرا لنعمة نلنها (سلمان ، ص ٢٠٦) .

ولدى شيعة البحرين هناك أحجار كريمة موضع تقديس حيث يفترض أن بداخلها جنا له القدرة على العودة إلى الحياة . وتُقدم إلى هذه الأحجار قرابين من الطعام ليلة الثلاثاء وأحيانا أيام الخميس . ويلقى من يقوم بتقديم القربان السلام دائما إلى الجن ، وبعد أن يتمنى لها تناول الطعام فى صحة وعافية ، بوضع الطعام على الحجر . وفى الصباح يعثرون على الصحن فارغا . وكثيرا ما تأخذ النساء قطعة من الحرير المعد لكى يكون ثوبا وتتركها على الحجر وفاءا بنذر : (زويمر ، ص ٢٢٠) .

وفى قمة جبل " عويرض " ، فى الغرب من المعظم ، توجد قطعة من الصخر يزورها أهل "بِلى " ويجب هؤلاء البدو أن يأتوا بمرضاهم على مقربة من هذا الحجر . فالاحتكاك بالصخرة من شأنه أن يمنح المريض قوة . ويذبح المريض أضحية فى هذا المكان :
(جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٧١ ، هامش ٩) .

وجرت العادة بتقديم قربان إلى جبل صبرة ناحية عدن وفى وصف هـذه العادة يقول ابن المجاور (ص ١١٤) فى أوائل القرن السابع الهجرى :

" فإذا تعوقت المراكب فى المجىء عن موسم ثغر عدن يجاء إلـى جبل صبرة بسبع رءوس بقر عند إصفرار الشمس ، وتبقى البقر فـى مكانها إلـى نصف الليل وبعد زوال هذا الحد ترد ست رءوس منها إلى عدن ويبقى رأس واحد فى مكانه ، فـإذا أصبح ضحى بـه من الغد فـى مكانـه ، وتسمى تلك الضحية ضحية الجبل . فإذا عمل هذا العمل قدمت المراكب ، وتلاحق بعضها ببعض " .

وفى مصر ثمة شواهد على أن عادة تقديس الأحجار كانت ما زالت قائمة فـى بعض قرى الصعيد . فقد ذكرت باحثة إنجليزية أن ثمة حجراً بالقرب من قرية صغيرة فى محافظة أسيوط ذو شكل مخروطى إلى حدا ما ، قائم وسط الحقول ، تحيط بـه زراعات متنوعة . وقد بذلت عدة محاولات لتحريكه مـن مكانه ، فحفر حوله وإلى عمق بعيد ، لكن أحدا لم يستطع التوصل إلى القاعدة . ويعتقد الفلاحون أن هذا الحجر قديم للغاية . ويضفى عليه هذا الإعتقاد طابعا غامضا بعض الشىء ، ومن هنا الإعتقاد بأن له قيمة سحرية ، فالنساء اللاتى ليس لديهن لبـن كـاف لإرضـاع أطفالهن كن يذهبن إلى الحجر فى يوم جمعة . ولم يكن يسمح لهن بالكلام ، لا أثناء الذهاب ولا أثناء العودة ، وكـان عليهن أن يسرن فوق الحجر سبع مرات دون أن يقطعن صمتهن . وبعد هذا تنتهى كل مشكلة خاصة بالإرضاع . وقد قيل لها أن الحجر يزار لهذا الغرض كما يزار لأغراض أخرى عديدة ، منذ قرن أو ما يزيد . (بلاكمان ، ص ٥٦) .

ثالثا ـ تقديس الماء

كان من الشائع لدى القبليين العرب الإعتقاد فـى أن للبحر روحا وأن لبعض البرك والآبار والينابيع أرواحا .

(أ) تقديس البحر :

ثمة شواهد على أن من القبليين العرب من كانوا يقدسون البحر ويقدمون لروحه القرابين .

من ذلك مثلا ما رواه ابن المجاور (ص ١١٤) من أنه " إذا حاذى مركب المسافر مدينة سقطرة أو جبل كرمل يؤخذ قدر ويعمل عليه شراع وسكان من جميع آلة المراكب ، ويعبى فيه من الأطعمة من قليل نارجيل وملح ورماد ، ويلقى فى البحر بين الامواج الهائلة ، قال أهل التجارب والخبرة أنه يصل بسلامة إلى لحف الجبل " .

ويصف شقير (جـ ، ٣٥٢) عادة بعض قبائل سيناء فى هذا الخصوص فيقول :

" وعند السواركة والبياضين والأخارسة فى بادية العريش عادة قديمة جدا فى تقديم الذبائح تشبه أن تكون وثنية . وذلك أنهم فى كل سنة بعد الربيع يزورون البحر بخيامهم ، ومعهم خيلهم وإبلهم وغنمهم فيغسلونها بالبحر ، ثم يذبحون الذبائح ويرمون رءوس الذبائح وأرجلها وجلودها فى البحر ، ويقولون عند رميها " هذا عشاك يابحر " ، ويطبخون باقى اللحم فيأكلون منه ويطعمون المارة .

أما السواركة فيتمون هذه الزيارة بلا إحتفال ولا أبهة فى يوم واحد من المغرب إلى صباح اليوم التالى . ويذبحون فى أى مكان على شاطىء البحر بين رفح والعريش . وأما البياضين والأخارسة من سكان " قطية " ، فإنهم ينزلون على شاطىء البحر قرب " الفرما " ، ويحتفلون بذلك إحتفالا عظيما فيتسابقون على الخيل والهجن والنساء تزغرد لهم ، وذلك مدة ثلاثة أيام " .

(ب) الآبار :

كان الإعتقاد سائدا لدى بعض العرب بأن للآبار والينابيع أرواحا ، وأن

هذه الأرواح يمكنها أن تحقق للناس منافع مختلفة إذا هم تـوددوا إليهـا وقدمـوا لها القرابين . وقد يستعان بالروح التى تسكن البئر لمعرفة مـا إذا كـان المتهم بريئا أم مذنبا .

من ذلك مثلا ما روته السـيدة سـالمة (ص ٢٤٢) عن الإعتقاد الذى كان سائدا لدى عرب عمان الذين كانوا يقيمون فى زنجبار فـى أواخر القرن الماضى ، تقول :

" كنـا نعتقد أن لبعض الينـابيع قـوة سـحرية خارقـة لا تسـتمدها مـن مائهـا وإنمـا مـن الأرواح الخاصـة السـاكنة حولهـا والتـى تسـتطيع أن تعمـل المعجزات ـ فهى تشـفى المريـض ، وتعيـد الغـائب ، وتجمـع بيـن الحبيبيـن ، وتهب الأولاد للعاقر ، وأشياء كثيرة أخرى .

وكان الينبوع المفضل فى زنجبار هو عين " شمشم " وتقـع علـى أميـال من المدينة وكانت تزار من كل الطبقات ولشتى الأغراض الصحية والعاطفية

ومن بساطة النذور المقدمة لهذا الينبوع يستطيع المرء أن يعتقد حـالا بقناعـة الـروح التـى تسـكنه وبسـاطة مطالبهـا وكـانت نذورهـا المفضلـة هـى الحلوى والعطور والبخور ونحر الخراف " .

ومـا زال الإعتقـاد فـى أن بعـض الآبـار تسـكنها الأرواح موجـودا فـى بعض القرى المصرية .

فقد نشـرت صحيفـة الأهـرام (فـى أحـد أعـداد عـام ١٩٩٣) أن شـابا ينتمى إلى إحدى قرى محافظة بنـى سـويف لقـى مصرعـه غرقـا فـى النيـل . وثارت شبهات أبيه حول ابن أخيه الذى أكد أنه برىء من هذه التهمة وعندمـا عرض الأمر على شيوخ القرية إتفقوا على أن يؤخذ ابن العم المتهم إلـى بـئر فى مدينة " ببا " بمحافظة بنى سويف . ويقال عن هذه البئر أنه إذا ألقـى فيهـا الشخص وكان صادقا طفا ولم يغرق، وإذا كان كاذبا غرق ومات داخل البئر.

الفصل السابع

تقديس الموتى

يشيع فى المجتمعات القبلية بصفة عامة أن الموت يفنى الجسد ، لكن الروح تنتقل بعد الموت إلى عالم آخر . ويتصور القبليون أن هذا العالم الآخر ليس بعيدا عن عالم الأحياء بل قريب منه . ويعتقدون أن أرواح الأسلاف فى عالمها الاخر تملك القدرة على نفع الأحياء وإيذائهم ولإكتساب رضاها وإستبعاد نقمتها جرت عادة القبليين بتقديم القرابين إلى أرواح أسلافهم فى مناسبات معينة أو كلما دعى داع إلى تحقيق نفع أو منع أذى .

وهناك شواهد عديدة على وجود معتقدات مماثلة لدى القبليين العرب المعاصرين . ويتخذ تقديس العرب لأرواح الموتى صورتين : تقديس الأسلاف وتقديس الأولياء .

المبحث الأول

تقديس الأسلاف

ثمة شواهد عديدة على أن القبليين العرب يعتقدون إعتقادا جازما فى قدرة الأسلاف على تحقيق النفع وإلحاق الأذى . ولهذا جرت عادتهم بزيارة قبورهم وتقديم القرابين إلى أرواحهم .

تقول السيدة سالمة (ص ١٦٣) :

" والمسلمون يعتقدون بخلود الإنسان وبعثه كما يعتقدون بأن روح الميت تعود لزيارة بيت الميت والأماكن الحبيبة إلى نفسه لذلك فإنهم بزيارتهم المستمرة للقبور يردون هذه الزيارات ويحيون هذه الصلات . وعلى العموم فإن للميت عند المسلمين إحتراما كبيرا فإذا أقسم لك مسلم برأس أو بروح أحد أمواته ، فإن إزهاق روحه أسهل عليه من نكث قسمه .

ويقول المرزوقى (ص ١٦١) عن بدو جنوب تونس أن لكل قرية أو قبيلة جدا صالحا يزار ويمنح البركة للزوار .

ويقول سلمان (ص ٢٤٩) عن بدو شرق الأردن : ويزعمون أن المائت كثيرا ما يظهر لأقاربه فى الحلم ويوبخهم على إهمالهم فرض الضحية فيسعى الأهلون بأداء الواجب وتقديم الذبيحة .

ويجرى العرف لدى بعض قبائل الجزيرة العربية بتقديم القرابين لإسلافهم الموتى .

من ذلك مثلا ما يجرى فى قبيلة القرأ فى ظفار حيث يوجد نهير يسمى " الريزات " وينبع من كهف فى بقعة مسطحة من المدرج الجبلى على بعد ميلين من بلدة " العود " ، ويتدفق ماؤه فى بركة متسعة تحف بها أشجار البوص فى إرتفاع الإنسان ، ويلقى الأهالى فى هذا النهير بعض الأطعمة ، وهى تمثل لديهم أرواح أسلافهم ، ويقولون : " نحن أبناؤكم وبناتكم لا تلحقوا بنا أى أذى ، وأطردوا عنا الأرواح الشريرة " : (اليافعى ، حـ ٢ ، ص ٢٠٥) .

المبحث الثانى
تقديس الأولياء

تقديس الأولياء عادة شائعة فى البلاد العربية من أقصاها شرقا إلى أقصاها غربا ، ومن أقصاها شمالا إلى أقصاها جنوبا . فلا تكاد توجد منطقة من مناطق العالم العربى لم تعرف هذه العادة فى فترة من الفترات . وفى داخل كل بلد ينتشر الأولياء فى كل مكان : فى القرى كما فى المدن .

وسوف نتحدث ، فيما يلى ، عن الأولياء فنتكلم أولا عن مدى شيوع عادة تقديس الأولياء ، ثم نتحدث عن من هم الأولياء ، ثم عن أهداف الإستعانة بالأولياء ، ثم عن كراماتهم ، وأخيرا عن مصير عادة تقديسهم .

(١) مدى شيوع الإعتقاد فى الأولياء :
يكثر الأولياء فى قرى البلاد العربية كثرة بالغة . فلا تكاد توجد قرية إلا ويوجد فيها عدد قل أو كثر من الأولياء .

ففى مصر تبجيل بعض الأولياء والولايا يمتد عبر البلد جميعها وقد أصبح تقديسهم جزءا لا يتجزء من الديانة الشعبية العامة . وإلى جانب الشخصيات العظيمة هناك أولياء محليون عديدون ، ولو أنهم يجتذبون عادة تابعين من خارج قراهم (بلاكمان ، ص ٢٠٥) .

وفى تونس (المرزوقى ، ص ١٦١) تمتلىء أرض الجنوب بقبابهم وأضرحتهم وزواياهم ، فلا تكاد تدخل قرية حتى تظهر لك قباب أضرحتهم صغيرة وكبيرة إلى جانب علامات تتمثل فى دوائر وفى زوايا وأركان تجمعت فيها قناديل من الفخار ، وكلها ترشد إلى أماكن تيمنت بحلول أولياء صالحين وصالحات ، ودراويش ومعاتيه ومجاذيب ، فى يوم من الأيام وبقيت مزارا للسذج من السكان .

ولا يقتصر الأولياء على العرب المتوطنين فللبدو أيضا أولياء كثيرون.

فللبدو فى سيناء (شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٥٢) قبور اولياء يعدون بالعشرات يحترمونهم الإحترام الدينى ويحلفون بهم وينذرون لهم النذور .

(٢) من هم الأولياء :
ليست للولى صفات خاصة أو شروط معينة . فإذا بحثنا عن أصول الأولياء وجدنا أنها أصول متعددة متنوعة . فالولى قد يكون جدا للعشيرة أو القبيلة ، وقد يكون بطلا أسطوريا أو شهيدا ، وقد يكون رجلا صالحا أو زاهدا ، وقد يكون رجلا ذا خلقة شاذة أو معتوها . وقد يكون الولى رجلا وقد يكون إمرأة . وقد يكون مجرد وهم أو خيال لا حقيقة له .

يقول سلمان (ص ٢٠٢) عن قبائل شرق الأردن :

" ربما أقام أهل البادية مزارا لأحد الأبطال والشيوخ الذين عاشوا بالبر والصلاح . فمن الصفات المطلوبة أن يكونوا أرباب كرم وأبطالا فى الحروب

يقودون الغزوات ويجمعون الفرسان ويخوضون ميدان الوغى ، فإينما وقعو أحيوا لهم ذكرا وأقاموا لهم مزارا وغدوا مثالا لأرباب المضارب ... وربما كان الولي خيالا نتج فى المخيلة فجسمته ومثلته لعالم الوجود والحدثان " .

ويقول المرزوقى (ص ١٦١) عن بدو جنوب تونس أن أهل الصلاح عندهم كل من رابط للعبادة ، أو أصيب فى عقله فأصبح من الدراويش ، أو فى بدنه فأصبح كسيحا أو مشوه الخلق كل هؤلاء أولياء صالحون تستمد بركتهم ويخشاهم الناس ، ويتشاءمون بأذيتهم ويتيمنون بأقوالهم وحركاتهم وإشارتهم وهذه العقيدة جعلت عدد الأولياء يعظم ويتضخم .

ويقول اليافعى (حـ ، ص ١١٩) عن أولياء حضرموت :

" ولقد ابتنى بعض العلويين قبابا كثيرة لبعض موتاهم رحمهم الله ، ووضعوا على أجداثهم التوابيت ، ودعوا الناس لزيارتها ، والتبرك بها ، والتوسل إليها لقضاء الحاجات ، وإستنزال البركات " .

وفى قرى صعيد مصر من مؤهلات الرجل للإعتراف له بهذه المكانة الرفيعة إضطراب قواه العقلية ، لأن الأشخاص المحرومين من الإدراك يعتبرون أحباب الله . (بلاكمان ، ص ٢١١) .

ويتحدث احد الباحثين المصريين عن الأولياء فى مصر فيقول :

" وكل شاذ ناقص الخلقة ولى من أولياء الله ، تستجاب دعوته وتلتمس فيه البركة ، وكل ميت فيهم له سر باتع . وقد يكون بعض هؤلاء مجانين أو مجاذيب . فهم يعللون جنونهم أو إنجذابهم أو إتيانهم الأعمال الشاذة بإتصالهم بالله وملائكته " . (أمين ، قاموس العادات ، ص ١٨٩) .

والولى قد يكون شخصا على قيد الحياة وقد يكون شخصا توفاه الله . والإعتقاد الشائع أن قدرات الولى تزداد بعد موته . فالولى وهو ميت أقوى وأفعل مما كان عليه وهو على قيد الحياة .

وليس شرطا أن يكون الولى رجلا ، فقد تكتسب المرأة هذه الصفة ، سواء أثناء حياتها أم بعد مماتها . وإن كان الأغلب فى الأولياء أن يكونوا من الرجال .

(٣) لماذا يلجأ القبليون إلى الأولياء :

يستعين القبليون بالأولياء لتحقيق غايات لا حصر لها ، ومن الممكن تلخيص هذه الغايات فى أنها تهدف إلى تحقيق منفعة أو دفع مضرة .

يشرح المرزوقى (ص ١٦٤) أسباب زيارة الناس للأولياء فى تونس فيقول :

" ويزور الناس تلك الأضرحة والأماكن المقدسة بمناسبة وغير مناسبة إستجلابا للبركة ، فهذا يطلب أن ينتقم له الولى ممن ظلمه ، وهذه تطلب أن يشفى ولدها من مرضه ، وتلك ترغب إرجاع الغائب عنها ، وحتى الحيوان الضال يطلبون من الولى الصالح أن يتولى رعايته ، وأن يرجعه إليهم أو يدلهم عليه " .

ويقول أحد الرحالة الغربيين (فورد فى موسى ، ص ١١٥) عن عادات العرب فى شرق الأردن وفلسطين بالنسبة للأولياء :

" وتؤلف زيارة من زيارات الأولياء جانبا مهما من حياة الناس ويمكن للمرء أن يضع عند المزار ما يشاء من متاع فلا يمسه أحد . ولذلك إعتدنا أن نشاهد أكياس القمح وشقق بيوت الشعر والمحاريث حول هذه المزارات . . . وترى النساء العواقر يزرن أضرحة الأولياء لعل الله يمنحهن أرلادا ، كما يقسم الناس الأيمان عند تلك المزارات ، تأكيدا للوفاء بما أقسموا عليه "

ويقول اليافعى (حـ ٢ ، ص ١٢٠) فى بيان بعض الأغراض التى من أجلها يستعين أهل حضرموت بالأولياء :

" ويقسم كثير من الناس بالأضرحة ويخافونها إذا حنثوا فى أيمانهم أكثر مما يخافون الله ، فقد يطلب المشتكى من خصمه أن يقسم على ضريح مقدس

خيرا من أن يقسم بالله أو بالقرآن ، ويعتقدون أن لتلك الأضرحة قوة الأنتقام إذا كان المقسم حانثا ....

وفى زعمهم أنه إذا أراد الشخص أن يأتيه كساء من أبيه أو من أحد أقربائه المهاجر فى " جاوه " أو فى غيرها ، فما عليه إلا أن يذهب إلى إحدى القباب ، ويقطع جزءا صغيرا من ثوبه ، ويرطبه باللعاب ، ويقذف به إلى الحائط ، ولا تمضى سنة إلا وقد نال مطلوبه ، ولذلك تظهر الحيطان فى بعض القباب كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان " .

وفى قرى صعيد مصر تزور النساء العواقر أحيانا قبر الولى حيث يطلبن إلى الميت أن يتدخل من أجلهن وينذرن تقديم قربان على سبيل العرفان بالجميل فى حالة الإستجابة لطلبهن . كذلك قد يذهب لزيارة الضريح مريض يريد الشفاء من مرض إشتهر الولى بالسيطرة عليه ، أو شخص تلبسه عفريت يرجو من الولى أن يخلصه منه . (بلاكمان ، ص ٢٠٩) .

(٤) تقديم القرابين والنذور للأولياء :

لكى يستجيب الولى لرغبة من يلوذ به ويطلب عونه ومساعدته ، لابد لطالب العون أو المساعدة أن يقدم للولى قربانا أو على الأقل ينذر له نذرا إن إستجاب لطلبه وحقق له رغبته . وتتخذ القرابين والنذور صورا وأشكالا عدة . فقد تتمثل فى رأس من الحيوانات الكبيرة أو الصغيرة وقد تتمثل فى نقود أو بخور أو شموع أو غير ذلك من الأشياء .

ففى حضرموت قد يوجد فى قبة الضريح خزانة (تيحة) فى داخلها إناءان : أحدهما للنقود والآخر للزيت الذى يقدمه المريض لطلب الشفاء " (اليافعى ، حـ ٢ ، ص ١١٩) .

وفى شرق الأردن يطوف الرعيان حول المزار فى أوقات الأوبئة ، ويختارون خير النعاج ، ويصعدونها إلى سطح المقام ، وينحرونها فيسيل دمها على عتبته : (سلمان ، ص ٢٠٦) .

وفى قرى صعيد مصر من القرابين التى يشيع تقديمها إلى الأولياء الشموع ، وفى بعض الأحيان تقدم نقود . وفى أضرحة بعض المشايخ يسطع ضوء الشموع فى كل الليالى وفى أضرحة أخرى لا توقد الشموع إلا لمدة إثنتى عشرة ساعة كل أسبوع ، فى العادة أيام الجمع . ومن ناحية أخرى هناك مجموعات من النذور كثيرا ما ترى متدلية من حبل أو عدة حبال ممدودة داخل المبنى : أساور من الزجاج أو اللؤلؤ ، خصلات من الشعر ، مناديل ، بواكير حقول القمح . (بلاكمان ، ص ٢٠٩)

(٥) كرامات الأولياء :

يعتقد القبليون العرب إعتقادا جازما فى قدرة الأولياء على تحقيق رغباتهم . فهم ينسبون إلى الأولياء قدرات تتجاوز حدود القدرة البشرية وتقترب من الخوارق والمعجزات . ويقص القبليون العرب الكثير من القصص التى يستدلون بها على قدرة الأولياء الفائقة ونستعرض فيما يلى بعضا من هذه الأقاصيص .

يقول المرزوقى (ص ١٦٢) عن بدو جنوب تونس :

وإذا ذكرت أحدهم فى محمع القرية أو نادى القبيلة ، قصوا عليك عشرات القصص عن كرامات ذلك الولى أو الولية ، وعشرات الوقائع التى تتحدث عن ذلك الذى أجفل جمله فهرب منه ــ بما فوق ظهره من طعام وشراب ــ فى صحراء مجدبة خالية فنادى باسم ذلك الولى ونذر له نذرا ، إن قيد له جمله الهارب ، وبعد لحظات وجد جمله مقيدا بحبل أو مربوطا برسنه فى إحدى الأشجار .

وعن ذلك الذى ظلمه ظالم فجحد حقه ، أو إعتدى عليه ، فنادى جده الولى الصالح لينتقم له من ظالمه فلا يلبث الظالم أن يصرخ من الأ لم ويدرك المستغيث أن جده قد حضر له وانتقم من ظالمه ، أو أجبره على رد المظلمة والإعتذار إليه .

وعن ذلك الذى ضل عن الطريق فاستنجد بأحد الأولياء فجاءه ذلك الولى فى صورة رجل عادى فدله على الطريق ثم إختفى " .

ويسرد سلمان (ص ٢٠٥) إحدى كرامات النبى هوشع فى شرق فلسطين على لسان قيم المزار فيقول :

" آتانى شيخ من بنى صخر بابنة له يابسة الفك فقلت لأبيها : هى معتراة من الشيطان فأدخلتها المزار فسقطت على الأرض من شدة الألم ، وكانت تصيح صياحا يشق الصخور فعلمت أن إبليس الرجيم لا يخرج إلا بالإهانة والمذلة ، فضربتها على فكها بحذائى ثلاث دفعات . فكانت تشعر باضمحلال المرض شيئا فشيئا ، إلى أن نالت تمام البرء والشفاء . ودهنتها بزيت النبى فلم يعد إليها المرض " .

وبين قرية " لب " " وماعن " مزار شهيد يدعى " حريثين " وهو مكرم عند عرب الحمايدة . فاجتازبه خليل الضباع من قرية " مادبا " فرأى أخشابا تصلح لبناء بيته فحمل تلك الأعواد على دابته وقال : غنيمة باردة ومكسب من الله . فلما بنى بيته وذبح الذبيحة المعهودة ، ذبيحة البيت ، هبط برمته على الفعلة . فصرخ الحاضرون : من الولى حريثين ! من الولى حريثين !

ويبدى صاحب المزار سلطته حيثما يدعوه أحد عبيده الصالحين لينتقم من خصم أقوى منه بأسا وأشد بطشا . كنا فى مسيل الزرقاء وإذا ببدوى يروى لصاحبه أن عدوه قد مات شر ميتة . قال : وكيف ذلك . قال : استعنت عليه بولى الله عبدالله فاهلكه من حيث لا يدرى . وإنى أسعى لأسرق شاة لأقدمها نذر شكر ووفاء .

وروت رحالة أوربية (ستارك ، ص ١٠٦) قامت برحلة في حضرموت أن أحد مرافقيها قال لها أنه يعرف وليا تظل قبره شجرة علب ، وإذا أنت كسرت غصنا من أغصان هذه الشجرة من باب المزاح أو لكى تتخذى منه عصا فسوف تموت غنمك ، أو سوف تجرحين نفسك وأنت تحاولين قطعه ، أما إذا أخذت الأوراق على سبيل العلاج فسوف تشفيك " .

وفى منطقة تعز باليمن ينسب أهل الريف لأحد الأولياء المشهورين وهو " ابن علوان " القيام بخوارق ومعجزات . فقد أصبح بعد موته بسنة أعذب موارد الملهوفين . لأنه يوزع الرزق وشفاء المرضى من قبره على حسب كفاءة القاصدين وطلبهم ، وترجع الكفاءات عنده على حسب الإستعداد الفطرى لكل منطقة ، فبعض المناطق يقلدهم مهنة (الجدابة) فعندما يقبلون إلى قبره يمد لكل واحد طبيلة وحربة ، ومن هذا التوظيف تكونت فرق (المجاذيب) وعرفتهم المناطق بأسماء خدمة ابن علوان بطبيلاتهم وحرابهم وترانيمهم . وفريق يعطى لكل واحد منهم مسبحة فيعرف أنه سيحترف (مقذى) وبحركات حبات المسبحة وتلاوة أوراد علوانية يستخرج ما فى بطن الإنسان أو الحيوان من أسباب المرض ، كما يستخرج من جدران البيوت الحيات والثعابين المختبئة ، كما يوظف ابن علوان الفريق الثالث منصب جمع الجن وتفريقهم ، فعندما يزور قبره فريق من القارئين يمد إليهم من نوافذ قفص قبره بكتب يتعلمون من رموزها وألوان خطوطها كيف يجمعون الجان وكيف يفرقونها . أما النساء فيتمسحن بضريح ابن علوان التماسا لزوال العقم أو لتسهيل الولادة ، أو لسلامة الأولاد من العيون الحاسدة ، أو لإمتلاك قلب المحبوب سواء كان زوجا أو حبيبا . وتطورت هذه الزيارات لحل كل المشاكل حتى أصبح كالمعبود وكالمخلص من كل مكروه؛ (البردونى ، فنون الأدب الشعبى فى اليمن ، ص ٧٦ ، ٧٧) .

وللإمام العباس ، فى إعتقاد سكان الشرش (فى جنوب العراق) قوة بطش (يشور) ينزلها بحق من يقسم بروحه كذبا . فلو (صيحت) امرأة

نشأ أحمد ابن علوان فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى .

رجلا وادعت بأن له علاقة معها فيستطيع الرجل أن يتخلص من التهمة الموجهة إليه بأن يقسم بروح (العباس) . إذ يعتقد السكان بأنه إذا أدى اليمين كذبا ، فهو إما أن يصاب بالعمى أو يقتل فى حادث معين ، أو يتقيأ دما . ومن يتهم شخصا بتهمة معينة يذهب به إلى مرقد الإمام(العباس) . ويدخل المتهم المطلوب منه آداء اليمين فى ضريح (العباس) . . . . ويلاحظ أن السكان فى (الشرش) يخافون آداء اليمين بروح (العباس) أكثر من خوفهم عندما يقسمون بـ (القرآن) . ويعزى ذلك إلى أن الرب غفور ويسامح عباده أما (العباس) فشديد الغضب (رأسه حار) : (سلمان،عيد على ، ص ١٢٣) .

ويروى أهل قرية ترمسعيا بفلسطين كثيرا من القصص التى يعتقدون أنها حدثت مع أناس من أهل القرية وتدل كلها على شفاعة هؤلاء الأولياء ومنزلتهم العالية عند الله . ومن هذه القصص :

" أن أحد الأشخاص وضع محراثه بداخل مقام الشيخ محمد الذى يقع فى إحدى الخرائب القريبة من القرية وعندما عاد فى الصباح ليأخذ محراثه وجده مسروقا ، فقال " يا أبو الحراذين والله لأشخ فيك إن ما رجع ها لعود (المحراث) ، ولما عاد فى اليوم الثالث وجد المحراث فى داخل المقام . ويروى أهل القرية على لسان سارق المحراث أن شيخا يلبس اللباس الأبيض قد جاء عليه وهو نائم وبدأ يخنقه مهددا إياه بالموت إن لم يرجع المحراث إلى سكانه ، فأعاد السارق المحراث إلى مكانه داخل المقام " .

كما يحدثون أن أحد الأشخاص من القرية قد حلف يمين زور فى الشيخ حاتم (جوريش) ولما رجع ونام ووضع " الطبنجة " تحت رأسه ثارت به وقتلته . (دراسة ، ص ١٦٠) .

وتقوم النساء فى قرية ترمسعيا بالتحويط حول نفسها وأولادها عند النوم ، خاصة فى الخلاء . حتى لا تقوم الأفاعى والعقارب بلسعهم . وتقول :

" محوطين فى الرفاعى من كل شىء ساعى ، محوطين بالزغبى من كل شىء يحبى ، محوطين بالشيخ مرزوق من كل شىء فى الخزوق " .

وفى قرى صعيد مصر يعتقدون فى قدرة الأولياء على إتيان أعمال خارقة ولهذا يلجأوون إليهم ، أحياءا وأمواتا ، بهدف معاونتهم على التوصل إلى حقيقة الأمر بالنسبة لشأن من الشئون . كما يعتقدون أن بوسع الولى أن يلحق أذى فوريا بكل من يحط من شأنه أو يستهين بأمره .

ففى أحد أقاليم الصعيد كانت تعيش فى أوائل العشرينات من القرن الحالى شيخة تسمى " صلوح " وكانت شهرتها تعلن عن مدى تبجيلها . وعندما كانت تحل بالناس ظروف صعبة كانوا يأتون إليها أفواجا من كل حدب وصوب . وبسبب بقائها معرضة للشمس صار لونها أسمر داكنا ، وعلى رأسها الذى لم يكن يغطيه أى منديل ، شعر غزير وطويل أشبه بذيل الشاه ، وتحت حاجبيها تتفجر نظرة حادة من عينيها السوداوين . وكانت ترتدى أقل قدر من الثياب : أسمالا بالية من التيل ونوع عباءة . وكانت تعيش كل أيامها وحيدة فى تلك الصحراء . وبالليل كانت تنام منعزلة فى الجبل . فى إحدى المغارات الطبيعية أو المحفورة .

وفى أحد الأيام جاء عدد كبير من القرويين من الجنسين لإستشارتها . وكان بينهم رجل طلب إليها أن تدله على مصير أفضل جماله الذى فقد منه . وفى الحال أخبرته الشيخة فى أية ساعة محددة حدث فيها إختفاؤه ، وأضافت أن الأمر يتعلق بسرقة ، وأن السارق هو أحد أبناء الرجل وأن السارق باع الجمل لرجل يسكن القرية الفلانية فى نفس الجهة . وذكرت اسم هذا المشترى الذى يمكن للمالك إسترداد ماله منه وقيل أن هذه المعلومات ثبتت صحتها وأن الرجل تمكن فعلا من إسترداد جمله المفقود (بلاكمان ، ص ٢١٣) .

وفى أثناء مولد الشيخ عبداللطيف شرع رجل فى الصعود نحو القبة دون أن يخلع نعليه . ولاسه بعض الذين كانوا على مقربة منه على قلة

إحترامه ، لكنه أجابهم : " الشيخ عبداللطيف ؟ من هو الشيخ عبداللطيف ؟ لا قيمة له " . وأصر على الإحتفاظ بنعليه . وعندما أراد النزول والإنضمام إلى مرتادى المولد ، فقد القدرة على الحركة ، وكلما حاول إزدادت ساقاه تيبسا ، وانتهى الأمر بإصابة جسمه كله بالشلل . وعندما شاهد الحاضرون هذه المصيبة ، إرتفعت فى الحال أدعية بصوت عال موجهة إلى الشيخ . وشرع بعضهم فى ضرب الطبول الكبيرة والصغيرة ، وشرع آخرون فى الغناء والتصفيق بأيديهم تبعا لنغمة الموسيقى . وأخيرا بعد أن إستمرت هذه الإبتهالات الصاخبة قرابة ساعتين ، إستعاد المشلول قدرته على الحركة ، وتمكن من ترك المكان . (بلاكمان ، ص ٢١٢) .

(٦) زيارة ضريح الولى :

تجرى العادة بأن يزور صاحب الحاجة ضريح الولى الذى يستعين به فى تحقيق الغاية التى يسعى لها . وهناك يتوسل إلى الولى أن يعينه فى الوصول إلى مأربه . وقد تنطوى إجراءات التوسل إلى الولى على بعض المظاهر ذات الطابع الوثنى .

فلدى بدو جنوب تونس (المرزوقى ، ص ١٦٤) يقبل كثير من الزوار أركان (تابوت) الضريح الأربعة . وتحمل بعض النساء معهاصرة من تراب الضريح ، تحملها هى أو تعلقها فى رقبة ولدها العزيز عليها حتى يكون فى حماية ذلك الولى .

ولدى قبائل حضرموت (اليافعى ، حـ ٢ ، ص ١١٩) قد يبالغ بعض المرضى فى الضلال ، فيأكلون قليلا من تراب ذلك القبر لطلب الشفاء .

وذكر أحد الرحالة الإنجليز (تيسيغر ، ص ٢١٠) أنهم مروا ، بعد مغادرتهم الريضات بقبر إمرأة قديسة تدعى " الولية رقية " . وكان هذا الضريح مزارا تبلغ حدوده مئة ياردة ، مؤلفا من اكوام من الحجارة المطلية باللون الأبيض . وبمجرد أن رآه رفيقاه فى الرحلة ، سالم وأحمد ، طافا حوله وقبلا يدهما اليمنى بعد لمس الأحجار الثلاثة المنتصبة ، ثم فركا التراب على

جبهتيهما . وفى قرية ترمسعيا عندما تذهب المرأة إلى،ضريح أحد الأولياء ، تقف بداخله أو بالقرب منه ، وتكشف عن ثديها وتقول " أنا متقبل قبلتى وربى يسمع كلمتى ، دخيلك يا سيدى ياعجمى تحصل حقى من فلان " ، أو تقول " يا ربى تضر فلان أو فلانة بكذا أو كذا . . . . إلخ . (دراسة ص ١٦٠) .

(٧) وصف الضريح :

يتخذ الضريح شكلا يختلف بإحتلاف أهمية صاحبه . فالأولياء الذين يحتلون مكانا عاليا لدى أبناء المنطقة ، والذين يكثر أتباعهم ومريدوهم تتسم أضرحتهم بشىء من الثراء ، بينما تكون أضرحة الأولياء المغمورين على قدر كبير من التواضع .

وقد نقل إلينا بعض الرحالة وصفا للأضرحة التى شاهدوها .

فوصف دير مويلن ورفيقه فى الرحلة إلى حضرموت (ص ١٦٠) قبر النبى هود الذى يحتل لدى الحضارمة مكانة لا تدانيها مكانة أى ضريح آخر ، بقولهما :

إقتربنا من الضريح بهدوء ودونما ضجة . ولم يحل أحد دون دخولنا ، ولهذا غامرنا بالدخول فيه . ولحسن الحظ لم نجد أحدا فى الداخل أيضا . وفى الأسفل ، فى مسجد الناقة هناك عدد قليل من الحجاج ، وإذا كان هناك حراس للمبانى فلابد أنهم كانوا معهم يعلمونهم كيفية تلاوة الأدعية الخاصة . وكان صوت الأوراد التى كانت تقال بصورة جماعية يصعد إلينا ، وكانت تكرر بإصرار ممل و تعجل متزايد ، وفى قبة النبى هود رأينا فى الوسط قطعة من البناء مستديرة الشكل أشبه بقاعدة عمود ضخم . وهو مبنى على الجزء الناتىء من الصخرة ، الذى يوجد به هنا شق متسع عميق . وهذا هو المكان الذى إنشقت فيه الصخرة ، بأمر الله ، لكى يدخل فيها خادمه والتى لم تتغلق ثانية بصورة كاملة . وكانت الصخرة ، وبخاصة حواف

الشق ، ناعمة لامعة بسبب آلاف الأيدى التى ربتت عليها بلطف أثناء الدعاء والشفاه التى قبلت هذه البقعة المقدسة .

ويصف سلمان (ص ٢٠٥) ضريح النبى هوشع فى شرق الأردن وهو من الأولياء ذوى المكانة الرفيعة فى نفوس أبناء المنطقة قائلا :

" والمقام هو بناء مستطيل طوله من الشرق إلى الغرب عشرة أذرع ومن الشمال إلى الجنوب خمسة فإذا ولجت من الباب المتجه نحو الشمال أخذتك الرهبة إذ تعاين قبر أحد الجبابرة العظام وقد يبلغ طوله خمسة أذرع ونيفا . وهو مفروش بالسجاد مما جادت به نفوس الزائرين . وعلى قبره نسيج أخضر مطرز بالذهب . هناك تشاهد القرآن فوق الرأس . هناك مصابيح الزيت والسمن . وهناك قطع خزف مختلفة الألوان ما بين حمراء وبيضاء وصفراء وزرقاء سعلقة على الحائط "

ويقول شقير (حـ ٢ ، ص ٣٠٢) عن بدو سيناء أنهم :

" ما زالوا كلما مات لهم شيخ يعتقدون صلاحه ، بنوا له ضريحا وبنوا فوق الضريح قبة أو مقاما ، وجعلوا للضريح قفصا من الخشب مجللا بنسيج قطنى ملون ، وجعلوا للقفص رأسا معمما ، أو تركوا الضريح عطلا من البناء والقفص " .

ووصفت باحثة إنجليزية (بلاكمان ، ص ٢٠٩) ضريح ولى بأحد أقاليم الصعيد بقولها وعند أول إنحدار للصحراء توجد مقبرة الشيخ " حسن على " تعلوها قبة ، ويحوطها حائط صغير من اللبن . وتوجد فى هذه الحوطة بعض الشجيرات ، وبئر ، وقبور لعضوين أو ثلاثة من أسرة الشيخ . وتزين الأرضية شوالى مزروعة بنبات الصبار ، إذ يعتقد أن هذا النبات يأتى بالسعادة إلى الموتى . والمبنى نفسه ، المدهون باللون الأبيض ، مزخرف برسومات طولية حمراء وبيضاء تحمل ذكرى الحج إلى مكة .

(٨) مصير تقديس الأولياء :

تقديس الأولياء ، كما سبق أن رأينا ، عادة شائعة لدى العرب شيوعا عظيما . وهي أيضا من أكثر العادات تعصيا على الزوال والإختفاء . فكثير من العادات القبلية قد إختفى تحت وطأة ظروف الحياة الحديثة ، غير أن كل الشواهد تدل على أن تقديس الأولياء سوف يعمر طويلا . فتقديس الأولياء في وقتنا الحاضر ليس مقصورا على الجهات القبلية بل تجده أيضا فى المدن بل حتى فى كبرى العواصم العربية وتقديس الأولياء لدى العرب ليس مقصورا على القبليين أو غير المتعلمين بل نجده لدى كثير من المتعلمين بل من ذوى المراكز والمناصب الكبيرة .

فالقبليون يلتصقون بعادتهم القديمة إلتصاقا شديدا ويرفضون كل تشكيك فى إعتقادهم الموروث .

يصف المرزوقى (ص ١٦٢) موقف بدو جنوب تونس ممن يشكك فى كرامات الأولياء فيقول :

" وياويل من يشك فى كرامات أولئك الأولياء ، أو يصرح بعدم إيمانه بما يقصون عليه ، فإنه يصبح عرضة للتوبيخ وينفض الناس من حوله ويتهم بالكفر والإلحاد فى الدين .... وإذا حاولت أن تقنعهم بأن لا تأثير إلا لله ، وأن الولى الصالح نفسه تحت حكم الله ولطفه ، أجابوك بأن الولى مقبول عند الله ، وأن الله يغضب لغضبه ، ولا يرد له طلبا طلبه ، وأنه لا حجاب بينه وبين ربه وأن الدعاء فى ضريحه مستجاب " .

ولازال الإعتقاد فى كرامات الأولياء سائدا حتى فى البيئات المدنية التى تخلت عن الحياة القبلية منذ عهد بعيد. بل مازال الإعتقاد فيها سائدا لدى كثير من المتعلمين الذين حصلوا على أعلى الشهادات والذين يشغلون أعلى المناصب .

من ذلك مثلا ما جاء فى تحقيق صحفى تحت عنوان " على بركة

السيدة نفيسة " منشور بمجلة نصف الدنيا التى تصدر عن مؤسسة الأهرام (فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٣/٧/٤) : وما زال المصريون حتى الآن يؤمنون بكرامات السيدة نفيسة ... ويروى خدام مسجدها قصصا مؤثرة لأناس لجأووا إليها فى مظلمة أو طلب أو سؤال .. فما ردتهم إلا وهم مجبوروالخاطر . وأكثر مريدى السيدة نفيسة من المشاهير والوزراء وسمعت فى المسجد عن وزير كان لا يتخذ قرارا أو يقطع أمرا قبل أن يأتى إلى المسجد ويجلس بجوار المقام بالساعات "

ومع ذلك فقد إنحسر تقديس الأولياء عن منطقة واسعة من بلاد العرب وهى المنطقة التى قامت بها الآن المملكة العربية السعودية . فقد كانت الدعوى الإصلاحية التى بدأها الإمام محمد بن عبدالوهاب فى أواخر القرن الثامن عشر تقوم على التوحيد المطلق ، وترى فى تقديس الأولياء نوعا من الشرك بالله . ولهذا عمدت منذ قيامها إلى محاربة هذه العادة ، وإلى هدم أضرحة الأولياء فى كل المناطق التى خضعت لسيطرتها . والآن ، بعد أن قامت المملكة العربية السعودية ، على أساس دعوة التوحيد المطلق التى نادى بها محمد بن عبدالوهاب ، لم يعد فى هذه المملكة لتقديس الأولياء أثر بعد أن تم القضاء على هذه العادة القبلية الموغلة فى القدم قضاءا تاما .

فلدى قبيلة الفقراء ، فى شمال الحجاز ، لا نجد عادة تقديس الأولياء المنتشرة للغاية بين عرب سؤاب . فهم يؤكدون أنهم لا يبجلون أى قبر أو أى مزار . وهم لا يعرفون حتى " الخضر " الذى يلعب دورا بالغ الأهمية فى حياة أنصاف البدو فى البلقاء ولدى فلاحى فلسطين ، فهم لا يتوجهون إلا لله . ومن السهل ملاحظة أن لهم مفهوما آخر للعلاقات بين الإنسان وعالم ما وراء الطبيعة . فهم قد إحتفظوا بعقيدة الإسلام الأولى فى حالة أسلم وأنقى . . . وهم لا يعرفون أشجارا مقدسة ولا أحجارا منصوبة . وعندما يأتى الفقراء إلى " كيرك " لا يزورون الأضرحة المشهورة للغاية فى هذه المدينة ولا ضريح " جعفر " فى ' الموته " . وهم يقولون : " نحن لا نعرفهم ، إنهم يخصون قبائل الشمال " : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٦٤) .

الفصل الثامن

الجن والغيلان

نتحدث أولا عن الجن ثم عن الغيلان

المبحث الأول

الجن

يسود في المجتمعات القبليــة بصفـة عامـة الإعتقـاد فـي وجـود كائنـات خفية ، يمكنها أن تتجسد في صور وأشكال متباينـة ، ويمكنهـا الإتيـان بأفعـال تخرج عن سنن الكون العادية ، فهي أشبه بالخوارق والمعجزات ، وهـي قد تسالم البشـر فـلا تتعرض لهم بـأذى ، وقد تعـاديهم فتلحق بهم صنوفـا مـن العذاب والبلاء . ومع ذلك يشيع الإعتقاد أيضا في أنه مـن الممكـن إسترضـاء هذه الكائنات أو عند الإقتضاء الوقاية من مخاطرها أو التخلص من أذاها .

وكما هو الحال في المجتمعات القبلية بصفة عامة ، يشيع لـدى القبـائل العربية الإعتقاد في وجود هذه الكائنات وهي ما يطلق عليه أسم الجن .

فـأهل الباديـة فـي شرق الأردن مثـلا يعتقدون أن الجـن روح خفـي ، يظهـر مـرارا بصـور مرعبـة وأشكال مختلفـة ، يتمثـل للعيـان بهيئــة انســان أو حيوان أو جماد . ويدعون أن الأرواح تنتقل في أمـاكن عديـدة فتطـير مـن أطلال إلى أطلال ومن مروج إلى مروج لإرهاب البشر .

ويعتقد القبليون أن للجن أماكن خاصة تفضل الإقامة فيها كما يعتقـدون في أنها تتمتع بقوى خارقة ، ويمكنها الإتيان بأفعال لا تخضع لنواميس الحيـاة العادية ، كما يمكنها أن تتشكل بأشكال وصور لاحصر لها ويمكنهـا أن تلحـق بالبشر ألوانا من الأذى وصنوفا من العذاب . وفي مقابل ذلـك يسـود الإعتقـاد في وجود وسائل للوقاية من أذاها ، أو للتخلص من الأذى عند وقوعه .

وسوف نتحدث فيما يلى أولا عن أماكن تواجد الجن ، والصور والأشكال التى قد تتخذها والأفعال التى قد تأتيها ووسائل الوقاية من ضررها أو العلاج منه .

أولا ـ أماكن تواجد الجن :

يسود الإعتقاد لدى القبليين العرب أن الجن يتواجد فى الأماكن الخربة بصفة خاصة أو الأماكن التى تتسم بطابع غير عادى أو غير مألوف .

فلدى قبائل شرق الأردن يسود الإعتقاد فى أن الأرواح تقطن الهواء دهرا طويلا ثم تعود فتتخذ الأرض موطنا لها للإضرار بالبشر . وتختار الأراضى الخربة والأطلال البالية ، وسيول المياه والأشجار العالية ، والمروج الخضراء والمغاور الواسعة (سلمان ، ص ١٧٧) .

ويعتقد أهل القرى من صعيد مصر أن العفاريت ، وهى مرادفة للجن ، تعيش تحت الأرض وهى تشكل هناك مجتمعا منظما على رأسه ملك . ويعتقدون أنها تسكن الينابيع والآبار فى الجهات غير المأهولة ، مثل الصحراء ، والممرات الضيقة التى تفصل بين الحقول . كما تسكن جهات أخرى ، بل تسكن بعض أجزاء من الطرق الكبيرة . (بلاكمان ، ص ١٩٤) .

ولدى بدو جنوب تونس يسود الإعتقاد فى أن أغلب مساكن الجن هى الأماكن الخالية ، والخرب ، والفيافى الموحشة ، والأودية والأدغال ، والآكام ، حتى أن مساكن بعضهم معروفة تزار ويخشاها الناس .

وفى المغرب يشيع الإعتقاد فى الجن . ويعتقد المغاربة أن موطنهم الأصلى تحت الأرض . لكنهم غير مقيدين بمكان محدد .... وقد تسكن الجن كثيرا من الحيوانات ، وكذلك الأشجار والمواقع . فكثير من المغارات والينابيع يشكل مساكن معروفة جيدا للجن . وكل ماء توجد فيه هذه الأرواح قلت أم كثرت . وهى تزور أيضا النار والمأوى ، فإذا رقد شخص ورأسه قريبة من النار فهو يجتذب ضربات الجن . وثمة مكان أخر مسكون فى

البيت وهو العتبة . فلا يسمح لأحد بالجلوس عليها ، خوفا من أن يصيبه أو يصاب أحد السكان الآخرين بأذى ، والعروس تحمل فوق عتبة الباب . ويعتقد أن العتبة يعبرها فى الإتجاهين أولئك الذين يسمون " أسياد البيت " فكل بيت ، بل كل موقع له ملاكه من الجن ، وإذا حكم الجن على السكان بأنهم طيبون ، فسوف يزدهرون ، وإذا رأوا فيهم أشرارا فسوف تلحق بهم كل صنوف الشقاء وسوف لا يطول أنتظارهم للموت . وبعض المنازل مسكونه لدرجة أن أحدا لن يخاطر بالإقامة فيها (وسترمارك ، ص ١٤) .

ثانيا ـ تشكل الجن فى هيئات مختلفة :

يسود الإعتقاد لدى القبليين العرب أن بوسع الجن أن يتشكل على النحو الذى يريد سواء فى صورة إنسان أو حيوان أو نبات .

ففى اليمن يعتقد القبليون أن لبعض الجن خاصية التشكل بالصور التى تريدها مثل صور القطط والثعابين والضفادع ، وغيرها وأنها تستطيع القيام بأعمال يحار العقل فى تفسيرها (لقمان ، ص ٢٩٢) .

وفى جنوب تونس يعتقد البدو أن الجن كالإنسان يتزوجون ويلدون ، ولهم مكاسب من الحيوان يتنقلون عليها ، وينصبون خيامهم فى الصحراء كالبدو الرحل تماما ، ويدخلون القرى فيسكنون فى بناءات خاصة أو مع الإنس كالريفيين . ويظهرون للإنس أحيانا فى صورة بنى آدم لا تكاد تنكر منهم شيئا ، وقد يتشكلون فى صور أشخاص معينين ، والقصص كثيرة عن أشخاص وجدوا فلانا أو فلانه فى مكان ما ، وتحدثوا إليه أو إليها ، ثم تبين لهم أن المتحدث إليهم من الجن الصالحين ، ويقصدون وصفهم بالصالحين ، أنهم من المسلمين ، ومع ذلك من الأجسام الشفافة التى تتشكل فى أشكال مختلفة ، وتظهر للعين الإنسية متى شاءت ، وتذوب فى طرفة عين أنى أرادت . (المروزقى ، ص ١٧٨) .

وفى اليمن ينظر البدو إلى الدوامات الهوائية نظرة رعب وفزع ،

إذ يعتقدون أن أفراد الجن يتقمصونها . وهم يعتقدون أن الصحراء مأهولة بمختلف أرواح الموتى والشياطين والأبالسة الذين يؤلفون ملكوتا بين الموت والحياة . ويكره العربى الصفير لأنه يخشى من دعوة الأرواح . (هولفرتيز ، ص ٧٥) .

ولدى شيعة البحرين أحجار قديمة موضع تقديس حيث يفترض أن بداخلها جنا له القدرة على العودة إلى الحياة . وتقدم إليها القرابين من الطعام ليلة الثلاثاء وأحيانا أيام الخميس . ويقوم الشخص الذى يقدم القربان بالسلام دائما على الجن ، وبعد أن يتمنى لها تناول الطعام فى صحة وعافية ، يضع الطعام على الحجر . وفى الصباح يعثر على الصحن فارغا : (زويمر ، ص ٢٢٠) .

ويعتقد أهل القرى فى صعيد مصر أن بإستطاعة العفاريت أن تظهر تلقائيا ، كما يحلو لها ، لأى من كان من البشر ، أحيانا فى صورة بشرية ، لكن الأغلب فى شكل حيوان : كلب مثلا أو قط أو حمار . وعندما يمتنع حمار عن عبور مكان معين ، سواء فى الصحراء أم فى الحقول المزروعة ، يدرك من يمتطيه أن عفريتا يسد الطريق ، ويتوجب عليه ، كقاعدة عامة ، أن يضع قدمه على الأرض ، ويجبر الحيوان على عبور المكان الخطر . (بلاكمان ، ص ١٩٦) .

وفى المغرب يسود الإعتقاد فى أن الجن كثيرا ما يتخفى فى هيئة حيوانات : ماعز ، حمار ، جمل ، قط ، كلب ، سلحفاة ، ضفدعة ، ثعبان إلى غير ذلك من الحيوانات . وإذا كان أى مغربى لا يجرؤ على ضرب قطة أثناء الليل فإنما ذلك لإعتقاده بأن هذه القطة ربما أخفت كائنا من نوع آخر . ولنفس السبب يعتقد المغربى أنه من الخطر قذف كلب بحجر أثناء الليل ، لاسيما إذا شاهده قبل طلوع النهار فى ساحة السوق ، حيث يعلم الجميع أن كثيرا من الجن يجتمعون بهذه الهيئة فى تلك الساعة . وثمة حالات كثيرة يمكن فيها سماع الجن رغم عدم إمكان مشاهدتهم ، كذلك يحدث أن تدل على وجودهم بعض الظواهر الشاذة ، أو الغريبة فالإعصار الذى يثير أعمدة من

الرمل أو التراب مرجعه فى نظر الجميع إلى الجن . والنجم المنسل هو سهم يطلقه حراس يحرسون باب السماء نحو بعض الجن الذى يحاول سماع حديث الملائكة وأستراق بعض الأسرار التى سوف تعين الأشرار على ممارسة السحر . وإذا عثرت قدم أحدهم فى الظلام فليس ثمة شك فى أنه تعثر فى أحد الجن . والذى يصر أسنانه أثناء النوم قد تلبسه جن . ومن يشعر بالجوع بعد أن أكل كثيرا ، ثمة جن يسكن جسده ويبتلع جزءا من طعامه . (وسترمارك ، ص ١٢) .

ثالثا ــ أفعال الجن :

يسود لدى القبليين العرب الإعتقاد فى قدرة الجن على اتيان أفعال خارقة .

ففى صحراء جنوب الجزيرة العربية ونجد يعتقد العرب أن بعض الناس يسمعون هاتف الجن فى الصحراء والمناطق النائية وأن هذا هو هاتف الغيلان وأن من سمع الهاتف بأسمه فعليه أن يُحاول أن لا يجيب لأن للصوت قوة جاذبية تجعل الإنسان يجيب مرغما على النداء ، وأن النتيجة الحتمية لمن يجيب إما الموت أو الجنون . (لقمان ، ص ٩٢) .

ويعتقد بدو الربع الخالى أنه إذا أصيب أحدهم وغاب عن وعيه فإن الجن قد سكنت فيه أو أثرت عليه . فيتلون آيات من القرآن الكريم والدعاء . وينثرون الدقيق والبن والسكر حول المصاب ، وعندما يعود إلى وعيه يذبحون عنزة ويرشون عليه دمها . (لقمان ، ص ٩٢) .

ويعتقد بدو شرق الأردن أن الجن يطلب بثأر الجن ، ورووا أن أناسا إذا قتلوا جانا إذ يرونه فى الصحراء أو جرحوه جرحا بليغا فالقاتل أو الجارح يصيبه خبل ، وقلما ينجو من الموت عاجلا أو أجلا . (سلمان ص ١٧٥) .

ويعتقد أعراب جنوب تونس أن الجن يحمون الدماء والرماد . فيرجعون سبب جنون أحدهم أنه داس رمادا أو دما مسفوحا . ولذلك فهم

يحذرون أبناءهم من دوس أو تخطى الدماء أو الرماد . كما يحذرونهم من رمى الماء الوسخ أو السخن دون أن يصحبه ذكر (أسم الله) حتى لايصيب جنيا مارا فيرد الفعل . (المرزوقى ، ص ١٧٨) . .

ويسود الإعتقاد فى بعض الجهات أن الجن تأسر بعض الحيوانات للإفادة من لبنها ولحمها ، أو لإستخدامها كوسيلة للإنتقال .

ففى صحراء جنوب تونس توجد حيوانات وحشية معروفة يعتقد الأعراب أنها مكاسب للجن ، منها ما يكسب للبنه ولحمه ، كالغزال الذى هو (معيز الجن) ، ومنها ما يكسب للحمل كالأرانب التى هى (أحمرة الجن) . ويقصون أقاصيص غريبة لتأييد معتقداتهم . فالصياد الفلانى أراد أن يطلق الرصاص على غزالة فأنقلبت فى عينه أمرأة جميلة ، والصياد الآخر أراد أن يصيد غزالة فوجد يديه جامدتين لاتتحركان ، والصياد الثالث الذى قبض على أرنب فسمع صوت أمرأة تسأل عن أتانها التى جلبت عليها منذ لحظات قربتى ماء . فأجابها صوت أمرأة ثانية أنها عند فلان (نلك الصياد) . فمس الصياد جنبى الأرنب فوجد آثار بلل الماء بجنبيها فأطلقها . (المرزوقى ، ص ١٧٩) .

وبأستطاعة الجن أن يعاقب من يتعرض له أو يعتدى عليه بعقوبة شديدة وفى بعض الأحيان بعقوبة خارقة تخرج على نواميس الطبيعة العادية .

فلدى قبيلة الفقراء يسود الإعتقاد بأن الجن رغم أنهم ليسوا أعداء ألداء للإنسان ، فإن إيذاءهم له أكثر من نفعهم إياه . فهم يضربون دونما شفقة البدوى الذى يزعجهم أثناء راحتهم . وهم سادة بعض الأقاليم التى من الواجب عدم الإعتداء عليها . فهم يسكنون على سبيل المثال فى مقابر مدائن صالح ، وسوف يؤذون أذى شديدا كل من يبلغ به التهور حد المجازفة بالذهاب إلى هذه النواحى ليلا . (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، جـ ٥،٦ ، س ١٨ ، ص ٣٦٩) .

ومن القصص التى تروى ، لدى قبيلة الفقراء عن أنتقام الجن القصة الطريفة التالية : فيما مضى من الزمان ، كان عربى يصطاد فى مجاورات مدائن صالح . وفى قمة صخرة شاهد تيسا بريا ، فأطلق رصاصة على الحيوان وقتله . وأثناء مشاهدته الحيوان وهو يتدحرج إلى أسفل الصخرة سمع صوتا يقول : (يا أبتاه : لقد قتلوا بعير أمى) أجابه صوت أخر (اللعنة على من قتله ! إن كان رجلا فليمسخ أمرأة ، وإن كانت أمرأة فلتمسخ رجلا) . وما أن سمع هذه الأقوال الغريبة ، حتى لاحظ تغييرا شاملا فى شخصه . فلم يعد رجلا ، لقد تحول إلى أمرأة . فقام وقد جلله العار بتخبئة سلاحه تحت صخرة وارتدى ثياب أمرأة . وفر إلى قبيلة غريبة وبوصفها أمرأة تزوجت وأصبحت زوجة لبدوى ، وبعد قليل صارت أما سعيدة لعديد من الأولاد . ثم شرعت وهى بهذه الحالة تفكر : (أنا لم أكن هكذا عندما كنت صغيرة : آه لو عدت إلى حالتى الأولى ") . وتحت تأثير هذه الرغبة ، سارت المرأة فى طريقها إلى مدائن صالح وتوجهت إلى الصخرة التى قتل فوقها التيس . وها هى تشاهد أعلا الصخرة تيسا بريا آخر فأمسكت المرأة بسلاحها وأطلقت رصاصة وقتلت الحيوان . وفى نفس اللحظة سمعت نفس الصوت . وكان يقول : (يا أبتاه : لقد قتلوا بعير أمى). . فأجاب الصوت الآخر (اللعنة على الجانى ، إن كان رجلا فليمسخ أمرأة ، وإن كان أمرأة فلتمسخ رجلا) . وبمجرد النطق بهذه الكلمات ، أستعاد الصياد طبيعته كرجل . وصار كما كان قبلا . وعاد إلى خيمته . وقص بنفسه المغامرة التى وقعت له . (جوسان وسافيناك ، مجلة العربى ، جـ ٦،٥، س ٣٨، ص ٣٦٧) .

وقريب من هذه القصة ما روته باحثة انجليزية ، فى عادات ومعتقدات فلاحى صعيد مصر ، بخصوص أحدى القرى :

" حدث أن أنفعل شاب أنفعالا شديدا فى مساء يوم من الأيام ضد زوجته بينما كانت تجلس أمام البيت ، تطهو الطعام . وفى ثورته أمسك بقدرة ماء كانت على الأرض وضرب بها الزوجة ، فأنكسرت القدرة بين يديه وسقط الماء وبعض قطع من القدرة على النار وأطفأتها . وعندئذ سمع

الرجل صوتا يقول له : (لقد كسرت رأس أحد أطفالى ولذلك فسوف أدخل فيك ، أى أتلبسك ،) وعندئذ شرع الشاب البائس وهو شارد الذهن ، يلطم خديه ويخمش وجهه ، ويضرب كل من يقترب منه وعندما شاهد بعض أقارب الشاب هذا الجنون قيدوا يديه خلف ظهره ، وكذلك كعبى قدميه ، للحول دونه وأرتكاب مزيد من العنف ضد نفسه أو ضد الأخرين . وقام بفحصه عديد من الأطباء ، واحد بعد الآخر ، لكن أحدا منهم لم يتمكن من تهدئته فقد أستمر فى ثورته . وأستمر ذلك مدة ثلاثة شهور ، ثم راحت أسرته تستشير شيخا معينا ، ساحرا خيرا . وتوسلوا إليه أن يعمل على شفاء البائس : (بلاكمان ، ص ١٩٨) .

ويعتقد القبليون المغاربة أن أذى الجن أكثر ما يتمثل فى صورة أعتداءات على الصحة : تشنجات ، نوبات صرع أو شلل ، أو آلام روماتزمية أو عصبية ، أو نوبات جنون ، وهى تتسبب أيضا فى الأوبئة وبصفة خاصة فى الكوليرا أو الجدرى . وفى كل هذه الحالات ينفذ الجن إرادته بالدخول فى جسد ضحيته ، أو يضربها من الخارج ، وأحيانا أيضا بقذفه بسهم ، كما هو الحال فى الأوبئة . (وسترمارك ، ص ١٣) .

وإذا كانت هناك بعض الأحداث التى تدل فقط على وجود الجن ، فثمة أحداث أخرى مفجعة ومرعبة ، تستتبع ظهورهم المفاجئ والمرهوب . فمثلا إذا نسى شخص أن يقول بسم الله قبل تناول الطعام فإن الجن أو الشيطان سوف يأكل معه . وإذا نظرت ليلا فى مرآة فلا تندهش إذا دخل جن فى عينيك وأحتقنتا . كذلك تخلق حالة الغضب أو الخوف مخاطر غير عادية بالنسبة لضربات الجن . ولهذا من الضار إيقاظ نائم بصورة فجائية : فلا بد من أستخدام الرقة واللطف بلمس أصبعه البنصر أو بمس كفه مسا خفيفا مع قول " الحمد لله " ، وإلا أصيب برعب خطير . (وسترمارك ، ص ١٣) .

وثمة فئات من البشر معرضة بصفة خاصة لهجمات الجن . فالأطفال المولودون حديثا ، والوالدات فى فترة النفاس يتعرضون من هذه الناحية لخطر جسيم ، كذلك الحال بالنسبة للخطيبين . فقد يحدث أن تأتى جنية

وتستبدل بالطفل المولود طفلا أخر ، وذكر عن أحد الجن أنـه متخصـص فـى خطف المخطوبات . (وسترمارك ، ص ١٤) .

وفى قرى صعيد مصر يسود الإعتقاد فـى أن العفـاريت كائنـات ناريـة ولهذا فمن الطبيعى تواجدهم فـى النـار : عنصرهـم . ولهـذا السـبب مـن المألوف قول " بسم الله الرحمن الرحيم " قبل إطفاء النـار أو ألقـاء أى شـئ فيها . وهو مـا يعطـى العفريـت الـذى قد يكون متواجدا بها الوقت الـلازم للإنسحاب . كذلك قبـل أن يلقـى علـى الأرض مـاء أو أى شـئ سـائل ، يقـول الكثيرون : دستور (إذن) أو دستور يا مبـاركين . لأحتمـال وجـود عفـاريت على مقربة . ففى الواقع إذا كان ثمة عفريـت فـى النـار لحظـة أطفائهـا أو إذا طالهم الماء وهو يسقط على الأرض ، فسوف ينتقمون من الشـخص الـذى لـم يحذرهم فى الوقت المناسب من الفعل الذى أقدم عليه .

وقبل تناول الطعـام وكذلـك قبـل إحضـار أى شـئ مـن غرفـة الخزيـن يقول المسلمون والأقباط : " باسم اللـه الرحمـن الرحيـم " . لمـاذا ؟ مـن أجـل منع العفاريت من الاستيلاء على جزء مـن الأطعمـة . ويتفوه الأقبـاط أحيانـا بإبتهال آخر . " بأسم الصليب " ولنفس الهدف يرسمون علامة الصليـب علـى الأطعمة . كذلك تنطق النسـاء بـأحدى هـاتين الصيغتيـن قبـل أن يشـرعن فـى خلط الدقيق لإعداد الخبز . (بلاكمان ، ص ١٩٥ ، ١٩٦) .

وقبل الإقامة فى بيت شيد حديثـا ، وقبـل إنهـاء حفـر بئـر أو سـاقية ، أو تشغيل ماكينة جديدة أعدت للرى أو لـدراس القمـح ، لابـد مـن ذبـح عجـل أو خروف ، أو إذا كان صاحب الشأن فقيرا ذبح أحد الطيور الداجنة ، سـواء على عتبة البيت ، أو إلى جانب الماكينـة ، أو فـى داخـل البئـر قبـل أن يصـل أولئك الذين يحفرونهـا إلى مستوى الماء . ويراد بدم الضحيـة تهدئـة العفاريت التى قد تكون ساكنة فى هذه المواقع . (بلاكمان ، ص ٢٠٣) .

وإذا خشـيت أمـرأة أن تسـكن العفـاريت دارهـا ، وضعـت علـى أرض إحدى الغرف قلة من الماء ، ووضعت إلى جانبها خبزا وملحا ، وتركت هذه

الأشياء طيلة الليل . فهذا من شأنه أن يحمى البيت كله ويمنع العفاريت من الدخول فيه : (بلاكمان ، ص ٢٠٤) .

وفى بعض الأحيان تترك العفاريت مقرها الكائن تحت الأرض وتصعد إلى السطح . ولهذا يعدون من الأمور الخطيرة الدب على الأرض بالقدم أو بالعصا أو ألقاء أى شئ عليها فجأة . ومن الواجب تجنب ذلك بصفة خاصة عندما يأتى الليل ، لأنهم يعتقدون أن العفاريت تأتى فى ذلك الوقت بأعداد كبيرة . وعندما يريد رجل قطع مسافة معينة ليلا ، سوف يكون سعيدا إذا عثر على صياد لإصطحابه ، حيث يعتقد أن عفريتا لن يجرؤ عندئذ على الأقتراب منه . فالعفاريت تخشى الصيادين وشباكهم ، التى يؤدى ألقاؤها إلى هربهم مذعورين . وذكرت إحدى النساء أن العفاريت يخشون أن يقعوا أسرى فى الشباك . (بلاكمان ، ص ٢٠٢) .

ويصف وسترمارك (ص ١٥،١٦) الوسائل المختلفة التى يستعين بها القبليون المغاربة للوقاية من أذى الجن أو للتخلص من هذا الأذى فيقول :

" يكون الجن أكثر وأنشط ما يكونون على سطح الأرض بعد صلاة العصر ، لأن هذا الوقت من النهار يمثل الصباح بالنسبة لهم ، الوقت الذى يستيقظون فيه وثمة أعمال كثيرة ينبغى تجنبها عندئذ أو على الأقل تتطلب أحتياطات خاصة : (وسترمارك ، ص ١٥) .

ومن الطبيعى أن يفعل البشر كل ما فى أستطاعتهم لحماية أشخاصهم وأموالهم من كائنات بمثل هذه الخطورة وهذا الشر . وقد أكتشفوا بطريقة أو بأخرى أن ثمة وسائل متنوعة يمكن عن طريقها ، أبقاء هذه الأرواح بعيدة ، وهم يستخدمون هذه الوسائل من أجل هذا الغرض .

فالجن يعشقون الظلام ويفزعهم الضوء ، ولهذا فمن الملائم إيقاد شموع لإبعادهم عن النساء أثناء الولادة ، وكذلك عن الموتى الذين لم يتم دفنهم . وتكره الجن الملح الذى يستخدم ضدهم كوقاية فى مناسبات عدة .

وهم يخشون الحديد وبصفة خاصة الصلب . وهم يهربون من رائحة القطران ورائحة البارود . ويستخدم الأول ليس كوقاية ضد أفعالهم فحسب وإنما فى حالات كثيرة كعلاج للأمراض التى يتسببون فيها ، وخوفهم من البارود يفسر إلى حد كبير إطلاق الرصاص بصورة مستمرة وهو ما يميز حفلات الزواج الريفية لدى المغاربة ، وتستهدف الموسيقى الصاخبة أيضا نفس الغرض وكذلك صيحات النساء التى تصم الأذان . ولطرد الجن يستعان أيضا بحجر الشب والقنب ، وسذاب الحرمل (نبات طبى) وحصا اللبان ، وحب الكزبرة ، وصمغ النشادر ، ولبان جاوه ، والحنة ، ومواد أخرى ، وأفرازاتها بسبب مذاقها الحاد أو رائحتها الخاصة ، والطابع الغيبى إلى حد ما الذى ينسب لبعضها " . (وسترمارك ، ١٥،١٦) .

ومن بين كل الوسائل التى تقى من تأثير الجن أو تعالجه لايوجد أكثر فعالية من الآيات القرآنية المقدسة : فثمة جن لايخشون الملح ولا الصلب ولكنهم جميعا يخشون الكتاب المقدس .

وهناك أخيرا وسيلة شائعة الإستعمال لطرد الجن : وهى الأضحية ، ومن الممكن أن نذكر لها أمثلة عديدة فهناك مثلا الطقوس الخاصة ببناء بيت أو إقامة خيمة جديدة ، أو عند حفر بئر . وتفسر هذه الأضاحى فى الأغلب بأعتبارها عارا يستهدف الجن ، ويعنى العار وسيلة ضغط تستتبع تحويل لعنة مشروطة إلى الشئ الذى يستهدفه ، ولكن بعض هذه الأضاحى يقدم بأعتبارها هدايا أى قرابين من الأطعمة إلى الأرواح . وكذلك من الشائع أن تتضمن الممارسات التى تستهدف طرد الجن من أجساد ضحاياها أضاحى وقرابين . (وسترمارك ، ص ١٦ ، ١٧) .

غير أن العلاقات بين البشر والجن ليست دائما ذات طبيعة ممقوتة ، وأن الممارسات البشرية بخصوص هذه الأرواح تستهدف فقط الوقاية منها أو طردها . فهناك حالات كثيرة يعمد البشر فيها إلى دعوة الأرواح وطلب المساعدة منها : فهم ينتظرون منها أن تدلهم على السارق ، أو أن تعطيهم معلومات بخصوص المستقبل ، أو أخبارا عن أصدقاء غائبين ، أو أن

تكشف لهم عن كنوز مخبأة ، أو أن تعاونهم فى القيام بعمل سحرى . (وسترمارك ، ص ١٨) .

رابعا ـ أستحواذ الجن على الإنسان

يسود لدى القبليين العرب الإعتقاد فى قدرة الجن على أن يتلبس الإنسان ويستحوذ على روحه . وتكون نتيجة هذا التلبس أو الاستحواذ معاناة الأنسان معاناة شديدة .

فعرب قبيلة الفقراء يعتقدون أن الجن يدخل فى جسد الإنسان ويسرق روحه . ورووا أن جنيا أستحوذ على نعمة أبنة مطلق شيخ القبيلة (فى أوائل القرن الحالى) وعذبها دون هوادة ، وحملها على أفعال غريبة وللحول دونها وأن تلحق الأذى بنفسها ربطوا بشدة معا إيهامى يديها وإيهامى قدميها . ثم جعلوا المريضة تستنشق دخان الكبريت والرماد لطرد الجن ، لكن العلاج بدا غير فعال ، وعندئذ أستدعى فقير حقيقى وأستخدم كل أمكانيات فنه ، فتلا صيغا سحرية ، وأدى رقصاته المألوفة ، وضرب المريضة بالعصا ، ونفخ بقوة فى منخاريها ، وناشد الجن الخروج ، لكن هذا الأخير رفض أن يترك مكانه . وشعرت المريضة بتحسن ملحوظ ، وأنتهزوا فرصة هذا التحسن لأخذها إلى قرية العلا حيث يقوم دجال ماهر بإعداد تعاويذ ناجحة . وبفضل حجاب صيغ بصورة جيدة . شفيت نعمة تماما من الروح الشريرة . وفى العام التالى أنجبت لزوجها أبنا . غير أنها بعد ولادتها بقليل ، صارت مرة أخرى فريسة للجن الذى عذبها بقسوة وأنتهى بقتلها : (جوسان وسافينياك ، جـ ٦،٥ ، س ٢٨ ، ص ٣٦٩) .

وروا أيضا القصة التالية : كان (محس بن جبل) تحت خيمته عندما تلبسه الجن . وفى الحال أنتابته تشنجات غريبة . وأخذ يأتى بأفعال شاذة . وكان يحب قبل كل شئ أن يحفر حفرة فى الرمل يكوم نفسه فيها ، وكما روى هو بنفسه بعد شفائه ، لم يكن يشعر بشئ من الراحة الا فى هذا المخبأ الصغير بعيدا عن أنظار البشر وبعيدا عن كل ضوء . وكان يخشى أن تأتى طيور السماء تفقأ عينه أو تقضم فمه أو أنفه . وبعد أن أستعان أقاربه بوسائل

العلاج العادية دون طائل أخذوه وتوجهوا به إلى " العلا " عند (ابـن سـوير) الشهير مروض الجن (حشار الجـن) . وعندمـا وصـل الموكـب إلـى مدائـن صـالح توقف بالقرب من بـئر . وفجـأة قـدم مغربـى أخذتـه الرأفـة (بمحـس) عندما رأه يتمرغ بأغلاله فوق الرمل . فقال لمن كانوا يحرسون هذا التعـس : " أوقدوا نارا " . وعندما لم تترك الأغصـان المحترقـة سـوى . جمـرة متقـدة ، وضـع فى هذا المحرق نعلين قديمين وشواهما . ثم سحقهما وجعل منهما دقيقـا وخلط هذه الفضـالة بقليل من الملح وقليل من الطحين وعجن الكل فى المـاء ، ونتجت عنه عجينة بنية اللون ، سدت بها أنف المريض وأذنـاه ، ودهنـت بهـا الرأس بالكامل . وأرقد المريض علـى الرمـل وكـان يشـعر طيلـة الليـل بـآلام مبرحة . فكـان يحـس كـأن ثمـة أشـواكا تخـرج مـن جبهتـه وصدغيـه . وفـى صباح اليـوم التـالى وجـد نفسـه بريئـا معـافى : (جوسـان وسـافينياك ، مجلـة العرب ، جـ ٥،٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٧٠) .

ويجرى العرف لدى القبليين العرب بأتباع وسـائل معينـة يعتقـدون فـى قدرتها على طرد الجن من جسم الشخص الذى تلبسه : وهى وسائل متنوعـة. منها مثلا وصفات يتكون كل منها من أشـياء شـاذة وغريبـة يجمـع بينهـا أنهـا منفرة ومقززة يتعاطاها المريض على أمل أن تؤدى إلى إيذاء الجن مما يدفعه إلى ترك جسد المريض والهـرب . ومنهـا التمـائم والتعـاويذ والأحجبـة ومنهـا ضـرب المريض .

وتتحدث فيما يلى عن كل من هذه الوسائل :

(أ) الأضاحى :

يسود لدى بعض القبائل العربية الإعتقاد فـى أن المـرض الـذى تسـبب فيه الجن يمكن شفاؤه باسترضـاء الجن عن طريق ذبح أضحية من أجله .

فلدى قبيلة الفقراء عندما يجد فقير نفسه متعبا فـى الصبـاح عنـد قيامـه يعتقد أن جنا جاءه بالليل وضربه . ويقرر تهدئة هذا العدو لمنعه من مواصلـة ايذائه ، إذا لم يكن بأستطاعته علاج الأذى الذى سبق وقوعه . ولهذا الغـرض

يحصل على جدى يسمى (تيس ناطح) تيس طارد للشر . ويذبحه فى نفس المكان الذى كان راقدا فيه . ويسيل الدم على الأرض ، وينفذ الدم برفق إلى التربة . ثم تدفن الضحية فى الموقع ومن المحظور أكلها . فمن المحتمل أن يكون الجن قد تلبسها . (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، جـ ٧،٨ ، س ٢٨ ، ص ٥٠٤) .

(ب) الأستعانة بالسحرة :

يشيع لدى القبليين العرب الأعتقاد فى أن بعض البشر يمكنهم بفضل ما يتمتعون به من قدرات خاصة طرد الجن أو العفريت الذى تلبس أحد الأشخاص .

تقول بلاكمان (١٩٦) مثلا فى وصفها لمعتقدات فلاحى صعيد مصر فى هذا الخصوص : والذين تعذبهم العفاريت لايتوانون عن الحصول على معونة السحرة ، ويبدى هؤلاء ، أحيانا ، ميولا خيرة . فهم لا يطلبون أية مكافأة عن ممارسة فنهم السحرى لصالح من يلجأون إليهم إذا كانوا من الفقراء . ويفترض فى الساحر القدرة على أصدار الأوامر للعفاريت وجعلهم يمثلون أمامه . بل يمكنه إصدار الأوامر إلى ملكهم ، ويلتزم هذا الملك بطاعته . ولحمل العفاريت على الصعود إلى سطح الأرض ، يتفوه السحرة بتعازيم ، أثناء إحراق البخور ، وأحيانا أثناء صب ماء على الأرض .

(جـ) ضرب من تلبسته الجن ضربا مبرحا :

يشيع لدى القبليين العرب الإعتقاد فى أن ضرب الشخص الذى تلبسه الجن ضربا مبرحا يمكن أن يؤدى إلى خروج الجن من جسمه ، حيث يفترضون أن الضرب المبرح لا يؤلم المضروب فحسب بل يؤلم الجن الذى تلبسه وتخلصا من هذا الألم يسارع الجن إلى مغادرة جسم الضحية . وبطبيعة الحال كلما كان الضرب موجعا كان أحرى أن يؤدى إلى النتيجة المطلوبة .

خامسا ـ الزواج بين الأنس والجن :

يشيع الإعتقاد بين القبليين بأنه من الممكن لأحد أفراد البشر الزواج من أحد أفراد الجن ، لكن هذا الزواج ينتهى عادة بكارثة بالنسبة للطرف البشرى .

فقد رُوى أن رجلا من قبيلة الفقراء ، زيد بن جبل ، كان ينام ليلا تحت خيمته . أستيقظ مذعورا ليرى إلى جواره أمرأة جالسة تقول له " أريد الزواج منك " . فقال لها زيد : " من أنت " . وعندما نظر إليها رأى وجها أسود ، تلمع فوقه عينان مفتوحتان بصورة مفرطة . وأدرك أن محدثته تنتمى إلى أهل الأرض (الجن) ، فقال لها : " أنت تريدين الزواج منى ، لكننى أرجو الله أن يخلصنى منك " . وفى الحال أختفت المرأة : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، جـ ٦،٥ ، س ٢٨ ، ص ٣٦٩) .

ويعتقد فلاحو الصعيد أن بعض السحرة يتزوجون من عفاريت إناث وينجبون منهن أطفالا . ومثل هذا الزوج لايفشى أبدا سر زواجه . لكن أقاربه الأرضيين يتوصلون إلى معرفة ذلك فى نهاية الأمر ، لأنهم فى بعض الأحيان عندما ينظرون إلى الموضع الذى ينام فيه كل مساء يلاحظون أنه أختفى . ومن ثم يفترضون أنه ذهب ليلتقى بزوجته تحت الأرض . لكنهم لايجرؤون أطلاقا على الحديث مع الرجل فى هذا الشأن (بلاكمان ، ص ١٩٧) .

وفى المغرب يعتقد القبليون أنه ليس من النادر أن يتزوج شاب طيب عن طريق الخطأ جنية ، قد تمتلئ بالمودة نحوه خلال بعض الوقت ، بل قد قد تصل طيبتها إلى حد إمداده بالنقود ، لكنها سوف تنتهى ، إن عاجلا أو آجلا ، إلى قتله أو أصابته بالجنون . (وسترمارك ، ص ١١) .

المبحث الثانى

الغيلان

من الإعتقادات الشائعة لدى القبليين العرب الإعتقاد فى وجود كائن غريب غير مرئى يسكن الصحراء ، لكن بأمكانه أن يتجسد حسب إرادته . وهو يفعل ذلك عندما يريد إلحاق الأذى بأحد الأشخاص .

ومن القصص الطريفة التى تروى عن هذا الكائن الغريب القصة التالية التى كان يتداولها أفراد قبيلة الفقراء فى أوائل القرن الحالى .

فقد رُوى أن بدويا ، عودة بن رويحل ، ذهب لصيد الغزال فى أحد الوديان وأثناء متابعته القنيص وجد نفسه فجأة أمام غولة فتحت شدقها الضخم وأندفعت نحوه لتلتهمه . وبحركة سريعة أستطاع القانص تجنب هذه الهجمة محتميا وراء شجرة . غير أن الوحش عاد إلى الهجوم فقبض على الشجرة بين أسنانه ومضغها كما لو كانت قشة وتكرر نفس الهجوم مرة وأثنتين وثلاثا . عندئذ أحس البدوى أنه على وشك الهلاك ، فقبض على سيفه بقوة وضرب رقبة الغولة . وأهتز الوحش ثم سقط ، وبضربة أخرى من سيفه قطع رقبتها . وفحص القناص عودة عن قرب هذه الغولة المرعبة . كان لها جسد أمرأة ، وكانت رأسها ممسوخة وتشبه إلى حد ما رأس النسر ، وكان شدقها عندما يكون مفتوحا يبلغ طوله مترا ، وكانت تبدو منه أسنان طول كل منها خمسة عشر سنتيمترا ، وكانت قدماها أشبه بأقدام الحمير . وعاد القناص فخورا بإنتصاره سريعا إلى مضربه ليدعو العرب إلى القاء نظرة على جثة الوحش . لكن فى صباح اليوم التالى عندما أتى البدو إلى الموقع لم يجدوا شيئا : فقد خطفت أسرة الغولة بقاياها أثناء الليل . (جوسان وسوفينياك ، العرب ، س ٢٨ ، ص ٣٦٨) .

ولأعراب جنوب تونس أقاصيص طريفة عن (الغولة) فهى تعترض الناس فى صور مختلفة تارة فى شكل حيوان (جمل ، أو حمار ، أو كلب ،

أو طائر، أو عنز) وتارة فى شكل بشرى : رجل أو أمرأة ، وأحيانا أخرى فى شكل خيال طويل طويل ، يمتد إلى الجو ثم ينحنى فى شكل قوس فوق الناظر إليه ، أو فى شعلة نار يلمع نورها لرائيها فى أشكال مختلفة وفى أماكن متعددة ، وأحيانا أخرى لا ترى له صورة ، وإنما يسمع الإنسان لها صوتا كصرخة ، أو أنين أو نباح ، أو صياح شاة ، أو قهقهة وضحك .... إلخ .

وإذا كانت (الغولة) من نوع أرواح المقتولين فالتخلص منها ميسور بأحد أمرين :

- إما بالثأر للقتيل ، أى بقتل قاتله . فهم يزعُمون أن روح القتيل تبقى حيال قبره صارخة طالبة ثأرها حتى يقوم أحد أقارب القتيل بقتل قاتله فتهدأ وتختفى .

- وإما بإشعال النار فى مكان موت القتيل ، ثم تثبيت مسمار حديدى فى نفس المكان . فتختفى الغولة . (المروزقى ، ص ١٨٤) .

ولدى أهل المغرب يشيع الإعتقاد فى وجود الغولة ، وينظرون إليها بإعتبارها شيطانة مرعبة ، مصاصة دماء ، تستمتع بأكل البشر . كذلك هناك شيطانة تسمى " عيشة كديشة " وهى تظهر فى شكل أمرأة ناضجة جميلة الوجه ، لكن يحدث أيضا أن يكون لها ساقا ماعز ذات أثداء طويلة متدلية . وهى بالغة الشبق ويحلو لها إغراء الشباب الناضج (وسترمارك ، ص٣١) .

الفصل التاسع
القرابين والأضاحى

كثيرة هى المناسبات التى يشعر فيها القبلى بضرورة ذبح حيوان كقربان أو أضحية . فلا يكاد يوجد فى حياته حدث ينطوى على شىء من الأهمية إلا ويقترن بتقديم قربان أو ذبح أضحية . تلك هى مثلا الأحداث التى تنطوى عليها حياة الإنسان من ولادة وختان وزواج ووفاة . غير أن تقديم القرابين لا يقتصر على هذه الأحداث بل يمتد إلى العديد من المناسبات الأخرى .

ونستعرض فيما يلى ، بعضا من الأحداث التى تقترن بتقديم قرابين أو تقتضى ذبح أضاحى :

١- ولادة مولود ذكر :

يستقبل القبليون العرب ولادة المولود الذكر بمنتهى الغبطة وبالغ السرور ، بخلاف ولادة الأنثى التى تقابل بالصمت الحزين . ومن مظاهر الإحتفال بولادة الذكر ذبح أضحية .

فلدى قبيلة الفقراء (فى شمال الحجاز) تستقبل ولادة البنت دونما بهجة ودونما أى مظهر من مظاهر السرور أو الرضا من جانب الأقارب . فالأم تصمت وتقول فى صوت خفيض (ما هى إلا بنت) ، ولاتقدم إليها أية تهنئة من نساء المضرب لكن المشهد يتغير إن كان الحظ قد أسعدها بولادة ابن . فبمجرد ذيوع الخبر تهرول النساء إلى خيمة الأم المحظوظة وتسمع صيحات الفرح ، ويبدأ الغناء (ولدت ولد ، مبروك ، مبروك) وفى الحال يبحث الأب ، وقد تملكه الحبور بأن صار له وريث ، عن ضحية يذبحها . وهذه هى (رشوشة الولد) ، ويؤتى بها إلى باب الخيمة ، وتوضع فى مواجهة الوالدة وتذبح ، ويقول من يذبحها : "رشوشة الولد". (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ١١ ، ١٢ ، س ٢٧ ، ص ٧٥٤) .

٢- مضى أربعين يوما على ولادة الطفل :

قد يتطلب العرف ذبح ذبيحة بمناسبة مضى أربعين يوما على ولادة الطفل الذكر .

فلدى قبيلة الفقراء يجمع البدوى فى اليوم الأربعين عقب ولادة طفل كل أقاربه فى بيته ، ليذبح ضحية من أجل ابنه ، ولكى يختار له أسما . ويتولى الأب الذبح ، لكن الأسم يختاره عادة قريب دنى يكون بمقدوره تقديم هدية : بعير أو شاة إلى المولود . وفى هذه المناسبة يقوم كل من الحاضرين بتقديم هدية إلى أم الطفل : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٧ ، ٨ ، س ٢٨ ، ص ٥٠٥) .

٣- ختان الذكر :

يقترن ختان الذكور ، على خلاف الحال بالنسبة لختان الإناث ، باحتفالات صاخبة . ومن شعائر هذه الإحتفالات ذبح أضحية عن المختون .

فلدى قبيلة الفقراء عندما ترتفع الشمس فى الأفق بمقدار إرتفاع الخيمة يأتى والد الطفل بشاة ويضع الطفل على هذا الحيوان الوديع . ويطاف بالفارس الصغير حول الخيمة . وعندما ينهى مسيرته ويصل إلى نقطة البداية ، يجد نفسه وجها لوجه مع بدوى يحمل سيفا مصلتا فى يده . وبضربة قوية يعقر الرجل الشاة ، فتنهار الضحية . وهذه هى (عقيرة الولد) ، وتذبح الشاة فى الحال ورأسها متجه نحو الجنوب : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٧ ، ٨ ، س ٢٨ ، ٥٠٦) .

ولدى قبيلة الفايز (فى شرق الأردن) تكوم أمام خيمة الطفل المراد ختانه كومة من الحجارة ، ينصب فى وسطها فرع شجرة أخضر . ثم يؤتى بشاة ، وهى التى سوف يضحى بها ، ويوضع الطفل عليها كما لو كانت فرسا . ويطاف به سبع مرات حول كومة الحجارة ، ثم يقطع والد الطفل ـ بضربة قوية من سيفه ـ قوائم الشاة ثم يحول وجهها فى الحال نحو الجنوب ويشق رقبتها قائلا " باسم الله " . ويترك الدم ليسيل على الأرض ، دون أن يلقى

بشيء منه على الطفل أو الخيمة " (جوسان ، ص ٣٥١) .

٤- الزواج :

يقترن الزواج باحتفالات وطقوس متعددة ، قد تختلف من قبيلة إلى أخرى ، غير أن من طقوسه الشائعة ذبح ذبيحة من أجل العروس .

فلدى قبيلة الفقراء بعد عقد الزواج يعود العريس إلى خيمته حيث يسرع في الحصول على ضحية : خروف أو ماعز ، ثم يتوجه إلى مسكن زوجه المقبلة ، وأمام الباب ، وفي حضورها يذبح الضحية من أجلها . (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب حـ ١١ ، ١٢ ، س ٢٧ ، ص ٧٦٠) .

٥- المرض :

من العادات الشائعة لدى القبليين العرب ذبح ذبيحة في حالة المرض طلبا للشفاء .

فلدى قبائل جبال القَرَا (ظفار) يضحى في حالة المرض ببقرة أو شاة ، ويرش دمها على كُتفي المريض وصدره عندما تكون الشمس مرتفعة . ومن اللازم أن يكون الحيوان أنثى . وهي تفرقة لا تراعى في حالة قربان الوفاة : (توماس ، ص ٦٥) .

وكان أبناء قبيلة الفقراء ، في اوائل القرن الحالي ، يذبحون ذبيحة فدو للوقاية من مرض الكوليرا . فكان يؤتى بالضحية أمام الخيام ويطاف بها حول البيوت ثم تذبح :(وهذا هو شراء الشر) . وهذا هو الفدو وينثر الدم الذى يتم تلقيه في صاج، على الإبل وقوائم الخيمة ، على سبيل الوقاية من الوباء. أما البشر فلا ينثر عليهم دم . وفي تيماء يذبحون ضحية لتفادى الوباء ، ولا يعرفون أى علاج لإستبعاده . وفي العلا تجرى العادة بعمل فدو من أجل العربى الذى يصاب (بالكوليرا). فيؤتى بضحية بالقرب من المريض ويطاف بها حوله ، ثم تذبح أمامه ، ويدفن الدم في الأرض ، ويوزع اللحم على المساكين :(جوسان وسافينياك، مجلة العرب، حـ ٣، ٤، س ٢٨، ص ١٨٨)

كذلك كثيرا ما يحدث أن ينذر فقير أثناء مرض خطير ذبح أضحية لوجه الله كل عام إذا شفى من مرضه ، فإذا تحققت رغبته إعتبر نفسه ملزما بالوفاء بوعده . وفى كل عام ، فى وقت شفائه يختار ضحية سمينة ، لا يشوبها عيب ، ويطوف بها حول خيمته ، ويذبحها أمام باب البيت ، وهذه هى الضحية السنوية .

٦- الوفاة :

تقترن الوفاة بالعديد من الأضاحى التى تذبح فى أوقات محددة . فمنها ما يذبح عند دفن الميت ، ومنها ما يذبح بعد مضى أسبوع على الوفاة ، ومنها ما يذبح بعد مضى سنة . ويحرص القبليون العرب أشد الحرص على ذبح هذه الأضاحى .

وقد تكلمنا فى مناسبة أخرى عن الأضاحى التى تذبح عند الوفاة وبعد مضى أسبوع عليها ونقصر حديثنا هنا على الأضحية التى تذبح بعد مضى سنة على الوفاة .

يقول بوركاردت أنه فى يوم عيد الضحية فوق جبل عرفات ، تذبح كل أسرة عربية من الإبل بقدر ما فقدت من أشخاص بالغين خلال السنة الأخيرة ، وسواء كانوا من الذكور أم من الإناث . وحتى إذا لم يكن الميت قد ترك لوارثه سوى بعير واحد ، فمن الواجب التضحية بهذا البعير . وإذا لم يترك وراءه شيئا وجب على أقاربه ذبح بعير من إبلهم الخاصة . ومن الممكن الإستعاضة عن البعير بسبع من الشياه . وإذا تعذر الحصول على العدد كله من أجل قربان سنة الوفاة ، من الممكن ذبح البعض منها فى السنة أو السنوات التالية : (ملاحظات ، حـ ١ ، ص ١٠٠) .

ولدى قبيلة الفقراء وبمناسبة عيد الضحية تتأهب كل أسرة فقدت أحد أعضائها خلال السنة السابقة ، للتضحية بناقة ، ويزين الحيوان(كما تزين العروس بمناسبة الزواج) ويحمل عليه عدل ملىء بالمؤونة وقربة مملوءة بالماء . وشداد جيد ، ويترك ليتجول فى حرية أمام الخيمة وكل ما يحمله

يترك للمساكين ثم يذبح من أجل الميت . وتتوجه هذه الممارسات إلى الله . فلا يوجد لدى الفقراء تقديس الأولياء المنتشر للغاية بين عرب فلسطين وشرق الأردن : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٦٣) .

٧- إقامة خيمة أو بناء بيت :

من الشائع لدى القبليين ذبح ذبيحة بمناسبة إقامة خيمة أو بناء بيت للمرة الأولى . وقد يجرى العرف بتلطيخ بعض عمد الخيمة أو أطنابها أو أوتادها بدم الذبيحة . كذلك قد يجرى العرف بتلطيخ مدخل البيت أو جدرانه بدم الذبيحة

فلدى قبائل شرق الأردن " يقام لرفع الخيمة عيد بهيج يكرس بالذبيحة المعهودة . فبينما يضربون أوتادها ويشدون أعمدتها يديرون رأس النعجة نحو الجنوب وينحرونها قائلين : " دستور يا صاحب البيت " وينضحون بدمها النسيج الشعرى والأعمدة والأطناب والأوتاد ، ويسترحمون الأرواح الهوائية كى تدفع عنها الأحزان والصعبات " : (سلمان ، ص ٢٥٠) .

٨- عند حفر بئر :

يجرى العرف لدى القبليين العرب بذبح ذبيحة عند حفر بئر .

فلدى قبيلة الفقراء يجرى العرف ـ عند حفر بئر جديدة ـ يذبح ضحية على مثابة البئر ، بحيث ينزل الدم بطول الجدار إلى أن يبلغ الماء . وفيما مضى كان الحاضرون هم الذين يرشون الجدار بالدم . وهذه هى (رشوشة البير) : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٧، ٨ ، س ٢٨ ، ص ٥٠٣) .

وفى قرى صعيد مصر جرت العادة بذبح عجل أو خروف ، عند حفر بئر أو ساقية ، وإذا كان صاحب الشأن فقيرا ذبح أحد الطيور الداجنة . وتذبح الضحية بحيث يسيل دمها داخل البئر وذلك قبل أن يصل القائمون بحفرها إلى مستوى الماء . وتهدف هذه الأضحية إلى تهدئة العفريت الذى قد يكون ساكنا

فى هذا الموقع : (بلاكمان ، ص ٢٠٣) .

٩- شراء فرس أو ولادة مهرة :

للفرس لدى القبليين ، وبصفة خاصة البدو ، أهمية بالغة . ففضلا عن إستخدامها كوسيلة للإنتقال ، تعتبر ذات أهمية قصوى فى الحروب والغزوات . ولذلك فإن مجىء فرس إلى المضرب يعتبر مناسبة هامة تتطلب ذبح ذبيحة . وكذلك الحال إذا ولدت الفرسة مهرة .

فلدى قبائل شرق الأردن :

" إذا أنتجت الفرس مهرة حل الهناء فى الخِيَم وانتشر السرور وذبحوا ذبيحة ونضحوا بدمها بطن الفرس والمهرة وقوائمها وناصيتها وغرتها . وإذا ابتاعوا لهم فرسا أو كسبوها فى الغزو يذبحون لها نعجة قبل إدخالها البيت . هذا ما فعله عودة بن عيسى لما اشترى فرسه المشهورة " الكبيشاء " : ذبح الذبيحة وطاف بها حول بيته ليمنع عنه أذى العيون الحاسدة وأولم وليمة فاخرة ودعا إليها الأصدقاء والأقارب . فقلت له : " ما هذه العادة وأنت مسيحى " . قال " هذه عاداتنا وإذا لم نجر عليها خشينا عذل العاذلين ونظرة الطالحين " : (سلمان ، ص ٢٥٠)

ولدى قبيلة الفقراء يقترن دخول فرس أصيلة ، سُرقت فى غزوة ، تحت الخيمة بذبح ماعز أو شاة : ويوضع شىء من الدم على جبهة الفرس . ومن شأن ذلك أن يبعد عنها الشر ، ويمنحها الإقدام والأمان فى المعركة . وعندما تجز مهرة صغيرة فى المضرب ، تقدم من أجلها ضحية ، وتدهن بالدم : (جوسان وسافينياك، مجلة العرب ، حـ ٧، ٨ ، س ٢٨، ص ٥٠٣) .

١٠- شراء أى شىء ذى قيمة كبيرة :

يجرى العرف لدى بعض القبائل بذبح ذبيحة من أجل كل شىء له قيمة كبيرة يشترى أو يُكتسب على نحو أو آخر وذلك عند قدومه إلى المضرب للمرة الأولى .

فلدى الفقراء يتطلب شراء بندقية ذبح شاة . ويصبغ السلاح بالدم لحمايته من الشر ، ولضمان دقة متناهية فى التصويب وإكتساب ذلول (جمل ركوب) أو جمل عدو ، يحيا بصرخات الضحية التى تذبح من أجله ، ويلقى بالدم على الحيوان وهذه هى (رشوشة الذلول) . وشراء عبد تصحبه ضحية ، مثله مثل شراء بعير . كذلك عندما يشترى رجل بستانا ، فى خيبر او فى العلا ، يذبح ضحية فى اللحظة التى يبدأ فيها خيازته للحقل ، ويرش الدم على الأشجار والأرض ، ويستهدف هذا الفعل طرد الشر : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، جـ ٧ ، ٨ ، س ٢٨ ، ص ٥٠٣) .

ولدى قبائل أولاد على ، فى صحراء مصر الغربية ، يتطلب شراء سيارة جديدة ذبح شاة ، كما يستتبع رحلة إلى أحد الأولياء للحصول على حجاب يعلق على المرآة التى يتعرف السائق من خلالها على ماوراءه : (أبولغد ، ص ٧٤) .

١١- عند الحصاد :

يجرى العرف لدى بعض قبائل شبه الجزيرة العربية التى تمارس الزراعة ، بتقديم قربان قبل الحصاد املا فى وفرة المحصول .

ففى جربيب ، فى جبال القرا بظفار ، يقدمون قربانا قبل الحصاد مباشرة ، حيث يقودون بقرة حول المزروعات ثم يذبحونها ويسيلون دمها فى جداول الماء ويلقون قطعا من اللحم بين سيقان القمح القائمة : (توماس ، ص ٤١) .

١٢- عند العودة من غزوة ناجحة :

إذا قام أحد المضارب البدوية بغزوة ضد مضرب آخر ، وتكللت الغزوة بالنجاح ، وتمكن الفريق الغازى من العودة إلى مضربه ، ومعه العديد من إبل الفريق الآخر ، بادر الفريق الغازى بتقديم قربان لسلفهم أو لأحد أوليائهم إعتقادا منهم بأن هذا السلف أو هذا الولى ساهم على نحو ما فى نجاح غزوتهم .

فلدى قبائل شرق الأردن كان العقيد يحصل على أجمل ناقة لتقديمها كقربان . ففى العادة كان العقيد ينذر ، قبل الرحيل من أجل غزوة ، هذه الذبيحة إذا تكللت جهوده بالنجاح وهو لا ينكث عهده أبدا عندما يعود فحتى ولو عاد بناقة واحدة ، كان يشعر بأن من واجبه التضحية بها . وفى العادة يضحى بالجزور لأبى الغمام ، ولدى الروالة يضحى بها لأبى الدهور . وتقدم قبائل أخرى القربان إلى سلفهم أو إلى من يعتقدون أنه سلفهم . فبنو صخر يقدمون القربان إلى " أسعد " . وعندما يقوم العقيد بذبح الحيوان يقول : " هذا جزورك يا فلان " . ويستقبل الدم الساخن فى وعاء ، وتلطخ به ظهور الحيوانات التى تم الإستيلاء عليها فى الغزو : (جوسان ، ص ١٦٨) .

ويعتقد أبناء قبيلة الفقراء ، عندما يسعدهم الحظ بأن يستردوا من يد أعدائهم قطيعا سلب منهم ، أنه من الواجب عليهم ـ عند عودتهم إلى المضرب ، أن يقدموا ضحية لوجه الله ، إما لشكره وإما لإستبعاد أى شر مقبل عن القطيع . وتقدم ضحية مماثلة عند العودة من غزوة موفقة ، نجحوا فيها فى إستلاب عدد من إبل العدو أو شياهه . فكل رجل يقوم بذبح ضحية ويرش الدم على الماشية المسروقة : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب ، حـ ٧ ، ٨ ، س ٢٨ ، ص ٥٠٣) .

١٣ - قرابين للأسلاف :

يجرى العرف ، لدى بعض قبائل الجزيرة العربية ، بتقديم قرابين للأسلاف طلبا لرضاها وإتقاءا لسخطها .

فلدى قبيلة القرا (ظفار) يجرى العرف " بالقاء بعض الخبز فى مياه أحد النهيرات هناك لاستمالة أرواح أسلافهم التى يعتقدون أنها قادرة على فعل الخير والشر وأنها قادرة على معاملة الناس على نحو معاملتهم لها . ففى الليل يلقى الأهلون إليها قطعا من الطباق والطعام وهم يصيحون " نحن أبناؤكم وبناتكم ، لا تؤذونا ، ، كونوا يقظين حتى لا يؤذينا أشرار الرجال والأرواح الخبيثة " : (توماس ، ص ٤١) .

ومن ذلك أيضا ما يجرى به العرف لدى بعض قبائل شرق الأردن في حالة خروج بدوى من عشيرته وإنضمامه إلى عشيرة أخرى ، حيث يطلب منه شيخ العشيرة التى يرغب فى الإنضمام إليها أن يقدم ذبيحة لجد العشيرة حتى يصبح كواحد منهم متمتعا بحقوق القبيلة وإمتيازاتها : (سلمان ، ص ٢٥٣) .

وذكر دوتى (ص ٤٩٨) أن البدو يراعون قربان الميت حتى الجيل الثالث . وروى أنه رأى شيخا يأتى بخشوع لكى يذبح أضحيته ولكى يتلو دعاءه عند كومة دفن بها أبوه أو جده ، وأنه رأى منهم من يقبل يده بعد أن يقضى وقتا فى المكان الذى يرقد فيه سلفه ، ويتفوه فى رقة بالغة بكلمات التبرك والترحم .

١٤- قرابين للأولياء :

من العادات الشائعة لدى القبليين العرب نذر النذور وتقديم القرابين للأولياء أملا فى أن يحقق الولى لصاحب النذر أو مقرب القربان ، نفعا أو يدفع عنه ضررا . وقد يجرى العرف بتقديم قرابين للأولياء فى غير ذلك من المناسبات .

فلدى بعض قبائل شرق الأردن يجرى العرف بأن أول ذكر يولد فى القطيع يقدم للمولى عز وجل أو لأحد المزارات ، أو يباع فيدفع ثمنه لصاحب المقام أو للكنيسة " (سلمان ، ص ٢٥٠) .

ولبدو شرق الأردن أيضا ذبيحة يدعونها ذبيحة الغنم فى المزار . فإذا طاف الراعى بغنمه حول المزار ، ورأى واحدة قد إقتربت من لحد الولى ووقفت أمامه ، علموا أن نفس الولى قد إختارتها ضحية ، فينحرونها إكراما وإجلالا ، فيرتفع الأذى عنهم وعن ماشيتهم : (سلمان ، ص ٢٥٣) .

١٥- قرابين بشرية :

يرى بعض الباحثين أن ثمة شواهد على أن العرب كانوا يقدمون عقيد

الغزوة المهزومة قربانا ويستدل على ذلك بما جرى به العرف لدى بعض القبائل فى حالة أسر عقيد الغزو .

فلدى قبيلة الفقراء كان العقيد الذى يؤسر فى إحدى الغزوات يقتل دائما بحيث يسيل دمه على الأرض فكان يقطع عنقه ، ويدار وجهه نحو الأرض ، بحيث لا يتمكن من رؤية السماء . وحتى فى الحالة التى يلقى العقيد فيها حتفه على أرض المعركة ، كانوا يسيلون دمه كما لو كان ما زال على قيد الحياة : (جوسان وسافينياك ، مجلة العرب حـ ٧ ، ٨ ، س ٢٨ ، ص ٥٠٥) .

الفصل العاشر
السحر

يسود فى المجتمعات القبلية الإعتقاد فى السحر . فلا تكاد توجد قبيلة ، فى أى بقعة من بقاع الأرض ، لا يعتقد أفرادها فى السحر إعتقادا جازما . وقد ظل الإعتقاد فى السحر سائدا لدى أبناء الحضارات القديمة : فى مصر وبلاد النهرين وبلاد الروم وفارس والصين والهند . . . إلخ ولا زال كثير من أبناء المجتمعات الحديثة يعتقدون فى السحر .

ويعتقد القبليون العرب ، شأنهم فى هذا شأن غيرهم من أبناء القبائل ، فى السحر إعتقادا لا يتسرب إليه الشك .

فهم يعتقدون أن ثمة أشخاصا يمكنهم ، نظرا لما يتمتعون به من قدرات خاصة ، أن يأتوا أعمالا تخرج على مقتضى القواعد السائدة والسنن المألوفة ، أى أعمالا خارقة ، وذلك عن طريق التلفظ بصيغ خاصة ، أو أداء حركات معينة أو إستخدام أشياء محددة . بل يسود الإعتقاد بأن السحر ليس مقصورا على أشخاص معينين يتمتعون بصفات خاصة ، وإنما من الممكن حتى للشخص العادى أن يحقق بعض النتائج الخارقة عن طريق إستعمال هذه الصيغ أو أداء تلك الحركات .

وفى إعتقاد القبليين العرب أن السحر قد يستخدم لتحقيق منفعة عامة أو خاصة فقد يستخدم لإزالة مفعول سحر ضار ، وقد يستخدم فى شفاء مريض ، أو فى تمكين امرأة عاقر من الحمل ، أو فى زرع المحبة فى قلب أحد الزوجين نحو الآخر ، أو فى تحصين حقل ضد السرقة أو تحصين الغنم ضد إعتداء الحيوانات المفترسة .

وقد يستخدم السحر فى الحاق الأذى بفرد أو جماعة . فقد يستخدم السحر فى عدم تمكين العريس من معاشرة عروسه ، وقد يستخدم فى إلحاق الأذى أو المرض أو حتى الموت بخصم أو عدو ، وقد يستخدم فى إصابة

الزوج أو الزوجة بالعقم ، أو فى تنفير أحد الزوجين من زوجه .

وينظر المجتمع القبلى إلى الرجل ، أو المرأة الذى يستخدم سحره فى إلحاق الضرر والأذى بالآخرين نظرة سخط وكراهية . وقد يعمدون فى بعض القبائل إلى التخلص منه تجنبا لأذاه وخلاصا من شره .

ونستعرض فيما يلى بعضا من الحالات التى يُستخدم فيها السحر لإلحاق أذى وتلك التى يستخدم فيها لتحقيق نفع ، ثم نتحدث عن جزاء السحرة فى بعض القبائل .

أولا : إستخدام السحر فى إلحاق الأذى :

كثيرا ما يستخدم السحر بهدف إصابة الآخرين بأذى أو ضرر أيا كان نوع هذا الأذى أو الضرر .

وقد يستخدم السحر هنا صاحب المصلحة فى إلحاق الأذى أو الضرر بنفسه وقد يستعين ، فى سبيل تحقيق هدفه ، بساحر محترف .

ومن الحالات التى يستعان فيها بالسحر لإلحاق الأذى أو إيقاع الضرر:

(أ) ربط العريس :

يشيع ، فى المجتمع القبلى العربى ، الإعتقاد فى أن السحر قد يستخدم فى إصابة العريس بالعجز عن معاشرة عروسه عند دخوله بها .

فلدى بعض قبائل عسير (حمزه ، ص ١٣٤) يسود الإعتقاد فى قدرة أهل العروس على الحيلولة دون وصول العريس إلى عروسه وطريقة ذلك أن يعقدوا للعريس عقدة تُعْجزه عن بلوغ مراده من زوجته ، ولهم فى ذلك طرق عديدة يتوسلون بها ويؤمنون بفائدتها للوصول إلى النتيجة المطلوبة . وفيما يلى بعض الوسائل التى يتوسل بها أهل العروس وأبناء عمومتها للحيلولة دون العريس وعروسه إن لم يكونوا راضين عن الزواج ، وذلك

حين إجراء المأذون لمراسم العقد :

١- عقد خيط أو شريط أو طرف الغترة أو الثوب .

٢- خلع الخاتم من الإصبع ثم إعادة لبسه رويدا رويدا ، كلما قرأ المأذون جملة أو آية .

٣- سل الجنبية من غمدها ثم إعادتها إليه أثناء قيام المأذون بعمله دون أن يلحظ أحد ذلك .

٤- قلب النعال حين إجراء العقد .

٥- عقد بعض شعرات من صوف ذبيحة العروس حين إجراء العقد .

٦- عقد مصران الذبيحة .

٧- غمس مسمار فى دم الذبيحة ودقه فى الأرض .

٨- خلط مرق الذبيحة بماء حين إجراء العقد .

وهذه أشهر الطرق . وهنالك طرق أخرى غيرها وتجرى هذه الخرافات من القوم مجرى الدم . ولها فى نفوسهم أثر عظيم ، ولذلك فإن أهل العريس يكونون يقظين منتبهين ، حين إجراء العقد ، لئلا يحدث شىء من ذلك .

وفى اليمن يعتقد البعض أن الساحر يستطيع أن يمنع العريس من الإقتراب من عروسه بواسطة عقد العقد وكتابة الطلسم : (جوهر وأيوب ، ص ١١٦) .

وروى البردونى (ص ٥٣) فيما يخص بعض قبائل اليمن أيضا أن شابا تزوج فلم يتمكن من معاشرة عروسه فاستدعاه أبوه وطلب منه جلية الأمر ، فأخبره الخبر اليقين . وبدا للأب أن شابا كان يعشق زوجة أبنه وأنه عقد خيطا عند عقد الزواج فأصاب ولده بالعنة ، فطلب من ذلك الشاب أن يفك (العقد) من الخيط أو يدلهم على مخبئه لحله ، فأنكر الشاب فعل هذا ، ولكن أبا الزوج لم يقتنع . فأثار القضية عند قبيلته ، وأدت الحادثة إلى ضراب وطعان بين القبيلتين مدة سنة ، حتى أهملت أكثر المزارع نتيجة خوف القرية من بعضها .

ب ـ المرض والموت :

قد يستخدم السحر لدى القبليين العرب بهدف إصابة خصم أو عدو بالمرض بل قد يستخدم بهدف قتله . وقد يستخدم السحر من قبل الراغب فى إلحاق المرض أو الموت بخصمه مباشرة ، وقد يستعين من أجل ذلك بخدمات ساحر محترف ، يحصل على أجر نظير ما يؤديه من عمل .

فلدى قبائل جبال حضرموت كثيرا ما يردون سبب الوفاة إلى عمل سحرى وهو ما قد يؤدى إلى اعتقال المشتبه فيه ومحاكمته (توماس ، ص ١٢٢) . ويقول أحد الباحثين العرب عن قبائل القرا فى ظفار أنهم يعتقدون أن الموت ينجم غالبا عن سحر ساحرة : (اليافعى ، حـ ٢ ، ص ٢١١) .

ثانيا : إستخدام السحر فى تحقيق منفعة :

قد يستخدم السحر من أجل تحقيق منفعة أو دفع مضرة . ونستعرض فيما يلى بعض الحالات التى يستعان فيها بالسحر لتحقيق هذا الغرض .

(أ) الحفاظ على المحبة بين الزوجين أو إستعادتها :

يشيع لدى القبائل العربية إستعانة أحد الزوجين بالسحر لحمل الزوج الآخر على أن يبادله حبا بحب ، أو للحفاظ على المحبة بينهما أو لإستعادة محبته فى حالة فقدها .

فلدى بدو مادبا (العزيزى ، ص ٢٣٥) فى شرق الأردن " إذا خافت المرأة إنصراف قلب زوجها عنها ، صنعت له طعاما يعرف عندهن بـ (طعمة المحبة) ، مؤلف من دماغ حمار نفق حديثا ، قطعة من رئة عنز صبحاء ، ومن كبدها ، ومن الجلدة التى بين عينيها ، ومن أذنها اليسرى ، وتجفف هذه القطع كلها ، بالتحميض على مصباح ، وتسحق وترش على دجاجة مشوية ، أو على رغيف واحد ، مثرود بالسمن ، مرشوش عليه رماد طلسم يدعى (حجاب المحبة ، والقبول) . وتعتقد أن الذى يأكل طعمة المحبة يضحى وكأنه حمار ، لا يفكر فى سوى الأنثى التى تساكنه . وهناك طعمة محبة أخرى قوامها خنفساء ، حرباء ، وزغة . وبعد تحميصها تسحق ، وتذر على طعام يفضله الرجل على غيره ، ويقدم له . وتعتقد النساء أن هذا الطعام يصرف الزوج عن التكفير فى غير امرأته . وفى أمثالهن " طعمة محبة وامزود فيها " ومنها " مطعوم مسقى " . وبعض النساء تقول هذه الكلمات سبع مرات قبل أن تقدم طعمة المحبة لزوجها أو للرجل الذى تريد الإحتفاظ بقلبه :

" يا أم المحبة أنت حبيت قبلنا   وأنا داخلة عليك "
" يا أم المحبة أنت فرحت مثلنا   وأنا داخلة عليك "
" يا أم المحبة إنت بكيت قبلنا   وأنا داخلة عليك "

قلب فلان بن فلانة وداعتك ، خليه على قلبى ، لهلبيه فى نار حبى ، دخيلك يا أم المحبة " .

ويضيف العزيزى : ونحن لا نعلم من أم المحبة هذه ؟ أهذا أثر من آثار عبادة الزهرة ؟ أم هو أثر من آثار عبادة العرب للعزى ، إلهة العشق عندهم ؟ "

وروت سيدة أوربية قامت برحلة فى حضرموت أن فلاحة شابة على جانب كبير من الجمال جاءتها تطلب تعويذة تمكنها من إستعادة زوجها . فقد

كانت تحب زوجها وكان لها منه طفلان ، وتركته وبيته فى سورة إنفعال ، ولم يكن بإستطاعتها العودة إليه إلا إذا طلبها ولم يبد منه ما يدل على ذلك :

ـ ألا تستطيعن العودة إليه وتطلبى العفو منه ؟

ـ لا يمكننا أن نفعل ذلك "

ـ هل ينفع أن أكتب لك خطابا ترسلينه إليه ؟

ـ " نحن لا نفعل ذلك .

وعلقت الرحالة على ذلك بقولها : لم يكن ثمة شيء يمكن أن يعيدها سوى السحر . وقد عادت إلى بيتها وهى حزينة : (ستارك ، ص ١١٥) .

(ب) الشفاء من المرض :

يعتقد القبليون العرب أنه من الممكن الإستعانة بالسحر لشفاء المريض .

فقد ذكر أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر (وصف مصر ، حـ ٢ ، ص ١٠٣) أن العربان يعتقدون بسبب جهلهم وسذاجتهم بأن علاج الحمى وعلاج بقية الأمراض يتم بأن توضع تحت رأس المريض ورقة تحتوى على بعض كلمات سحرية ودينية كتبها أحد الدراويش .

ويقول عالم آخر من علماء الحملة الفرنسية (وصف مصر ، حـ ٢ ، ص ١٩٨) وللتعاويذ والتمائم نفوذها الكبير على العقلية الساذجة لهؤلاء البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون منهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى من رقبته أو تحت إبطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش ، بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر إليهم البدو على أنهم أكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتمائم والرقى ، وقد شاهدت بعضا منهم يحملون

كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لا يفهمونها على الإطلاق بل وكذلك بعض التعاويذ المصرية القديمة . وفى النهاية فإنهم يولون ثقتهم الكبيرة فى التميمة التى عملت خصيصا لمرض أصابهم أكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب وأسراره " .

وفى حضرموت يطاف حول المريض ، بالأخص إذا كان صغيرا ، بحمّل مرارا ، ثم يقطع جزء من أذنه ويعلق فى ذراع المريض ، ثم يذبح ذلك الحمل ويوزع لحمه على الجيران ، بعد أن يأخذ الدجال الذى أشار عليهم بتلك العملية ، جزءا كبيرا منه : (اليافعى ، حـ ٢ ، ص ١٢١) .

وفى اليمن من الخرافات الشائعة علاج الأمراض المختلفة بطرق لا يقبلها عقل أو علم مثل إستعمال الأحجبة والتمائم التى تقى من المرض والحسد وتبعد الجن . وكان الأغنياء يضعون تعاويذ أبنائهم فى غلاف من الفضة ، أما الفقراء فيضعونها فى قطع صغيرة من الجلد (جوهر وأيوب ، ص ١١٥) .

(جـ) تحصين الماشية ضد إعتداءات الحيوانات المختلفة :

من الشائع لدى القبائل العربية إستخدام السحر فى تحصين ماشيتهم من إعتداء الحيوانات المفترسة كالذئاب والضباع ويتمثل هذا التحصين فى تلاوة صيغ سحرية معينة . وقد تتضمن هذه الصيغ الإستعانة باللـه سبحانه وتعالى ورسوله صلعم .

فبدو سيناء مثلا يرقون الحية والذئب والضبع والنمر لئلا تؤذى أغنامهم . ورقيه الذئب والضبع والنمر واحدة وهى : معزانا كورة كورة ، عليهم قطيفة النبى منشورة . إذا جاء من الوادى لجامه هادى ، وإذا جاء من العدوة لجامه هدمه . وإذا جاء من البطين (رأس الجبل) لجامه شريط . فى آذانه فاس وفى خشمه فاس وفى يديه فاس وفى رجليه فاس ، نرميه فى البحر الدواس ، بيننا وبينه الخلة وسبع جمال محملة غلة " : (شقير ، حـ ٢، ص ٣٩٧) .

ويلجأ بدو مادبا إذا أرادوا أن يحموا قطعانهم من الذئاب إلى اللجم ، ويعتقدون أن الغنم الملجوم لها أو عنها كما يقولون يعجز الذئب عن إفتراس شيء منها ، لأنه يظل عاجزا عن فتح فمه ، إذا هاجم القطيع . وهذه هي الكلمات التي يستعملونها في اللجم . يقول اللاجم ، وهو يمسك خنجرا منتضى ، يولجه في الغمد قليلا قليلا ، كلما قال كلمة :

" أولها باسم الله ، وثانيها باسم الله ، وثالثها ثلاث أمانات بالله . صرخ (دانيال) في جب الأسود ، قال " وش بالصوت العظيم ، لا الأرامل انقهرت ، ولا يتامى إنتهرت ، ولا حدود تقلطت ، ولا حجار تقلبت ، إلجم يارب على حلال فلان بن فلانة ، من الوحش والوحشية والضبع والضبعية ، وكل دبابات الأرض ، إلجم يارب ، إلجم يارب " : (العزيزى ، ص ٢١٦) .

ولدى بدو جنوب تونس لا يكتفي البعض بحراسة الرعاة والكلاب ، بل يضيف لذلك (عُقّادة) بضم العين وتشديد القاف المفتوحة . وهي كلمات دعاء محفوظة تتلى في مراح (مبيت) الغنم . وهذه الكلمات تحفظها النساء أكثر من الرجال . وقد نقل المرزوقي هذه الكلمات عن امرأة وحاول أن يفهم منها أولى كلمات (العقادة) غير المفهومة ولكن بدون طائل لأن المرأة تحفظ الكلمات محطمة دون أن تدرى لها معنى .

وهم يعتقدون أن هذه (العقادة) ، إذا تليت عن طهارة وبإخلاص نية ، منعت الغنم من كل ضرر بشرى أو حيوانى ، وأرجعت إليها الشاة الضالة سليمة . وصورة التلاوة : أن يأخذ صاحب الغنم سبع بعرات من أبعارها ، أو سبع (نوايات) من نوى التمر ، يضعها في يده اليمنى ويقرأ عليها (العقادة) وهذه نصها :

النبى صار وغزير ؟ تمساه الليل وارتجى ؟ وقال يا ليل ، يا ليل لم على طرفيك وبعد على شر ما فيك ، من الإنس والإنسية ، والجان والجنية ، والحنش اللى يطوف ، والعقرب العكوف ، والأفعى النفوخ ، والذئب

الطرماس ، والكلب النسناس ، والخانب الدعاس ، والضعين الأعرج ، والزغد الأمرد ، والخيل اللى سارت ، والتريس اللى دارت ، يارب إملأ عيونهم بالطماس ، وركبهم بالرصاص ، نرقدوا وانوضوا ما نشبحوا فيها باس ، لوذ علينا سور وراء سور ، كيف مالاذ على مدينة النبى الرسول ، سور لا يخشوه أرياح ولا يهووه سياح ، لا فيه قفل ولا مفتاح ، مسينا خيار المساء وصبحنا خيار الصباح "

ويعيد هذه الكلمات ثلاث أو سبع مرات ، ثم يدفن البعرات أو النوايات السبعة المجموعة فى يده فى مبيت الغنم ، فيحرسها الله ـ حسب إعتقادهم من كل شر من الإنسان أو الحيوان : (المرزوقى ص ١٢٢) .

(د) تحصين الخيام والدور :

يجرى العرف لدى القبائل العربية باستخدام السحر فى تحصين الخيمة والدار لاسيما عند إقامتها لأول مرة . وتختلف الوسائل السحرية التى تستخدم فى هذا الخصوص باختلاف القبائل . وتتضمن هذه الوسائل عادة ذبح ذبيحة ينلطخ بدمها قوائم الخيمة أو جدران المنزل أو عتبته .

ففى بعض جهات حضرموت يذبح صاحب البيت شاة ويأخذ من دمها بيده ويخضب الباب وبعضهم يذبح شاة أثناء عملية البناء ، ويأكل البناءون لحمها ، ويريقون دمها على الحيطان ، وعندما يدخل صاحب البيت بيته لأول مرة يكسر بيضتين على عتبة الدار وأخريين على الدرج ، وأخريين عند الطابق العلوى : (اليافعى ، ص ١٢١) .

ثالثا : جزاء الساحر :

يهاب القبليون السحر الضار هيبة عظيمة ، ويمقتون الساحر الذى يستخدم سحره فى إلحاق الأذى بالناس مقتا كبيرا . وفى بعض الجهات لا يجرؤ الناس على التعرض للساحر خوفا من إنتقامه ، وفى جهات أخرى يعمد الناس إلى التخلص من الساحر غالبا بقتله .

وقد نقل إلينا دوتى (جـ ٢ ، ص ١٠٦) وصفا شيقا لحوار دار بينه وبين أحد مواطنى قرية من قرى الجزيرة العربية ، يمكننا أن نتبين منه مدى إعتقاد القبليين فى وجود سحرة محترفين ومدى ما يتمتعون به من قدرات خارقة ، ومدى الرعب الذى يلقونه فى نفوس الناس ، وخشية الناس التعرض لهم .

وقد دار الحوار على النحو التالى :
ـ والله يا شيخ خليل (وهو دوتى) الواحدة منهن يمكنها وهى تمتطى عمودا من الخشب أن تذهب إلى المدينة (المنورة) تحت جنح الليل وتعود منها قبل أن يطلع النهار ، ودون أن يدرك ذلك ، فسوف يكن فى بيوتهن قبل أن يصحوا الناس من نومهم .

ـ كيف يمكن لساحرة لها زوج أن تتجول ليلا دون أن يعرف زوجها ذلك .

ـ إذا أخذت بين أصابعها قليلا من تراب الأرض ونثرته على جبهته ، فسوف يغشاه نوم عميق حتى الصباح . وحتى لو عرف أحدهم أن زوجته ساحرة فلن يجرؤ على إظهار ذلك أو على تطليقها ، لأنها قد تتسبب فى هلاكه بصورة تعسة ، ومع ذلك فمعظم الساحرات معروفات وإحداهن جارة لنا . وعندما يأتى وقت النوم يتجولن خلال طرقات القرية وأنا أحذرك يا شيخ خليل ، فقد يحدث فى لحظة شىء غير متوقع . ولذلك كن حريصا عند عودتك إلى البيت ليلا .

ـ إننى أفضل أن أراهن .

ـ آه لا تكن متهورا هكذا فى الحديث إلا إذا كانت لديك بعض التعاويذ القوية لكى تتفوه بها فى مواجهتهن . لقد سمعت أن دخيل الله (رجل طيب) تقابل مرة مع الساحرات فصاح فى وجههن بكلمات من القرآن وضعها الله فى قلبه ، فهربن منه وهن يصرخن أن أزواج جهنم قد أتوا إليهن " .

وتنتمى الساحرات إلـى كل الأعمـار ، ولهـن شيخ وهـو رجل ، وهـو معروف أيضا " .

ـ ولماذا لا يعاقبن ؟

ـ والله بسبب الخوف من مكرهن . والسـاحرات يجتمعـن فـى سـاعات السكون ليلا ، ويجلسن فوق أكوام القاذورات ، ويتجردن من ثيابهن ، ويدهـن أجسـادهن بلبـن البقـر (وينظـر إليـه فـى الجزيـرة العربيـة بوصفـه ذا طبيعـة علاجية) ثم تصيح الساحرات " لقد خرجنا عن الإسلام " . ولهذا يتصرمحـن فى الطرقات المعتمة ، والويل لأى رجل يعود متأخرا بالليل إذا تقـابلن معـه . لأنهن سوف يكرهنه على النوم معهن ، وإذا أنكر عليهن ذلـك ، سـخطنه فـى هيئة حيوان : ثور أو حصان أو حمار . وسوف يفقد فيما بعد عقله ، ويمـوت ميتة تعسة . لكنهن والله يأكلن قلب من يوافقهن (وهو يكـون علـى بينـة مـن ذلك) ويمصصن دمه من جسده الحى ، وبعد ذلـك سـوف يصبـح معتوهـا أو سوف يظل رجلا تائها طيلة عمره " .

وعلى العكس من ذلك لا يتردد الناس فى قبائل أخرى من التخلص مـن السحرة ولو بقتلهم .

ففى جبال حضرموت يقف الناس مـن المعسرين موقفا متحـاملا . فهم يعتقدون أن المعمر وراءه قوة خارقة ، هى المسئولة عن بقائه حيا حتـى تلـك السن وفى كثير من الأحوال تعتبر وفاة أحد الأفراد نتيجـة لأعمـال سـحرية ، الأمر الذى يعرض المشتبه فيهم إلـى القبـض عليهـم ومحـاكمتهم وتوقيـع أشـد الجزاء بهم . فقد قتل شيخ إحـدى القبـائل ابـن عمـه ، وكـان متهمـا بممارسـة أعمال السحر ، وقد قوبـل هـذا العمـل بالإستحسـان والتـأييد . كذلـك اعدمـت امرأة كانت مشهورة بالسحر ، إذ ألقى القبـض عليهـا أولا ، ثـم طبقـت عليهـا البشعة وبرئت من التهمة ، غير أن ذلك لم يشفع لها عند رجـال قبيلتهـا ، فتـم إعدامها بطريقة تعد من أسوء الطرق البدائية ، وبدون محاكمـة : (تومـاس ، ص ١٢٢) .

الفصل الحادى عشر
ضرب العين أو الحسد

يسود لدى القبليين العرب الإعتقاد فيما يسمى بضربة العين أو عين السوء أو العين الشريرة . ففى إعتقادهم أن بعض الأشخاص يمكنهم ، نظرا لما يتمتعون به من قوى خارقة ، إلحاق الأذى بأموال الآخرين أو أبدانهم أو صحتهم أو حتى حياتهم ، وذلك بمجرد نظرة عين يلقونها على ضحيتهم . فصاحب العين الشريرة أو الردية يتمتع بقدرة خارقة يمكنها إحداث أثر على خلاف مقتضى القواعد العادية والسنن المألوفة .

وقد يصيب الأذى كما سبق القول الأموال بكل صورها ، كما قد يصيب الإنسان فى صحته أو بدنه أو حتى حياته . وقد تمخض العرف القبلى عن وسائل تستهدف توقى أثر ضربة العين أو القضاء على هذا الأثر .

ونستعرض فيما يلى صورا من الأذى الذى قد تلحقه ضربة العين والوسائل التى يضعها العرف فى متناول صاحب الشأن لتوقى هذا الأذى أو للخلاص منه .

(أ) ضربة العين قد تصيب المال :

قد تنصب ضربة العين على مال من الأموال فتتلفه أو تدمره . فقد تنصب ضربة العين على حيوان مملوك لآخر فتصيبه بأذى أيا كان نوع هذا الأذى ، وقد تؤدى إلى موته .

فلدى بعض قبائل عمان : " إذا مرضت الحيوانات وامتنعت عن إدرار اللين على سبيل المثال فإنهم يعزون ذلك إلى الحسد " أى العين " فيعمدون إلى تبخيرها باللبان إما وقت شروق الشمس أو عند غروبها . وتتم العملية بأن يحضر صاحب البقرة المصابة مبخرة ويضع فيها بعض العيدان ، ثم يبصق فى المبخرة ثلاث مرات ، فى الوقت الذى يمسك فيه أثنان من زملائه البقرة أحدهما من فكها والثانى من ذيلها مع ليه قليلا ، ورفع رجليها الخلفيتين ،

بينما يقوم صاحبها بتمرير المبخرة فوق جسمها فى حركات دائرية وهو يتلو بعض التعاويذ باللهجة السحرية معناها " إنظرى إلى بخورك من اللبان والجمر ، من عين الحسود من الناس من مكان بعيد من أحبائك أقربائك من بعيد ، إذا كان منى فردى العين وإذا كان من غيرى فردى العين أيضا من عين الحسود من الناس . أنا رجل جئتك بكفارة من عين الحسود رجلا كان أو امرأة ، أنظرى إلى بخورك من اللبان والجمر " . (توماس ، ص١١٢)

ولدى قبيلة الفقراء : يسود الإعتقاد فى عين الحسود أو " ضرب العين " وهى موضع رهبة شديدة . وشاعت بينهم قصة " إبن رمان " فى تيماء . فقد كانت إبل هذا الشيخ تمتاح الماء من بئر القرية ، عندما قدم شخص يدعى " مرعى " شرع فى النظر إلى هذه الحيوانات بعين ردية ، وبعد بضع لحظات سقطت ناقة وماتت فى الحال . وسارع ابن رمان عند إبلاغه بهذا الحادث إلى سؤال المشرف على الأعمال . ولم يكن هذا الأخير يعرف كيف وقع الحادث ، لكنه قرر أنه شاهد " مرعى " يتوقف لمراقبة الحيوانات . وأدرك " ابن رمان " فى الحال سبب الأذى الذى حل به . وبغاية السرعة توجه إلى بيت " مرعى " وناداه باسمه . وشاهد بعد قليل عدوه يخرج من بيته وعندئذ ثبت عليه عينا غاضبة . وفى نفس الوقت وجه إلى وجهه عصا مسنونة . وأطلق " مرعى " صرخة حادة ، واضعا يده على عينه اليمنى التى ضربت للتو . وعاد ابن رمان إلى بيته وهو يشعر بالإرتياح لأخذه بثأره ويعمل الفقراء على حماية أنفسهم من صاحب العين الشريرة ويعرفون لتحقيق هذا الهدف عدة وسائل . من هذه الوسائل أن يلاحظوا أثر إقدامه على الأرض ويجمعوا التراب الذى يحمل هذا الأثر بادئين بالطرف الذى توجد به أصابع القدم . ثم يوضع هذا التراب فى ثقب ويبول عليه أحدهم . وهذه ، على ما يبدو ، أفضل وسيلة للوقاية من ضربات العين الشريرة .

ويستخدمون أيضا الحجاب فيجمع فى جراب صغير قليل من الشب ، وبعض شعرات من الرجل المعروف بضرب العين وقلامات أظافر سبعة أصابع ، وبعض حبات (النقد) . ويعلق الجراب إلى رقبة الطفل أو البعير أو الفرس ": " لأن كل ما هو جميل فى الصحراء يثير الغيرة ، ومن اللازم

حمايته ضد العين الشريرة : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٦٦) .

وفى اليمن يستعمل بعض الناس للوقاية من العين صورة كف أو نعالا أو حدوة حصان . والمعروف أن الحصان كان يمثل الإلهة الشمس حين كان الأجداد يعبدون الأفلاك السيارة : (لقمان ، ص ١٠٤) .

ثانيا : ضربة العين قد تصيب البشر :

من المعتقدات الشائعة لدى القبليين العرب أن ضربة العين قد تصيب البشر . والأطفال وبخاصة الذكور منهم أكثر تعرضا لهذه الضربة من غيرهم . ولهذا فإن الوالدين وبخاصة الأم لا يألوان جهدا فى إتخاذ كل التدابير والإحتياطات الكفيلة بوقاية أطفالهما من ضربة العين ، وإذا حدث أن تعرض طفل لضربة عين فثمة وسائل جرى بها العرف تستهدف علاج الطفل من أثر هذه الضربة .

فعلى سبيل المثال يعمد بدو مادبا من أجل إتقاء العين الشريرة إلى تسمية أولادهم وبناتهم أقبح الأسماء ، مثل (أحماره) للإنثى و (حماران) للذكر و(شناعة) ونحو ذلك . ومن الأشياء التى يتخذونها إتقاءا للعين الشريرة : " ناب الخنزير " ، والخرزة الزرقاء وحدوة الفرس ، وكف من الدهب أو الفضة " .

وإذا أصيب الطفل رغم كل هذه الإحتياطات ، أحرقت النساء عنده : " الشبه على نار متخذة من سعف النخيل ، الذى صلى عليه يوم الشعانين عند النصارى ، ويلقى فى هذه النار قطعة من ملابس الشخص المتهم بأنه هو الذى أصاب الطفل بالعين ، وتقول للتى تدير الشبه ما يلى : " عين الحسود فيها عود . عين الجار فيها مسمار ، عين الجارة فيها وعارة ، عين الشباب فيها رياب ، عين البنت فيها حنت . برا ياشر برا ياشر برا ياشر ، برا ياشر عن فلان بن فلانة روح لكل مبغض وحساد عينه فارغة " . : (العزيزى ، ص ٢١٧) .

ويعلق بدو سيناء الخرز الزرق فى أعناق أطفالهم وإبلهم وخيلهم العزيزة عندهم لدرء العين الشريرة . وبعض شبابهم يعلقون الخرز الزرق فى مرائرهم لدرء العين : (شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٩٦) .

وفى اليمن تطلق على الأطفال أسماء غريبة الغرض منها حمايتهم من العين . من هذه الأسماء عبد وعبيد وجارية وخادم وشوعى (قبيح) وكدافة (زبالة) وخيبة وناقص ، وأسماء حيوانات مثل كلب وكليب وبقرة وثور وحمار وذئب . وكثيرا ما يربطون حول عنق الطفل أو خصره ، فى كيس من الفضة أو الجلد ، قطعة صغيرة من الحديد أو الرصاص أو سن قط أو سن ضبع أو حبة سوداء ، أو إبر أو دبابيس . وعلاج من أصيب بالعين الشريرة هو أن يحاول أهله أخذ قطعة صغيرة من ملابس صاحب العين أو شيئا من شعره لتبخير المصاب به : (لقمان ، ص ١٠٣) .

وفى عمان يستعمل الحجاب أو التمائم ، لحماية الطفل من العيون الحاسدة ، وكانت تسمى " حماية أو حرز " . وهو بالنسبة لأبناء الطبقة الوسطى كيس جلدى صغير يربط إلى الذراع الأيسر ويحوى بصلة وثومة وعظما ــ أو صدفة ــ ويستعاض عن هذا الحجاب لدى أبناء الطبقات العليا بآيات قرآنية منقوشة على قطعة من الذهب أو الفضة تتدلى بسلسلة فى عنق الطفل : (السيدة سالمة ، ص ١١٩) .

وفى حضرموت ذكر مرافق من أبناء البلاد لإحدى الرحالات (ستارك ، ص ٢٠٢) أن هناك كثيرا من الأدوية للشفاء من العين الشريرة ، منها البصق وقول ما شاء الله ، والحصول على قطعة من ثوب صاحب العين أو قليل من شعره وتدخينها وتمريرها ثلاث مرات بصورة دائرية حول مبخرة .

ولدى شيعة البحرين (زويمر ، ص ٢٢٤) تقتل الأفاعى الصغيرة وتوضع فى الشمس مع قليل من الملح وعندما يجف اللحم تماما يقطع ويوضع فى حقائب وتحمل كتعويذة ضد عين الحسود . ويضع الأغنياء تعاويذهم فى علب من الذهب ، بينما يكتفى الفقراء بحقائب جلدية .

وفى اليمن إذا أصيب أحد بالعين الشريرة وعرف أهل المصاب صاحب العين ، يحاولون أن يأخذوا قطعة صغيرة من ملابسه أو شيئا من شعره يبخرون به المصاب : (لقمان ، ص ١٠٤) .

ولدى قبائل شمال شرق الجزيرة العربية عندما يولد لإمرأة بدوية طفل لابد من وضع سكين أو قطعة من الصلب أو حتى إبرة أو مخرز فى مهد الطفل أو تعلق فى ثياب الطفل . ولا يمكن للأم أن تحرك الطفل بدون أن تنتقل معه هذه القطعة من الصلب . والمهم هو أن يكون الشى من الحديد أو الصلب فالذهب مثلا لا يؤدى الغرض والفكرة فى ذلك هى أنه بطرد عين الحسود . وهذه العادة عامة لدى قبائل مطير والظفير وشمر وعجمان والعوازم ، ومن المحتمل وجودها لدى كل القبائل الصحراوية : (ديكسون ، ص ١٧٥) .

وفى قرية ترمسعيا بفلسطين إذا ما تطلع رجل أو امرأة إلى طفل واستحسن منظره (أى حسده) فإن أمه تأخذ من ثار " الحسود " ، " وتدعق " النار فى قطعة القماش التى أخذتها وتأخذ فى تمرير الدخان حول رأس الطفل قائلة : " أرقيك وأسترقيك (رقيتك وأسترقيتك) من عين العدو والصديق ومن عين اللى ما يصلى على النبى " وتصلى على النبى ثلاث مرات . وقد يتم ذلك بدون كلام .

كما تقول أيضا بعد أن تمسك بالإبرة وتلف بها حول الطفل بيدها " باسم الله الرحمن الرحيم ، حوطتك بالله ثنيتك بالله ثلثتك بالله ربعتك بالله . . . حتى عشرتك فى عشرة نبينا ، اللهم صلى على سيدنا محمد، عين الحسود فيها عود ، عين الجار فيها نار ، عين الضيف فيها سيف ، عين المره فيها خره ، حلفتك يا عين فى سيدنا سليمان لا تعبرى لنا دار ولا تؤذى لنا صغار ، اخرجى يا عين ، اللهم صلى على سيدنا محمد ، أخرجى يا عين من بين الظفرين " : (دراسة فى المجتمع والتراث الشعبى الفلسطينى ، ص ١٦١) .

وفى مصر يسود الإعتقاد فى الجسد وعين السوء ويشكل هذا الإعتقاد

مصدر رعب وفزع لأهل القرى بصفة خاصة . وقد وصفت باحثة إنجليزية فى أوائل القرن الحالى موقف أهل بعض قرى الصعيد من الحسد بقولها :

" الخوف من عين الحسود يرعب الفلاحين المصريين من المهد إلى اللحد . وهذا هو السبب الذى من أجله يعتقدون أن من يترك طفله يبدو جميلا هو إنسان مجرد من الحكمة لأنه سوف يتعرض ، بين ما يتعرض له ، إلى هجمات العين الحاسدة . فالقذارة التى تتراكم على بعض هؤلاء التعساء من صغار البشر ، تمثل دونما شك ، حماية يفترض أنها فعالة للغاية ضد كل نوع من أنواع العين الحاسدة " : (بلاكمان ، ١٨٥) .

وإذا بدت على الطفل بعد زيارة الأم من قبل صديقاتها أو جاراتها بعض علامت المرض إفترضت الأم فى الحال أن إحدى الضيفات ضربته بعينها الحاسدة . ومن ثم تقطع صورة بشرية من الورق ، ثم تمسك بدبوس وتكرر أسماء زائراتها واحدة بعد أخرى وهى تخرق الورق كلما نطقت باسم منها وبعد أن تنتهى تأخذ قطعة من الشب وتدعك بها جبهة الطفل ، ثم تضعها فى النار ، وتجعل الطفل يخطو فوق النار سبع مرات متتاليات . وتترك الشب المحترق حتى يصبح مجرد رماد تستخرجه المرأة من الموقد وتدوسه بقدمها . ومن ثم يقضى على الشر الناجم عن الحسد ويسترد الطفل عافيته .

وهناك وسيلة أخرى لإستبعاد هذا التأثير المؤذى ، حيث يلقى بالطين خلف الشخص الذى يشتبه فى إلقائه نظرة شريرة أثناء مروره فى الشارع أو الطريق . أو تقطع خفية ، باستخدام سكين حاده ، قطعة من الثوب الفوقى الذى يرتديه الشخص المشتبه فيه وتوضع الخرقة فى صحن صغير يحترق على بخور مشتعل . ويحرك ذلك فى مواجهة الشخص المعرض للخطر ، بحيث يمر الدخان فوقه ويقضى بذلك على الأثر الضار . كذلك يمكن كسر أى شىء مصنوع من الفخار خلف ظهر من يعتقد فى أن له عينا حاسدة : (بلاكمان ، ص ١٨٥) .

وإذا كان لإمرأة طفل بصحة جيدة واستقبلت الأم زائرات ، تلاحظ الأم

جيدا ما إذا كان الطفل بكى أم لم يبك عقب مغادرتهن فإذا كان بكى إعتقدت إعتقادا جازما أن واحدة أو أكثر من بينهن نظرت إلى الطفل نظرة حاسدة . وللقضاء على أثرها تأخذ قبضات من الملح بعدد اللاتى جئن للزيارة وتلقى بها إلى النار واحدة بعد أخرى ، أو كلما هبت شعلة . فكل منهن ، مثلها مثل الشعلة ، سوف ينطفىء ونظرة الحسود سوف تتحلل وكل شر أتت به إلى الطفل سوف يزول . وهذه العادة شائعة على السواء بين المسلمين والأقباط فى مصر كلها : (بلاكمان ، ص ١٨٦) .

كذلك تتخذ بالنسبة للبيوت إجراءات حماية من عين الحسود . وتستخدم لهذا الغرض زخرفات متنوعة فقد ترصع فى الحائط صينية أو صحن أعلى المدخل الرئيسى مباشرة ، أو قد تؤخذ بعض أنقاض من نحت قديم ويوضع على هيئة دائرة فى البناء . كذلك قد تعلق قرون كبش أو حيوانات أخرى فوق المدخل ، وهذه أيضا تميمة تحفظ البيت من هجمات عين الحسود . وفى داخل البيت وعلى حوائط الغرف ، هناك رسومات ملونة بألوان متعددة ، بقصد إستبعاد عين الحسود . وفى الواقع هناك العديد من الإختراعات التى يستعان بها لدفع هذا الخطر المفزع وسواء تعلق الأمر ببيوت أم بحقول أم بحيوانات ، أم ببشر أيا كان عمرهم : (بلاكمان ، ص ٩١) .

وفى المغرب يسود الإعتقاد فى عين الحسود وأنها من الممكن أن تتسبب فى أضرار فادحة . وينعكس هذا الإعتقاد فى بعض أمثالهم . من هذه الأمثال : " عين الحسود تفرغ البيوت وتملأ القبور " ، " نصف البشر يموتون من عين الحسود " ،" ثلثا الجبانة مردها إلى عين الحسود " . (وسترمارك ، ص ٣٤) .

والقدرة الكامنة فى عين الحسود لا تتوفر لدى كل إنسان ، فهناك أشخاص يحوزونها بقدر اكبر بكثير من غيرهم . ويعتبر الأشخاص ذوو العيون الغائرة ، وأولئك الذين تلتحم حواجبهم عند منبت أنوفهم يعتبرون من أكثرهم خطورة كذلك تبعث العيون الزرقاء ، حيثما تكون نادرة ، قدرا كبيرا من الخوف وتثير عيون النساء من الفزع أكثر مما تثيره عيون الرجال

لاسيما عندما يكن عجائز أو مخطوبات : (وسترمارك ، ص ٤٤) .

ويعرف المغاربة وسائل عدة للوقاية أو التخلص من الأثر الضار لعين الحسود . وأفضل وسيلة للوقاية من عين الحسود هى عدم التعرض لها . ولعل هذا من بين الأسباب التى حملت المغاربة على إلزام النساء القعود فى البيوت وعدم الخروج ، وإلزامهن فى حالة الخروج ، بوضع نقاب يخفى معالم الوجه وبالتالى يحول دون توجيه نظرات حاسدة إليه . وقد بلغ الأمر حد تغطية عينى العروس وفى بعض مناطق المغرب وضعها فى قفص أو صندوق عند نقلها إلى مقرها الجديد . كذلك ينفر المغاربة من الحديث عن نواياهم المقبلة . ويجرى المثل عندهم " الفم المغلق لا يدخله ذباب " . وأسرع وسيلة للوقاية ضد الشخص الذى تخشى أن تتسبب لك عينه فى أذى هى أن تمد يدك اليمنى فى إتجاهه وتقول " خمسة فى عينك " أو خمسة على عينك " . ولن تخسر شيئا إذا كررت ذلك مستخدما هذه المرة يدك اليسرى وتقول " خمسة وخميسة " أو حتى " الخمسة " . كذلك يستخدم كتعويذة ضد العين صليب يتقاطع خطاه عند نقطة الإلتقاء بزوايا قائمة . كذلك تستخدم صورة العين لدفع عين الحسود فإذا كانت الطاقة المؤذية تنتقل عن طريق العين فلماذا لا تستخدم العين أيضا فى صدها . ولهذا يشيع إستخدام صورة العين أو عينين أو شىء يشبهها بل فى بعض الأحيان تستخدم عين حقيقية ، مثلا عين هدهد أو عين بومة ، تعلق بخيط إلى رقبة الطفل لوقايته . كذلك يستخدم المثلث كتعويذة ضد العين ، حيث يطوى الحجاب على شكل مثلث ويوضع فى كيس جلدى بنفس الشكل ويعلق إلى رقبة الإنسان أو الحيوان المراد حمايته من عين الحسود . (وسترمارك ، ص ٣٧ وما بعدها) .

الفصل الثانى عشر
بركـــة اللعاب

يسود فى بعض المجتمعات القبلية ، كما هو الحال مثلا لدى بعض قبائل غرب وجنوب افريقية ، الإعتقاد فى أن لعاب الإنسان ينطوى على نوع من البركة لدرجة أن بعض القبائل يطلق أسما واحدا على البصاق والبركة .

ولدى عديد من القبائل العربية المعاصرة نجد إعتقادا مماثلا ، حيث يعتقد القوم فى أن اللعاب يمكنه شفاء المريض : إنسانا كان أم حيوانا . بل أن من القبائل ما يعتقد أن إنتقال اللعاب من شخص إلى آخر يمكنه أن ينقل بعض خصائص صاحب اللعاب إلى من نقل إليه ولعل ذلك راجع إلى الإعتقاد بأن اللعاب يحمل فى طياته خصائص صاحبه . ولهذا فإن كان صاحب اللعاب معروفا بالورع والتقوى كان لعابه كفيلا بشفاء المريض الذى نقل إليه اللعاب .

والشواهد على إعتقاد القبليين العرب فى مفعول اللعاب كثيرة وهى شواهد إنتقلت إلينا من جهات متفرقة من الجزيرة العربية .

فالبصاق قد يستخدم لعلاج بعير مريض . فقد روى أحد الرحالة الغربيين (دوتى ، جـ ٢ ، ص ١٦٤) أنه رأى مرة " صالحا " مشغولا بمداواة ذلول أجرب ، فكان يجلس وأمامه إناء به ماء ، وبعد أن زمزم فوقه بصق فيه ، وزمزم بصورة إحتفالية وبصق مرات عديدة ، وبعد نصف ساعة من هذا العمل أخذ الماء إلى البهيمة لتشربه .

كذلك قد يستخدم اللعاب فى علاج البشر .

ففى جنوب الجزيرة العربية ، لا سيما فى حضرموت ، توجد فئة من الناس يسمون السادة يدعون أنهم من نسل النبى (صلعم) عن طريق إبنته

خدمة . ويتمتع هؤلاء السادة ، نظرا لنسبهم الرفيع ، بمكانة سامية وهم موضع تبجيل عظيم وإحترام بالغ . ويسود الإعتقاد فى تلك الجهات بأن لمسة السيد أو الشريفة (ويطلق هذا اللقب على المرأة . التى تنتمى إلى هذه الفئة) يمكنها أن تشفى من المرض بسبب ما تحمله من بركة تستمدها من مكانة صاحبها الدينية ، ولأنه من ذرية النبى صلعم .

يقول اليافعى (ص ١٢٠) أنه يوجد فى الروحانيين ، وبوجه أخص فى العلويين ، من يصنع التمائم والعزائم للمرضى وغيرهم من طلاب الحاجات ، ويبالغ بعض الدجالين ، من أصحاب السلطة الروحية ، فيسقون المريض ماء ممزوجا ببزاقهم للشفاء ، ويتجرع هذا المريض (المغفل) ذلك البزاق القذر ، وهو مسرور كل السرور ، مُتوهما أن الشفاء آت لا ريب فيه .

وروت رحالة إنجليزية (انجرامز ، ص ٥٠) أنه فى أثناء رحلتها فى حضرموت كثيرا ما أخجل الناس تواضعها بإعتقادهم أنها تملك القدرة على شفاء المرضى وأنها تمنت عندئذ لو أنها كانت حصلت على الأقل على بعض التدريب الطبى . ومع ذلك ففى إحدى المناسبات ، فى زيارة أخرى لمدينة حريضة كانت هى التى ظنوا أنها بحاجة إلى مساعدة . فقد تحلق حولها ، عندما جلسن لتناول القهوة ، عدد من الشريفات وقد إرتدين عباءاتهن البيضاء اللاتى يرتدينها عندما يخرجن من بيوتهن وسألتها إحداهن عما إذا كان لها أولاد من لحمها ودمها وعندما أجابتها بالنفى ، أخذت فنجانها وتفلت فيه وردته إليها قائلة : " أنا شريفة إذا شربت هذا فسوف يكون لك ولد " . ولم يكن هناك مفر ، وكان لابد لها أن تشربه .

لكن الإعتقاد فى قدرة اللعاب على الشفاء من المرض ليس مقصورا على جنوب الجزيرة العربية وليس مقصورا على فئة السادة ، بل يبدو أنه شائع فى شبه الجزيرة كلها كما انه ليس حكرا على السادة .

فقد ذكر أحد الرحالة الغربيين (دوتى ، حـ ١، ص ٥٢٧) أن أما

شابة ، رغم كونها فتاة نحيفة ، ، جاءته بطفلها البـائس ورجتـه أن يتفل علـى عينى الطفل المريضتين . وأضاف أنه وجد هذه العادة السامية القديمة فى كـل مكان ذهب إليه فى الجزيرة العربية . فقد أحضر إليه بعض أبناء قبيلة مطـير فى " القصيم " خبزا وأحضر البعـض الآخر ملحـا لكـى يتفل عليـه مـن أجـل أصدقائهم المرضى . وعندما لامهم على خرافتهم أجابوا ببساطة أن هـذه هـى العادة عندهم منذ زمن لا تعيه الذاكرة .

وروت باحثـة إنجليزيـة قـامت بدراسـات أنتربولوجيـة فـى بعـض قـرى صعيد مصر فى أوائل العشرينات من القرن الحـالى أن نسـاءا جئـن إليهـا ـ مـرات عديـدة مختلفـة ، بأطفـالهن ورجونهـا أن تتفضـل بـالتفل فــى أفواههـم الصغيرة لمنحهم البركة وضمان حياة طويلة لهم (بلاكمان ، ص ٥٣) .

كذلك الحال فى المغرب حيث يسود الإعتقـاد فـى أن التفل هـو إحـدى الوسائل لنقل البركة من شــخص إلـى آخـر فقـد ذكـر وسـترمارك (ص ١١٤) أنه فى وسع أحد الأولياء ، الذين على قيد الحياة ، أن ينقل بركته إلـى خادمـه وذلك بأن يتفل فى فمه ، ويمكنه أن يتناول الطعام فى حضوره فـى آخـر يـوم يمضيانه معا ، ثم يأمره بأن يأكل ما تبقى من طعامه ، وبعد أن ينتهى الخـادم من طعامه ، ليس على الولى إلا أن يقول له " لقد أكلـت مـن خـبزى " ويعنـى هذا أنه قد حصل على نصيب من بركته .

ولا يقتصـر الإعتقاد فى مفعول اللعـاب فـى شـفاء المـرض علـى أبنـاء البادية أو القرى الصغيرة بل ثمة شواهد تدل على إستمرار الإعتقاد فيه حتـى بين أهل المدن .

فقد روى أن رجلا من إحدى البلاد الغربية قال لأحـد زملائـه منفعـلا ، فى إحدى مدن الجزيرة العربية :

ـ ماذا تظن أننى رأيت حالا ؟

ـ ماذا رأيت وأين ؟

ـ لقد كانت هناك جماعة من النساء العربيات واقفات خارج الباب الكبير للمسجد ، يحملن جميعا فى أيديهن فناجين وأكوابا .

ـ إنهن شحاذات ، وهن ينتظرن خروج الرجال بعد الصلاة .

ـ لا لسن شحاذات ، لأننى رأيت الشحاذات عند باب آخر ، وفضلا عن ذلك فإن الرجال عند خروجهم من المسجد كانوا ، وهو أمر يصعب تصديقه ، يتفلون مباشرة فى الفناجين والأكواب والأوانى التى يقدمها إليهم النساء والأطفال بل والرجال . وكان البعض يتفل فى الفنجان بعد الآخر . إننى لم أشاهد شيئا كهذا طيلة حياتى .

ـ أنه فى الحقيقة شىء فى منتهى الغرابة وليس أدعى منه إلى التقزز . ماذا كانوا يفعلون ؟ إننى على يقين من عدم معرفة ذلك . لماذا لا نذهب ونسأل أحد المسلمين عنه ؟

وبعد قليل عاد وهو مشمئز تماما .

ـ هل إكتشفت السبب ؟

ـ نعم ، وهو أكثر شىء يدعو إلى التقزز . ما كان من الممكن أن أصدقه لولا أن واحدا من ديانتهم أخبرنى . فهؤلاء الناس الذين يحملون الفناجين والأوانى لهم صديق أو أحد أفراد الأسرة مريض ، وهم يجمعون لعاب الرجال الذين أنهوا صلاتهم توا ، من أجل المرضى فى البيوت : (زويمر ، ص ١٦٥) .

ولا شك أن الحرص على جمع لعاب المصلين يرجع إلى إعتقاد القوم أن هذا اللعاب يحتوى على بركة خاصة ، لأن صاحبه كان يصلى ويتلو

القرآن منذ زمن قصير . ومن ثم فإن هذا اللعاب ، بما فيه من بركة ، قادر على شفاء المرضى .

وقريب من ذلك ما رواه بن جبير (ص ٢٥٩) من أن المشارقة يعظمون الحاج ، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . وأن الناس خرجوا لتلقى الحاج عند صدورهم إلى دمشق ، نساءا ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا إليهم الأطعمة ، وأن كثيرا من النساء كن يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز ، فإذا عض الحاج فيه إختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له ودفعن له عوضا عنه دراهم .

ويسود لدى بعض القبائل العربية الإعتقاد فى أن اللعاب يحمل صفات صاحبه ومن الممكن أن ينقلها إلى من ينتقل إليه اللعاب .

فبدو سيناء على سبيل المثال يعظمون الفارس الشجاع ، ويسقون أطفالهم من ريقه . وذلك بأن يأخذ الفارس ريقه بحد السيف ويلقمه الولد ، أو يلقم الولد الريق رأسا فى فمه " (شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٦٩) .

الفصل الثالث عشر
العرافـة

التلهف على معرفة أحداث المستقبل يكاد يكون ميلا فطريـا بالإنسـان . فكل امـرىء يـود لـو إستطاع أن يطلـع علـى الغيـب . ولعـل هـذا الميـل إلـى استكناه الغيب أشد لدى القبليين منه لدى غيرهم . ويشـعر القبليـون العـرب ، شـأنهم شـأن غيرهم ، بميـل شـديد إلـى التعـرف علـى أحـداث المسـتقبل قبـل وقوعها وقد جرت عادتهم باستخدام وسائل متعـددة يعتقـدون فـى فعاليتهـا فـى تحقيق رغبتهم ، نستعرض بعضا منها فيما يلى :

ففـى بعـض جهـات حضرمـوت (حريضـة) مـا زالـت العـادة الوثنيـة القديمة ، والتى تتمثل فى إستخدام السهام كأداة للعرافة ، قائمة ، حيـث يذهـب الناس لزيارة الساحر أو العراف فى أحد الكهوف ، وبعد أن يقدموا له ما طلبه من لحم أو دقيق أو غير ذلك ، يلقون السهام التى يقـوم العـراف بقراءتهـا بعـد سقوطها : (ستارك ، ص ٩٦) .

ولدى قبيلة الفقراء (شـمال الحجـاز) عندمـا يرحـل الرجـال مـن أجـل غزوة يكونون دائما قلقين فيما يخص نجاح المشـروع . ولمعرفـة هـذا الغيـب المجهول يخطون فوق الرمل خطا يتراوح طوله بين ٥٠ ، ٦٠ سنتيمترا ، ثـم يلصق رجل إصبعيه على الخط ، بادئا بالوسط ومتجها إلـى اليميـن ، ثـم يبدأ العملية من الناحية اليسرى ، فإذا تبين عند الوصـول إلـى طـرف الخـط إتفـاق الإصبعين الملتصقين معا مع طوله مـن الناحيـة اليمنـي ، وعـدم إتفاقهمـا مـن الناحية اليسرى ، فإن الغزوة سوف يحالفها النجاح وإلا فلن تحقق أى كسب ، بل سوف تكون نحسا . (جوسـان وسـافينياك ، مجلـة العـرب ، جــ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٢٦٥) .

ويقول أحد الرحالة الغربيين (موسيل ، العربية الصحراوية ، ص ٤٦) عن العرافـة والعرافيـن لـدى بـدو شـمال الجزيـرة العربيـة ، أنـه أثنـاء سـيرنا ترامت إلينا من المضرب أصوات طبول ودفوف مع صيحـات حـادة لرجـل .

وكان من رأى بليهان (مرافق له) أن عرافا (صاحب السر) ربما أصابه الإنجذاب بسبب أصوات الطبول والدفوف . والعرافون (أهل السر) هم رجال أو نساء يطلعهم اللـه من خلال رسوله على سر الغيب . ويلازمهم حواريون يعزفون على مختلف الآلات ، فى أكثر الأحيان على طبول أو دفوف ، إلى أن يصبح العراف فى حالة إنجذاب ويتحول إلى متحدث باسم رسول الله ، فيكرر كلماتـه . وقبائل السبعة والعمارات يقدرون العرافين ، بينما يقوم الروالة بطردهم .

وثمة طريقة طريفة يجرى بها العرف لدى بعض قبائل اليمن من شأنها أن تؤدى إلى إستنطاق جثة القتيل لكى يصرخ باسم من قتله فى حالة كونه مجهولا .

" إذا إغتيل إنسان وأريد معرفة قاتله ، قام أهل القتيل بمعونة بعض السحرة والكهان إلى سلم فربطوا القتيل إليه عرضا ، وحملوه إلى مكان بعيد بين الجبال حيث لا يسمع نباح الكلاب ولا الأصوات المزعجة ، وعلقوا السلم على شجرة ، ثم عمدوا إلى حفرة فى الأرض تتسع لجلوس شخص واحد فوضعوا فوقها صخرة كبيرة بحيث تغطيهاإلا فتحة صغيرة موجهة لوجه القتيل المعلق على السلم المربوط إلى الشجرة . وينصرف رفاق المختبىء فى الحفرة إلى مكان منعزل لا يشاهدون منه . فإذا جن الليل أنصت المختبىء فى الحفرة وحدق فى وجه القتيل منتظرا وقوع الإعجوبة ، وإذا بطير كبير يشبه النسر ينحط من السماء على عالى الشجرة مقابل الميت ، ثم تبدأ عملية الإستجواب والإستنطاق : (حمزه ، ص ١٣٦) .

ويمارس بدو جنوب تونس العرافة ـ ويسمونها التاقزة ـ ولها عندهم صور عدة . منها العرافة بالفول وتستعمله النساء غالبا . والقاعدة فيه أن تأخذ المراة سبع حبات من الفول تجمعها فى يدها اليمنى ثم تطرحها على الأرض ، ثم تنظر إلى الشكل الذى إتخذته حبات الفول بعد طرحها . وتستنتج من ذلك الشكل ما يدل عليه عندهم حسبما تعلمته عن غيرها . ومنها العرافة بخط الرمل وهذا الضرب من العرافة هو المشهور المنتشر فى الأرياف ،

ويستخدمه الرجال والنساء على السواء . وهم يصدقونه ويؤمنون به إيمانا غريبا كأنه أمر لا شك فيه . وكأن ما يستنتجه العراف من دلالات وإشارات هى أمر واقع بدون ريب . (المرزوقى ، ص ١٦٥ وما بعدها) .

ومن وسائل العرافة ، لدى بدو جنوب تونس ، إستطلاع كتف الشاة . فبعدما يأكلون لحمة الكتف ، يسلمون عظم الكتف إلى أهل الاختصاص .... فيتسلمه العائف وينظر إليه مليا ، فإن لم ير فيه شيئا ـ وذلك قليل ـ طرحه وأن رأى فيه بقعة بيضاء صافية بياضها أشد من بياض الكتف ،، قال إنه غدير ، يعنى أنه يدل على قرب نزول المطر وإن رأى مكانا أحمر أو أدهم ، فى شكل مستطيل يشبه القبر ، قال : إن شخصا سيموت قريبا لأصحاب الشاة ، أو جارا أو من القبيلة ، ويعرف ذلك بعلامات خاصة لا يدركها إلا هو ، وإن ظهرت فى الكتف أشكال أخرى ، فإن كل شكل يدل ـ عنده ـ على شىء معين كرجوع الغائب وسفر الحاضر .... إلخ . (المرزوقى ، ص ١٨٨) .

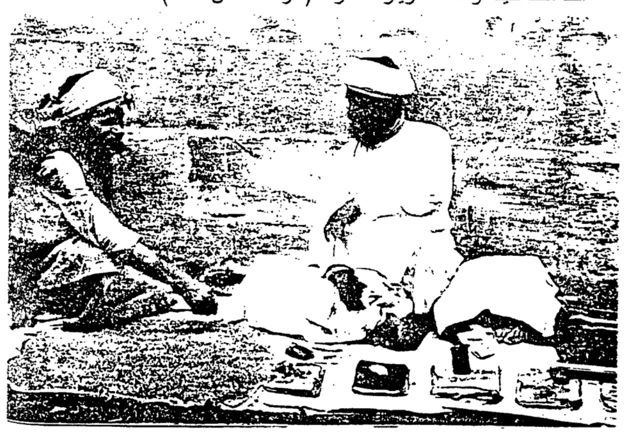
الأحـــلام :

من وسائل التعرف على الغيب واستكناه أمور المستقبل الشائعة لدى القبائل العربية : الأحـلام . فالقبليون العرب يعتقدون إعتقادا جازما فى أن للأحلام دلالات على ما قد يحدث فى مستقبل الأيام وجرى العرف لديهم بتفسير وقائع الحلم باعتبارها مؤشرا على أمور معينة . ومن الطبيعى أن تختلف هذه الدلالات بإختلاف القبائل . كذلك يسود الإعتقاد ، لدى القبليين العرب ، بأن بعض الأشخاص مهيئون أكثر من غيرهم للتعرف على الغيب عن طريق الأحلام .

ومن القبائل التى تستعين بالأحلام فى التعرف على أحداث المستقبل لا سيما فى حالة الغزو : الروالة . فقد جرت عادتهم بأن يصحب عقيد الغزو رائى أو ساجر (صاحب السر) يرسل الله إليه احلاما فى نومه ذات مغزى معين . فعلى سبيل المثال إذا حلم هذا الرائى بفرس أو ناقة أو بأنه قبل فتاة أو إرتدى ثوبا جديدا أو أكل تمرا دل ذلك على أنهم سوف يحصلون على غنيمة كبيرة من الإبل . وإذا حلم أنه إرتدى سترة خضراء اللون (جوخة خضرا)

دل ذلك على أن القائد سوف ينتصر فى مبارزة . وإذا حلم أنه يقف فوق جبل عال كان ذلك علامة مؤكدة على أن القائد سوف يهزم العدو هزيمة حاسمة . وإذا رأى جنودا نظاميين يهاجمون البدو فهى علامة مؤكدة على أن مطرا غزيرا سوف يضطر الغزاة إلى التوقف بعض الوقت . أما الحلم ذو المغزى غير المواتى فهو الحلم الذى يرى فيه الرائى النائم رجلا جريحا أو رجلا عاريا أو رجلا عضه ثعبان ، أو الذى يرى فيه كسر أحد أسنانه الأمامية ، أو الذى يرى فيه أنه يسقط فى بئر ، أو يوثق بالأغلال ، أو يقبض على ذهب فى يده ، أو يسير وهو أعمى . أما إذا حلم بأنه يرتدى سترة حمراء ، فمعنى ذلك أنه من المؤكد أن دم القائد سوف يسيل . (موسيل ، أعراف الروالة ، ص ٥٠٩) .

وفى قرية ترمسعيا بفلسطين يعتقدون أنه إذا رأى النائم حية فخير ، وإذا رأى ذهبا أو عملة فشر ، وإذا حلم بوفاة شخص فيعنى زيادة فى عمر هذا الشخص ، أما إذا حلم بماء فخير ، وإذا أعطاك الميت شيئا فخير ، وإن أخذ منك شيئا أو دعاك لزيارته فشر : (دراسة ، ص ١٦٣) .



العراف

الفصل الرابع عشر
التفاؤل والتشاؤم

التفاؤل والتشاؤم عادة شائعة فى كل المجتمعات القبلية ، بل حتى فى كثير من المجتمعات المدنية . وكان العرب القدامى يتفاعلون ويتشاءمون ولا زال العرب المعاصرون يتفاعلون ويتشاءمون . والأمور التى يتفاعل بها القبليون العرب المعاصرون أو يتشاءمون عديدة ومتنوعة . فتفاؤلهم وتشاؤمهم قد ينصب على البشر والطير والحيوان وقد ينصب على الأشياء والأوقات والأزمان .

(أولا) التفاؤل والتشاؤم بالبشر :

يتفاعل القبليون العرب بالبشر ويتشاءمون منهم إذا إتسموا بصفات معينة أو أحاطت بهم ظروف خاصة .

فعلى سبيل المثال يتفاعل بدو مادبا (العزيزى ، ص ١٩١) بالطفل الذى يولد وهو فى برنسه من الرحم ، ويتقاسمون هذا البرنس ، ويتخذون منه حجبا وتعاويذ ، يعتقدون أن من يحصل على شىء منها يكون مقبولا أينما توجه ، ويسمون هذا الحجاب " القبلة " .

وعلى العكس يتشاءم أعراب جنوب تونس (المرزوقى ، ١٨٦) بالنظر إلى وجه الأعور ، خاصة فى الصباح . فمن إعترضه أعور قال فى سره : اللهم صبحنا بالخير أو يتعوذ من الشيطان الرجيم .

وفى قرية ترمسعيا بفلسطين يتشاءمون من الرجل الأجرد وهو عديم شعر اللحية ويجرى المثل عندهم : " صباح القرود ولا صباح الجرود " (دراسة ، ص ١٧٤) .

ومن الشائع لدى القبائل العربية التفاؤل بالعروس أو التشائم منها تبعا لطبيعة الأحداث التى تصاحب إنتقالها لزوجها أو تعقبه وكونها أحداثا مفيدة

نافعة أو ضارة مؤذية .

فبدو جنوب تونس على سبيل المثال يعتقدون أن العروس تجلب معها إلى بيت الزوج الخير أو الشر فهما معقودان بناصيتها ويتردد على أفواههم هذا المثل : (نواصى وعتب والبعض من الذرية) .

فالخير والشر معقودان بناصية الزوجة ، وبعتبة البيت ، وبوجود الأبناء . فلذلك كان أول ما يطلبون فى أغانيهم عند الخروج بالزوجة إلى بيت الزوج ، أن تكون مباركة عليه وعلى أهله ، وأية بركة عند البدوى الساكن بالجهات الجافة ، أعظم من نزول المطر ، فإذا نزل الغيث أثر وصول العروس تيمنوا بناصيتها ، وقالوا (إنها عرقوب خير) أو (عرقوبها مبارك) : (المرزوقى ، ص ٩٣) .

ولدى بدو بير سبع ثمة مثل يقول : " الدنيا أعقاب وأعتاب ونواصى " ويقصد بالأعقاب النساء (أو الرجال) وبالأعتاب البيوت وبالنواصى الخيل : (العارف ، ص ٣١) .

وروت إحدى الباحثات الغربيات (جرانكفست ، شروط الزواج حـ ٢ ، ص ٢٦٧) ان إمرأة من قرية أرطاس بفلسطين تزوجت شيخا بدويا ، وبعد زواجه منها بدأ الموت يلاحق حيواناته : إبله وحماره وكذلك مات أبناؤه من زواج سابق . وشرع الناس عندئذ يقولون أن كل هذا من " وجه الفلاحة " . ولهذا طلق الشيخ البدوى زوجته .

ويتشاءم العرب من الأرملة ويهابون الزواج منها . ففى قرية أرطاس بفلسطين تشيع بعض الأقوال التى تحذر من الزواج من الأرملة والعزبات بصفة عامة : (جرانكفست ، شروط الزواج ، حـ ٢ ، ص ٣١٠) .

ولدى بدو سيناء كل مايتصل بزفاف الأرملة يعتبر نذير نحس وشؤم لا يليق بكرام الرجال وأشرافهم المشاركة فيه :(بوركاردت، ملاحظات ، حـ٢ ، ٢٦٧) .

(ثانيا) الحيوان والطير :
يتفاعل القبليون العرب ببعض الحيوانات ويتشاءمون من بعضها الآخر في ظروف معينة :

(أ) الثعلب :
يتفاعل أبناء بعض القبائل العربية بالثعلب إذا صادفهم أثناء سفرهم :

فقد روى أحد الرحالة الغربيين (موسيل ، بلاد العرب الصحراوية ، ص ٢٤) أنه أثناء مسيرتهم فى الصحراء عبر ثعلب الطريق فحياه " بليهان " فرحا وناداه . وعندما طلب إليه ترك الثعلب وشأنه والإهتمام أكثر بالبحث عن الأرانب البرية حيث أنهم بحاجة إلى لحم طازج ، أجاب " بليهان " أن " ثعلبا واحدا أفضل من عشرة أرانب ، لأنه يؤكد نهاية سعيدة لرحلتنا . لقد أرسل الله لنا ثعلبا فى بداية رحلتنا ، وهى علامة على أن شرا لن يصيبنا ، وأننا سوف نعود سالمين " . ويقول فى موضع آخر (ص ٢٢٥) أن ثعلبا رمادى اللون ، أبيض أسفل البطن هرب أمامنا . فحياه أصحابنا فى فرح ، لأنهم ينظرون إليه باعتباره فألا حسنا بالنسبة للمسافر .

وروت رحالة أوربية (ستارك ، ص ١٢٦) أنه أثناء سفرها فى حضرموت صاح أحد مرافقيها وهو ينظر إليهم : " آه ، ها هو ثعلب ينظر إلينا ، وهذا شيء طيب . فلو إنك رأيت ذيله كان فألا سيئا . فلا يمكن أن تقولى لعدوك شيئا أسوء من أن تتمنى له : " ذيل الثعلب فى وجهك " .

(ب) الثعبان :
يتفاعل بعض القبليين العرب بالثعبان ويتشاءمون منه تبعا للظروف :

فلدى بدو جنوب تونس إذا ظهر حنش من جدار المنزل فأول من يراه من أصحاب المنزل يصيح به ، سلم تسلم ، سلم تسلم . فإذا أظهر الحنش الطاعة ، وإنساب إلى جداره ، وهرب إلى جهة أخرى - تفاءلوا ، إدعاء بأن ذلك الحنش من الصالحين الذين لا يؤذون أحدا ، وربما كان يمنا وبركة على

السكان . وإذا أظهر الحنش عصيانا وأبدى إستعداده للعراك والدفاع عن نفسه بأن رفع رأسه وفتح فاه ، تشاءموا به ، إدعاء بأنه من أهل الشر ، وقتلوه : (المرزوقى ، ص ١٨٧) .

(جـ) عواء الكلب :

صوت الكلب المألوف هو النباح ، لكن الكلب قد يصدر عنه فى بعض الأحيان صوت أشبه بصوت الذئب . فالكلب عندئذ لاينبح وإنما يعوى . ويتشاءم أبناء كثير من القبائل العربية بعواء الكلب .

فلدى بدو جنوب تونس (المرزوقى ، ص ١٨٧) إذا عوى الكلب كالذئب تشاءموا بعوائه لأنه يدل ـ عندهم ـ على وقوعُ موت قريب أو شىء مكروه يحدث فى أهله ، وإذا أعاد العواء مرات قتلوه .

ويشعر بدو مادبا بالذعر عند جوح الكلب ـ أى عوائه الخافت الذى لا هدف له : (العزيزى ، ص ٢١٧) .

ويتشاءم بدو سيناء من رغاء الإبل ومن عواء الكلب من بطنه ، ومن صباح الأجرود .

(د) أصوات بعض الطيور :

يتشاءم أبناء القبائل العربية المعاصرة ، شأن أجدادهم القدامى ، من نعيب الغراب ويرون فيه إيذانا بشر وشيك .

فلدى بدو جنوب تونس كلما نعب الغراب ـ قرب أحدهم ـ تشاءم بنعيبه ، لأنه يدل على حدوث فراق قريب بموت أو بغيره .

وفى بعض الجهات يتفاءلون ويتشاءمون بصوت البوم تبعا للظروف .

ففى قرية ترمسعيا (بفلسطين) يتشائمون من زعقة البوم إذا كانت

على شكل ممتد أما إذا كانت متقطعة فهى فأل . (دراسة ، ص ١٦٢) .

(هـ) الأيام والأوقات :

يتفاعل أبناء القبائل العربية المعاصرة ببعض الأيام ويتشاءمون من بعضها الآخر وكذلك يفعلون بالنسبة لأوقات النهار .

فبدو جنوب تونس (المرزوقى ، ص ١٩٠) يتشاءمون بيوم الأربعاء ويقولون إن فيه ساعة مشؤومة وتكون عادة بعد الظهر . ولذلك لا يسافرون فيه ، وتعطل النساء أعمالهن الصناعية كالنسيج ، فلا يدخلن المنسج فى عشيات الأربعاء .

ويتفاءل بدو سيناء بالسفر يوم الجمعة والإثنين . ويتشاءمون من السفر او الغزو يوم الأربعاء إذا إتفق أنه آخر أربعاء فى الشهر . ويوم الخميس إذا إتفق أنه الخامس فى الشهر . وفى ليالى القران السبع من كل شهر لا يسافر البدو ولا يغزون ولا يباشرون عملا جديدا إلا مضطرين فإنها فى إعتقادهم ليال شؤم خصوصا الليلة السادسة ، إذ يكون القمر فى الشولة : (شقير ، جـ ٢ ، ص٣٨٢) .

كذلك يتشائم بدو مادبا من الليلة الحادية والعشرين من كل شهر . ومن أقوالهم بهذا الصدد : " ألعن من واحدة وعشرين " . ويتشاءمون بشرب الماء عند إصفرار الشمس ، واشنع منه عندهم إرضاع الطفل أو الفصيل عند إصفرار الشمس . ويتشاءمون بإعادة الماعون ليلا ، وأشنع من ذلك أن يعاد إليهم الإناء النحاس المعار ليلا . من باب المنزل الرئيسى : (العزيزى ، ص ٢١٧) .

ولدى قبائل شرق الأردن وفلسطين يتشائمون بالتاسوع ، وهى الأعداد التى تحتوى على رقم تسعة وفى هذه الأيام لايسمح بالشروع فى الغزو ، ومن ثم فالغزو لايبدأ لا فى اليوم التاسع من الشهر ولا فى التاسع عشر ولا فى التاسع والعشرين . ويقول العرب أنهم لاحظوا أن كل الحملات التى بدأت

فى يوم تاسوع فشلت .

وكذلك يتشائمون من الأيام التى تشكل مضاعفا لرقم سبعة . وبالتالى تعتبر أيام شؤم : اليوم الرابع عشر والواحد والعشرون والثامن والعشرون . ويوم الجمعة يعد يوم شؤم بالنسبة للرحيل .

وعلى العكس اليوم الأول والثانى والخامس من الأسبوع أيام مواتية للسير " ليلة التنين الوجوه زين " كما يقول المثل .

وعلى العكس ليس من الملائم طلب ثوب جديد " نهار السبت والخميس لاتفعل قميصك " . لكن من الممكن الرحيل يوم السبت .

وأول أربعاء فى الشهر مسعود إلا إذا تصادف وقوعه أول أيام الشهر : (جوسان ، ص ٣٧٣) .

(و) أسباب أخرى للتفاؤل والتشاؤم :

فضلا عن وجود التفاؤل والتشاؤم السابقة ـ يتفاعل القبليون العرب ويتشاءمون بامور أخرى عديدة تختلف بإختلاف القبائل .

فبدو بير سبع سوف يعدل الواحد منهم عن أى مشروع جديد إعتزم القيام به إذا قابل إمرأة تحمل على رأسها جرة فارغة . وإذا خرجوا فى غزوة أو لزراعة أرض وشاهدوا قافلة فارغة فسوف يشعرون بأن هدفهم سوف يكون عديم الجدوى : (العارف ، ص ٣١) .

ويعتقد بدو مادبا أن رفيف العين اليمنى نذير شر مستطير ورفيف اليسرى بشير بالخير والبركة . ومثل ذلك صنين الأذن اليمنى والأذن اليسرى . كذلك يتشاءمون بنداء المسافر ، فإذا كان لابد لهم من ندائه قالوا : " يافلان " ما أنت مندوه " : (العزيزى ، ص ٢١٧) .

ويتشائم أبناء بعض القبائل العربية من أسماء معينة ذات دلالات سيئة لا توحى بخير أو تنبىء بنجاح .

فلدى الروالة مثلا يحرص قائد الغزو على أن لا يقابل أمام خيمته أحدا من أفراد عشيرة الفرطان (التعساء) التى تنتمى إلى قبيلة الكواشب أو من عشيرة الفليت (المباغتة) من قبيلة الروالة ، أو البدور (المضطهدين) من قبيلة الشجايعة ، أو من الكشوش (المطرودين) من قبيلة عبدالله ، لأن أسماء هذه العشائر تدل على أنهم يحوزون صفات غير مواتية إطلاقا للقيام بأى مشروع كبير (عرظتهم ما هى زينة) : (موسيل ، أعراف الروالة ، ص ٥٠٩) .

الفصل الخامس عشر
جوار الأماكن : الأضرحة والحوط

عرف العرب نظامين للجوار : جوار الأشخاص وجوار الأماكن . وجوار الأشخاص هو الذى تطلب فيه الحماية من شخص على قيد الحياة . أما جوار الأماكن فهو الجوار الذى تمنحه بقعة معينة من الأرض . وقد يرجع الإعتراف للمكان بمنح الجوار إلى إحتوائه على ضريح أو قبر لأحد الأولياء ، وقد يرجع إلى إتفاق الناس على منحه هذه الصفة ولو لم يكن مقرا لولى .

أولا : جوار الأضرحة :

جرى العرف لدى القبليين على الإعتراف للأماكن التى توجد بها قبور الأولياء بحرمة وقداسة . ويسود الإعتقاد فى أن الولى الذى توجد مقبرته فى المكان يتولى عقاب كل من يعتدى على هذه الحرمة . وهو فى عرفهم عقاب يتسم بأنه فورى ورهيب . فالولى لا يتوانى أبدا عن التنكيل بكل من يسىء إليه بالإعتداء على الأشخاص الذين لجأوا إليه طلبا لحمايته أو على الحيوانات والأشياء التى وضعت تحت رعايته .

يقول ابن بطوطة (ص ٢٦١) عن أحد الأضرحة الموجودة بالقرب من مدينة ظفار : " ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها ، زاوية الشيخ الصالح العابد ابى محمد بن أبى بكر بن عيسى من اهل ظفار . وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون إليها غدوا وعشيا ، ويستنجدون بها ، فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه . رأيت بها شخصا ذكر لى أن له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان . وفى الأيام التى كنت بها أستجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح " .

ويقول أيضا (ص ٢٦٢) وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث ، وهى معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له . ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم إستجاروا بهذه التربة ،

وأقاموا فى جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم " .

ولدى قبائل شرق الأردن لا تقتصر الإجارة على الأحياء بل تمتد إلى الأموات . فقد يطارد شخص أو جماعة شخصا آخر بقصد قتله أو النيل منه ولا يجد من ينقذه فيلجأ إلى أقرب قبر من قبور الشيوخ أو الأشخاص المشهورين فيعتبر ذلك بمثابة دخول فى جواره لو كان حيا . وإذا لم يكترث المطاردون له بذلك . وتعقبوه وألحقوا به أذى فى حرم القبر عدوا معتدين على جواره ، ولأهل صاحب القبر المطالبة بحقوق من يدخل على قريبهم الميت ، ومن حقهم الإنتقام له منهم . كذلك يتمتع ضريح الولى بالقدرة على الإجارة ، ولا يقتصر الجوار على الضريح ذاته وإنما يمتد إلى المسافة المسورة (الحوطة) التى تحيط بقبر الولى . وإذا دخل شخص حوطة أحد الولياء إمتنع على مطارديه الدخول إلى الحوطة وإلحاق الأذى به ، وإلا تعرضوا لإنتقام الولى الذى ينزل بهم المصائب والكوارث . (العبادى ، من القيم البدوية ، ص ٢٦٨) .

ويروى البدو ــ فى شرق الأردن القصة التالية : حدث ذات مرة أن فتاة بدوية من عشيرة عريقة كانت متزوجة فى عشيرة أخرى وجاء فاسق بنبأ حيث وضع قطعة من قماش أسود فى بيت أهلها . وقال هذه إبنتكم . أى إنها سودت سمعتهم فى ديار الغربة ، وعملت عملا قبيحا . وأرسلوا إليها شقيقها يطلبونها . وعندما وصلت إلى حوطة أحد الأولياء برز بقية أهلها وطاردوها . ففهمت أنهم يريدون بها سوءا . فدخلت حوطة الولى ، ودخلت على قبره وقالت : (أنا دخيل الله ثم عليك أيها الولى) . ومع ذلك قتلوها فكان أن قطع الله ذرية تلك العائلة ، وتلاحقت عليهم المصائب . فيرى القوم فى قطع ذرية تلك العائلة والمصائب التى حلت بهم عقابا لهم جزاءا على عدم إحترامهم لجوار الولى .

وقد بقيت عادة الإعتراف لأضرحة الأولياء بحق الجوار قائمة فى مدن بعض البلاد العربية .

ففى المغرب تعد أضرحة الشخصيات الدينية البارزة أماكن مقدسة وتتمتع بحق إجارة من يلوذ بها . ففى بداية القرن الحالى كانت هذه الأضرحة تعد حرما ، وكان الأشخاص المهددون بالملاحقة القضائية يجدون فيها ملاذا ففى ضريح مولاى إدريس كان من الممكن أن نجد أشخاصا أتوا بحثا عن الملاذ لأسباب كثيرة متباينة . فمنهم قتلة ولصوص ومنهم حكام مخلوعون يخشون القبض عليهم ، ومنهم مدينون معسرون . وكان فى وسع اللاجىء الخروج للمثول أمام السلطات . وفى هذه الحالة كان يحمل معه لوحة مولاى إدريس التى يفترض أنه كان يستخدمها أثناء تعلمه ، وتكفل له هذه اللوحة إستمرار الحصانة : (جايار ، إحدى مدن الإسلام : فاس ، ص ١٢٩) .

ثانيا : جوار الحوط :

قد ينشأ الحرم دون ان يحتوى بالضرورة على قبر لأحد الشيوخ او الأولياء . فقد يتفق الناس على إسباغ هذه الصفة على مكان معين فيكتسب المكان حرمة ويقر له الجميع بالقدرة على حماية اللائذين به .

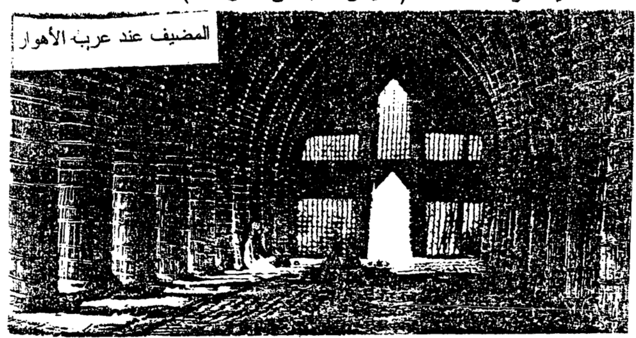
من ذلك مثلا بعض الحوط الموجودة فى حضرموت حيث أنها نشأت نتيجة جهود بعض رجال الدين أو ذوى النفوذ . وفى التعريف بهذه الحوط يقول الشاطرى (جـ ١ ، ص ٢٩١) .

" الحوط بضم الحاء وفتح الواو جمع حوطة بفتح الحاء والطاء وسكون الواو وهى الموضع الذى يختطه المنصب أو أحد المعتقدين ويحوطه ويعلن بأنه أصبح حرما آمنا على الدوام لا يمكن فيه قتل ولاقتال ولا نهب ولا ظلم من القابئل ولا السلاطين ، فيستجيبون ويتعهدون بذلك ، ومن دخله صار أمنا لأنه فى حمى مؤسسه ومختطه ، ولهذا سميت كثيرمن مدن وقرى حضرموت بإسم الحوطة مجردة عن الأضافة إلى صاحبها أو معها . كحوطة أحمد بن زين وصاحبها العلامة الكبير أحمد بن زين الحبشى العلوى ، وحوطة الشيخة سلطانة بنت على الزبيدى فإذا خاف أحد الظلم أو وقع تحت تهديد أهله نزع إلى إحدى تلك الحوط " .

كذلك الحال فى شرق الأردن حيث أتخذ العرب أحراما فى البادية دعوها حوطا . فإنا نعاين فى أرض البلقاء حجارة مرصوفة ومبنية على شكل دائرة قد نالت إكراما عظيما وأمن فيها المستجير . ولعل هذه الحوطة من آثار الحرم القديم ....

فالأعراب يقسمون بهذه الحوطة ويودعون فيها المحراث . فقد شاهدنا بالقرب من السلط فى أرض السرو حوطة يبلغ محيطها ثلاثين مترا وهى مستودع أمين للحنطة والشعير وآلات الحراثة . فلا يتجاسر أحد أن يمد يدا أثيمة لأن الأرواح تدافع عنها : (سلمان ، ص ١٩٤)

ومن هذ القبيل أيضا حرمة المضيف لدى عرب الأهوار فى جنوب العراق . فللمضيف عندهم دور هام باعتباره محلا لفض المنازعات والمشاجرات التى تحدث بين سكان القرية أو بين القرية نفسها وبين القرى المجاورة لها . وينظر أهل (الشرش) للمضيف كمكان مقدس ، فهم يقسمون به الإيمان . كما أن الأفراد الذين يملكون رغبة عزيزة يتمنونها ويطلبونها من المضيف . و (يدخل) المذنب المضيف حتى لو كان ذلك مضيف أعدائه ، لاجئا ومحتميا ، حيث يضمن له الأمن فلا يستطيع أحد أن يعتدى عليه . وكل إهانه أو أذى يقع على أى فرد فى المضيف يتحمل مسئوليتها صاحب ذلك المضيف ويعتبر الإعتداء على شخص فى المضيف جرما عظيما ، وغلطا فاحشا : (سليمان ، عبدعلى ، ص ٩١) .



المضيف عند عرب الأهوار

الفصل السادس عشر
الموت : طقوسه وشعائره

ترتبط بالموت ، لدى القبليين العرب ، عادات وطقوس عديدة . قد تختلف هذه العادات والطقوس من قبيله الى آخرى ، وقد تختلف فى بعض أجزاء الجزيرة العربية عنها فى البعض الآخر . رغم هذا الخلاف الذى قد يصغر حجمه أويكبر ، ثمة وجوه شبه عديدة بين عادات القبائل العربية فى هذا المجال .

ونستعرض فيما يلى بعضا من هذه العادات والمعتقدات والشعائر والطقوس .

أولا ـ موقف القبليين من الموت :

يبدى القبليون من الرجال ، لاسيما البدو ، قدرا كبيرا من التماسك وعدم الانسياق وراء الانفعال عند موت قريب لهم . ويعتبرون أن إظهار الحزن الشديد على الميت ليس من شيم الرجال وهو أقرب إلى طبيعة النساء . ومن ثم قد يعير بعضهم بعضا بعدم القدرة على ضبط النفس والانسياق وراء الحزن .

ففى شرق الأردن كانت بعض العشائر البدوية معروفة بالصلابة وعدم التأثر لموت قريب . وكانوا يعيرون الذين يبكون على موتاهم قائلين " الحموله الفلانية ، سبعها ، تبكى على الميت مثل النسوان " : (العزيزى ، ص ١٩٣) .

ثانيا ـ تغسيل الميت وتكفينه :

للقبائل العربية عاداتها الخاصة بتغسيل الميت وتكفينه . وهى عادات متماثلة فى الأغلب . ومع ذلك قد تختلف فى بعض التفاصيل من قبيلة إلى أخرى .

ونستعرض ، فيما يلى ، بعض الأمثلة لما تجرى به العادة لدى القبائل العربية فى هذا الخصوص .

فلدى بدو سيناء مثلا يغسل الميت ويكفن ويصلى عليه قبل دفنه . وإذا مات أحدهم بعيدا عن الماء جعلوه فى غرارة وحملوه على جمل فى الجنب الواحد وجعلوا مايوازنه حجارة فى الجنب الأخر ، وأتوا به إلى الماء وغسلوه وكفنوه . وإذا تعذر جلب الماء والمصلى دفنوه بلا غسيل ولا صلاة: (شقير ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥) .

ولدى قبيلة الفقراء يقف أحد أعضاء أسرة المحتضر يلقنه ، حتى اللحظة الأخيرة ، شهادة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " . ثم تغسل الجثة جيدا بالماء الدافىء والصابون ، وتنثر عليها العطور ، وتحاط بالدخان ذى الرائحة الصادر من خشب القرنفل أو الهيل كذلك يعطر الكفن الأبيض الذى سوف يحتويها . وتعطى نفس وجوه العناية لجثة المرأة . فيتم تزيينها زينة كاملة بقدر كبير من العناية . فيغسل الجسد ، ويمشط الشعر ، وتكحل العينان ، ويزين المعصمان بالأساور ، وتلف القلائد حول الرقبة ، وتحرق نفس العطور حول الجثة التى تقوم النساء بنقلها إلى الحفرة . ويحتفظ الرجال لأنفسهم بالحق فى إنزال المتوفاة إلى القبر .

ولدى الروالة يصبون بعض الماء فى فم المحتضر دون التفوه بأية عبارات . وهم لا يسبلون عينى الميت ولا يسدون فتحتى الأنف . وبعد مسح الجسد بقطعة قماش مبللة يلفونه فى قميصه ، أو عندما يكون القميص ممزقا يضعونه على قطعة قماش بيضاء ويغطونه بقماشة مماثلة ، ثم يخيطون القماشتين فى ثلاثة مواضع ثم يحملون الجسد الملفوف بهذه الصورة على بغل وينقلونه إلى القبر . (موسيل ، أعراف الروالة ، ص ٦٧٠) .

ثالثا ــ القبر :

كذلك يجرى العرف لدى القبائل العربية بحفر قبر توضع فيه جثة

الميت وقد يقترن دفن الجثة ببعض الطقوس التى قد تختلف تبعا للقبائل .

وفيما يلى بعض أمثلة لما يجرى بـه العرف لـدى القبـائل العربيـة فـى هذا الشأن .

لدى بدو سيناء لكل قبيلـة تربـة أو تـرب خاصـة بهـم . وغـالب تربهـم قرب الماء وذلك لأجل غسل الميت قبل دفنه . والقبر عندهم حفرة واسعة فـى أحد جانبيها حفرة ضيقة . يضعـون الميت فـى الحفرة الضيقـة علـى جنبـه الأيمن متجها نحو الكعبة ويسدونها بالحجارة ثم يردمون الحفرة الواسعة ردمـا محدبا كسنام البعير .

ويدل على القبر حجر فوق رأس الميـت وحجـر فـوق قدميـه أو فرشـة من الحصى فوق القبر كله . وهم يجعلـون بدلـة مـن ثيـاب الميـت فـوق قبـره فتبقى حتى تبلى أو يأخذها عابر سـبيل . وفـى بـلاد الطـور يعلقـون بدلـة مـن ثياب الميت فى شجرة أو يضعونها على صخرة قرب التربـة . ويقولـون عنـد الدفن : " يا رحيم إرحم القبر المقيـم " . يكـررون ذلـك مـرارا . ويقفـون عنـد رأس الميت ويقولون " شجرة الدر عمتك وأمك النخلـة " : (شـقير ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦) .

ولدى قبيلة الفقراء يحفـر القبـر فـى الأرض بعمـق متـر ، وفـى داخـل هذه الحفرة وعلى الأرض العارية يمدد الميت على جنبـه ووجهـه متجـه نحـو الجنوب ويوضع تحت الـرأس حجـر كبديـل للوسـادة . وفـوق الجسـد توضـع بلاطات بطول الحفـرة لحجـز التـراب والحـول دونـه والسقوط علـى الجثـة ، حيث يبنى نوع قبة لحماية هذه البقايـا البشـرية الأخيـرة . وعنـدمـا يجـدون أن العمل قد تحقق لـه قـدر كـاف مـن المتانـة يغطـون الكـل بـالتراب أو الرمـل . وفضـلا عن ذلك فللحول دون السبع ــ وهو أسم عام يستخدم للدلالة على كـل الحيوانـات ـــ آكلـة اللحـوم فـى الصحـراء ـــ وإخـراج الجثـة مـن الأرض وإلتهامها ، يكومون الحجارة على القبر . وعندما تكتمـل عمليـة الدفـن يغسـل

كل الحاضرين أيديهم بجوار القبر للدلالة علـى أنهـم يعفـون عـن كـل المظـالم التى قد يكون الميت أوقعها بهم . ثم يقومون بأداء ركعتين ويعودون معـا إلـى المضرب : (جوسان وسافينياك) .

ولدى الروالة من الواجب أن يكون قبر المرأة أعمق من قبر الرجل . فعمقه بالنسبة للمرأة ينبغى أن يكون بحيث لا يمكن رؤيـة الصـدر لـو وضـع الجسد رأسيا ، أما بالنسبة للرجل فعمقه لا يتجاوز ركبتيه عندما يكون واقفا . ويوضع تحت الرأس حجر ويوضـع الجسـد دائمـا علـى جانبـه الأيمـن متجهـا نحو الجنوب . وبعـد تغطيتـه بعـدد مـن الحجـارة يهيلـون عليـه الـتراب الـذى أخرجوه من الحفرة . ومن أجل الرجل يقام شاهدان (نصايب) مـن الحجـارة فوق القـبر ومـن أجـل المـرأة شـاهد واحـد . ويعطـى مـن حفـر القـبر مجيديـا ونصف أجرة على عمله . وفى داخـل الصحـراء بحفـر القبر بعمـق عشـرين أو خمس وعشرين سنتيمتر ويلف الجسد فى عباءته ويوضـع فـى القـبر علـى جانبه الأيمن متجها نحـو الجنـوب ، ثـم يغطـى الجميـع بالحجـارة أو الـتراب . وفى الصحـراء لا تذهب النساء إطلاقا مع جثة الميت إن كان رجلا إلـى القبر وجثة المرأة تدفنها النسـاء فحسـب . ولا يتجـاوز الموكـب الجنـازى شـخصين أو أربعة أشخاص كحد أقصـى . ويحمـل الجسـد إمـا علـى عصـاتين أو علـى حبلين . ولا يمكن أن يعاد إلى الخيمة لا العصاتان ولا الحبـلان ولا حتـى يـد الفاس التى أستخدمت فى حفر القبر . وإلى هذا الحـد يصـل الخـوف مـن كـل شىء لامس الجثة . وفى حالة وجود مـا يكفـى مـن المـاء ، يصـب منـه علـى القبر حتى لا يعانى الميت من العطش : (موسيل ، ص ٦٧١) .

رابعا ـ النفور من جثة الميت :

يشيع ، لدى القبليين العرب ، الاعتقاد فى نجاسـة جثـة الميـت . ولـهذا يتحامون لمسها خشية أن ينتقل إليهم مابها من نجاسة . فالبدوى الحقيقـى ينفـر مـن جثـة الميـت ، ولـو كـان الميـت اباه . (موسـيل العربيـة الصحـراويـة ، ص ١٦٩) .

ويعتبر البدو أن ثمـة ثلاثـة أشيـاء يحظر عليهم لمسها : وهى الخنزيـر

وجثث الموتى والدم .... وعند موت أحد العرب يدفن جسده فى الحال بدون أدنى أحتفال . فعندما مات سليمان وهو الأخ الأكبر لزعيم عنزه المشهور ابن اسمير (فى اوائل القرن الماضى) وضعت جثته فوق بعير وعهد بدفنه إلى احد الفلاحين : فلم يرافق الجثه أحد ، حتى أخوه : (بوركاردت ، ج١، ص ١٠٠) ويتحدث نيبور (ص ٢٥١) عن اعتقاد العرب فى نجاسه جثة الميت فيقول إن : " فساد جثث الموتى له آثار بالغة السوء على الصحة فى البلاد الحارة اكثر منها فى البلاد ذات المناخ المعتدل . ولهذا فمن الضرورى حماية السكان من تأثيرها الضار وذلك عن طريق زيادة النفور الطبيعى من الهياكل العظمية من خلال مواعظ دينية : ففى الإسلام وبعض الديانات الآخرى يعتبر لمس جثة ميت عملا ينطوى على نجاسة ، وللتطهر من هذه النجاسة لابد من إجراءات معينة ، وقد يفرض على من انتقلت اليه النجاسة اعتزال المجتمع بعض الوقت .

ويحرص الروالة أشد الحرص على تجنب حثث الموتى . وإذا كانوا نازلين على مقربة من إحدى القرى ، أو كان معهم فى هذا الوقت بعض الفلاحين استأجروهم ليقوموا بدفن الميت : (موسيل ، أعراف الروالة ، ص ٦٧٠) .

خامسا ـ ذبيحة الميت :

من أكثر الطقوس شيوعا ، لدى القبليين العرب ، ذبح ذبيحة أو أكثر عند وفاة أحدهم .

فلدى بعض قبائل شرق الأردن يذبحون على قبر الميت نعجة فى كل يوم مدة أسبوع كامل . وفى مساء دفنه تذبح ذبيحة العزاء وفى ختام الأسبوع تتم المناحات وتجف العبرات فتكون خاتمتها ذبيحة " السبوع " وللمائت عشاء فى ليلة دفنه وكذلك أنهم ينحرون نعجة أو شاه على قبره ، ويقولون " دونك زادك يافلان أو دونك عشاءك يا أبا فلان " . (سليمان ، ص ٢٤٦) .

وتجرى عادة بدو مادبا (شرق الاردن) بدعوة أهل الميت الى وليمة بعد دفن الميت . وفى اللية الثالثة للدفن ، يذبح اهل الميت ذبيحة يسمونها " ذبيحة القبر أو الحفرة " ، وبعضهم يسميها " الونيسة " (العزيزى ، ص١٩٣).

وفى جبال القرا (فى ظفار) فى جنوب الجزيرة العربية . "ثمة قاعدة صارمة تقضى بضرورة ذبح نصف ابقار الميت كقربان بعد وفاته . وهكذا تبدد نصف ثروتة من اجل راحة روحه . غير انه بالنسبة للفقير المدقع تكفى بقرة أو شاه . ويمكن وضع حد أقصى قدره عشرون بقرة من أجل الرجل الثرى الذى يملك أربعين بقره فأكثر . ويمكن أن يذبح معها ناقة أو بعض النعاج ، لكن يبدو أن قيمة البقرة فى التضحية لاتتناسب مع قيمتها الحقيقية .

وفى يوم الدفن الذى هو فى العادة يوم الوفاة تذبح بقرة أو اثنتان فوق القبر . وفى الليلة الثالثة تذبح بقرة آخرى . ثم تمضى فترة تتفاوت تبعا لامكانيات أقلرب الميت . قد تكون يومين وقد تصل إلى ثلاثة شهور قبل أن يقدم القربان الكبير ربما من عشر أو خمس عشرة أو عشرين بقرة ، تمثل نصف قطعان الميت . ويسمىهذا اليوم "يوم النحيرة . ويتم " الختوم " و " النحيرة " فى المكان الذى يعيش فيه الميت وليس على قبره . ويقوم الأقارب واصدقاء الميت الذين جاملهم الميت من قبل أثناء حياته بذبح مزيد من الأبقار . وتجنذب عملية الذبح الكبيرة هذه كل الجيران وافراد وحدات القبيلة التى ينتمى اليها الميت . ويقتسموت اللحم فيما بينهم ، ويعود كل منهم بنصيب طيب . وليس للزوار من القبائل الآخرى مثل هذه الحقوق ولكن يدعون إلى المشاركة فى الوليمة التى من أجلها تشوى بقرة واحدة : (توماس ، ص ٥٦) .

وفى قرى صعيد مصر من الواجب ، من أجل كل وفاة ذبح كبش ونثر شىء من دمه على المكان الذى اسلم فيه الميت روحه . والا بقيت الروح فى البيت ولم تصعد الى السماء . واذا كان اهل الميت عاجزين عن ذبح كبش ، أحلوا محله جديا صغيرا . وعندما يموت رجل ثرى يذبحون فى بيته كبشا

وحيوانات آخرى ، وقد يذبحون جملا على مقربه من قبره وتوزع لحوم هذه الضحايا جميعا على الفقراء : (بلاكمان ، ص ٩٧) .

سادسا ـ وليمة العَزاء :

يجرى العرف بأن يقيم أقارب الميت وليمة يشارك فيها كل اولئك الذين يأتون لمواساة أهل الميت وتقديم العزاء لهم . ولما كان عدد المعزين فى العادة كبيرا مما يشكل عبئا ضخما على بيت الميت ، جرى العرف بمساهمة الاقارب والجيران فى توفير الطعام للمعزين .

ففى حضرموت عندما يموت ميت تقوم كل اسرة من اسر جيرانه واقاربه بصنع جفنة من ثريد أو أرز وتقدمها لأسرة الميت . وهى بدورها تقدمها للمعزين والمساكين . (الشاطرى ، ج ١ ص ٢٩٤) .

ولدى قبيلة الفقراء يعود الذين قاموا بدفن الميت إلى المضرب ويجتمعون تحت إحدى الخيام لشرب القهوة . وعندما يحل المساء يأتى أحد أعضاء أسرة الميت : ابنه أو أخوه أو عمه بضحية ، خروف أو ماعز ، ويذبحها خلف الخيمة ويقول أثناء ذبحها : " ونيت عن روح فلان " . وفى الحال يقطع الحيوان ويوضع على النار ويجهز ويوزع على الحاضرين : (جوسان وسافينياك)

سابعا : الحزن والحداد على الميت :

يفرض العرف القبلى على أقارب الميت وبصفة خاصة على نساء بيته التزام سلوك معين يتمثل فى التخلى عن كل مظاهر التزين والتجمل والأخذ بمظاهر الزهد والتقشف . وفى بعض الجهات تكون وطأة الحداد على ارملة الميت أو أرامله أشد منها لدى البعض الاخر .

فلدى قبائل مادبا (شرق الاردن) تظهر النساء على الميت من الحزن بمقدار منزلته ومن اقوالهم : " اللى ماله حريم ، ماهو كريم " ومن علامات

الحداد ، عند الحضر إخفاء المرأة لزينتها ، وستر حلاها بقماش أسود ، وعدم لبس الملون من الملابس ، والامتناع عن الكحل والطيب والحمام ومشط الشعر . وعند البدويات ، يضفن إلي ذلك ان يعصبن رؤوسهم بعصبة بيضاء . واذا كان الميت من الوجهاء ، أقامت النساء حلقات لندبه ، ويسمى هذا النوع من الندب (المعيد) (العزيزى ، ص١٩٣) .

ولدى قبائل جبال القرا (فى ظفار) ليس للزوجة أن تظهر الحزن على زوجها . الامهات والبنات والأخوات يمكنهن النحيب والصراخ ، ولدى القرا يسدلن شعورهن ، ويضربن رؤسهن ويهلن التراب عليها ، لكن إبداء الزوجة الحزن علانية على فقد زوجها يستتبع العار بالنسبة لها . ومن الواجب عليها أن تختفى . (توماس ص ٥٧) .

ولدى قبيلة الفقراء ، تحضع الزوجة – عند وفاة زوجها – لقواعد الحداد وذلك أيا كان شعورها الدفين نحوه : فتضع شالا أبيض على راسها، وتخفى شعرها ، واحيانا تقصه ، وتمتنع عن الاكتحال . وفى لحظة الوفاة ذاتها تمزق ثيابها حتى الحزام ، وتلقى على راسها التراب أو الرماد . وتطلق بصوت منفعل الصرخات والمراثى التى تستخدم فى مثل هذه الظروف . وقبل ذبح ناقة الضحية من أجل الميت ، تعيش فى عزلة ، ولاتعد نفسها لعقد زواج جديد الا بعد ذبح الضحية . (جوسان وسافينياك ، محلة العرب ، ج ١١ , ١٢ ، س ٢٧ ، ص ٧٥٧) .

وجرت العادة فى بعض القرى والمدن فى فلسطين بأن تلبس النساء ثيابا سوداء عند موت أحد أفراد العائلة وأن يلطخن وجوههن بالطين ويشققن ثيابهن وينطلقن يرددن الحانا حزينة يترحمن بها على الفقيد ويعددن محاسنه وخصاله ويضفن حالتهن بعد فقده .... ومن العادات المرعية التى ماتزال تفرض وجودها فى بعض القرى الفلسطينية أن تقوم النسوة باثوابهن السوداء برقصات معينه فيها شبه كبير

برقصات الأفراح ، فيمسكن بالردن أو المحارم السوداء ويلوحن بها اثناء رقصهن : (حلقة العناصر المشتركة ، ص ١٢٢) .

ولدى الروالة الذى يحد على الميت أمه وزوجته وأخته وأبنته فحسب . وفى الخيمة يمكنهن فى هدوء إطلاق صرخة واحدة ، ثم يذهبن إلى خارج المضرب ، يصرخن مرتين ويقطعن ثوبهن حتى الصدر ، ويخمشن وجوههن ، ويلقين التراب على أنفسهن ويلففن عصابات بيضاء حول جباههن وينتحبن ثم يعدن إلى المضرب . والأخت والإبنة فقط هما اللتان يمكنهما قص شعرهما يعلقانه على القبر أو يلقيانه عليه . وليس ثمة حداد آخر . وتحمل النساء العصابة البيضاء حتى الليلة الثالثة أو حتى عيد الضحية التالى . ولمدة ثلاث ليال متتاليات لا تقدم تحية إلى أقارب الميت الأقربين . ويقال عنهم : " فلان خاطرة ما هو طيب ميتين أبوه ولا أخوه ولا أبن عمه " ويحاولون تعزيته بالكلمات التالية : " يا فلان ها شى من الله ما هو عليك أنت واحد مار على الناس كلهم الله يعوض ما راح " . وتكون اجابته : " ويش بيدى الله أقوى " . (موسيل ، ص ٦٧١) .

وقد تركت لنا السيدة سالمة (ص ١٦١) صوره مفصلة للواجبات التى كان يفرضها الحداد على أفراد أسرة السلطان وبصفة خاصة على أرامله . وفى ذلك تقول :

للحداد شعائر وتقاليد واجبة الإتباع فى بلدنا وأول هذه الشعائر توجب على كلّ فرد فى العائلة صغيرا كان أم كبيرا أن يطرح ملابسه الثمينة الزاهية الناعمة ، ويضع بدلا منها ملابس صوفية سوداء خشنة الملمس بخسة الثمن . ومن الشعائر ايضا الامتناع عن التزين أو التعطر منعا باتا .

وفى خلال الاسبوع الأول من أيام الحداد يهجر الجميع أفرشتهم الغالية الوثيرة ويفترشون الارض احتراما وأسوة برب البيت الذى افترش التراب .

ومن اهم شعائر الحداد التى تحتمها أحكام الدين وجوب خضوع نساء السلطان الراحل زوجات وخطيات إلى فترة حداد إجبارية أمدها اربعة شهور. وعلى هاته البائسات أن يقضين هذه المدة فى غرف مظلمة وأن يمتنعن عن رؤية النور بل وضياء الشمس . فإذا اضطرت المرأة إلى الخروج من وكرها المظلم وضعت على وجهها قماشا سميكا يمنعها من رؤية النور ويسمح لها بالكاد أن تزحف الى هدفها ....

وخروج المرأة من العزلة يقتضى مراسم خاصة مبنية على الخرافات والاساطير فمن ذلك مثلا أن على ارامل المتوفى يوم انتهاء مدة العزلة أن يغتسلن جميعهن مرة واحدة من اعلى الرأس إلى أخمص القدمين على أن تقف الخادمات خلف سيداتهن تحمل كل منها بيدها سيفين تسن نصليهما فوق راس السيدة (وبالنسبة للفقيرات يستعاض عن السيوف بالمسامير أو آى أداة مصنوعة من جديد) .... وبعدالإغتسال يباح للمرأة أن تغير ملابسها ، وأن تستعيد حريتها وتصبح اهلا للزواج من جديد .

ثامنا ـ أضحية بعد مضى سنة على الوفاة :

يقضى العرف لدى عديد من القبائل العربية بضرورة تقديم أضحية على روح الميت بعد مضى سنة على الوفاة . ويعتقد أن هذه الاضحية لاغنى عنها حتى تغفر للميت سيئاته ، وترجح كفة حسناتة ، وتكون وسيله له إلى دخول الجنة . ومن هنا الأهمية البالغة التى يعلقها القبليون على هذه الاضحية ، ومن هنا ايضا نفهم لم يعمد الرجل احيانا الى تقديم هذه الاضحية بنفسه قبل وفاته ، حتى يكون على يقين من تقديمها ولايترك مصيره معلقا على مشيئة اقاربه قدموها أو أهملوا تقديمها .

وقد قدم لنا جوسان (ص ٣٧١) وصفا مفصلا لهذه الأضحية السنوية . فقال : عندما يحل عيد الضحية يحصل البدوى على ناقة خالية من كل عيب أو تشويه , فلا ينبغى أن تكون عوراء أو قطشاء أو سبق كيها وأن

يكون عمرها ثلاث سنين أى قادرة على الحمل سواء حملت أو لم تحمل من قبل . ويوضع على ظهرها عده كاملة : ملابس داخلية ، قميص ، عباءه ، جزام ، منديل، عقال، وسقاء فارغ. ويطلق سراح الناقة . ويندفع فقراء القبيلة فى ملاحقتها ، ويحصل كل منهم على ماتمكن من الاستيلاء عليه اثناء السباق . ثم تقاد الناقة إلى باب الخيمة. واذا كان ثمة شخص توفى حديثا، اقترب أحد أقاربه وقبض على سكينته وغرسها فى رقبة الحيوان مخاطبا الميت باسمه قائلا:"يا فلان هاك ذبيحتك. ومن اللازم إسالة دم الذبيحة على الأرض ثم تسلخ الناقة وتقطع وتوضع فى مراجل لطهيها ثم يأكلها الحاضرون. ولكل من يريد الحق فى أن ياخذ جزءا منها ويحمله إلى بيته بعد وضعه لحظات على النار. ويتم ذلك كله خارج الخيمة. ويلقى بأحشاء الحيوان بعيدا، يلتقطها ويأكلها افراد قبيلة الشرارات وحدهم بسبب فقرهم المدقع .

ولايفسر البدو أعرافهم وانما يكتفون بالحفاظ عليها . ومع ذلك فقد قالوا لى بخصوص هذه الحالة أن الثياب التى توضع على الناقة مخصصة للميت حيث انه عار . وفى حاجة إلى ثياب ، والناقة يستخدمها لاداء الحج فى مكة . ويبدو أن للضحية وجهين : فهى قربان من أجل الميت حيث أن من يقوم بالتضحية يقول اثناء قيامه بذبح الضحية : يافلان دونك ضحيتك لاعورة ولادورة والله وانا صادق " .

ولدى بعض العرب ، الرواله مثلا ، تقاد الناقة المضحى بها إلى مقدمة الخيمة على مقربة من بعض الاحجار المسطحة الموضوعة على الأرض على هيئة بلاطات والمعدة لاستقبال دم الأضحية . والحجر الذى سوف يدهن بالدم على هذا النحو سوف يضعه الله فى أحدى كفتى الميزان يوم الحساب . وسوف توضع سيئات الميت فى الكفة الاخرى . واذا ثقلت الكفة التى بها الحجر ، فسوف يعفى عن السيئات .

وفى معان (فى شرق الاردن) يحصل كل قادر على ناقة يوضع لها كحل فوق عينيها ، لأن الكبش الذى أرسله الله برحمته بدلا من اسماعيل .

كانت عيناه مكحلتين . وعليه أن يسقيها فليس من الملائم أن تموت وهى عطشى . ويوجه راسها نحو الجنوب ، وتناخ (وتمدد) وتفتح رقبتها لاسالة الدم على الآرض .

ولدى سكان معان لايعانى الميت اطلاقا اذا لم يحصل على أضحيتة ومع ذلك فان الخطأ يقع على عاتق اسرته .

وفى حالة عدم حصول الميت على أضحيتة قد يأتى فى المنام لأحد أعضاء اسرتة ، الذى يسارع إلى أعداد وليمة خنائزية .

وعندما يخشى عربى عدم تقديم أضحية له بعد وفاته ، يقوم بتقديمها بنفسه أثناء حياته : سبع شياه ، أو بقرة ،أو ناقة . وبعد موته يحصل على نفس المزايا التى يحصل عليها لو كانت الأضحية قد تم تقديمها لحسابه بواسطة شحص آخر .

ويقدم لنا سليمان (ص ١٤٧ ــ ٢٤٨) وصفا آخر لهذه الاضحية يشتمل على بعض من المعلومات الطريفة فيقول :

" وقد أحضروا الناقه البيضاء الكاملة الاعضاء ووضعوا على سنامها ثيابا وخرجا مملوء حنطة وملحا وبلحا . فالزكاة فى هذا العيد مفروضة ولاتصلح الذبيحة بدونها . فالثياب يتقاسمها الفقراء على الأرض كما يقول الأعراب والله يلبس مثلها فى الجنة صاحب الضحية ، فلا يذوق عذاب البرد والم الرياح الصرصرية , والمائت على زعم الأعراب يمتطى هذه الناقة الى جنة النعيم . واما مايملأونه فى الخرج فهو زاد فى رخيل المائت الى ابواب الجنة . وكان الى جانبى شيخ من عرب الموازرة يورد لى الشرح فى معنى الضحية ولوازمها قال : " لايصل المائت الى دار الخلد الا متى حضرت الناقة والزهاب " والزهاب هو الطعام .

وقد روى لى محمد الكنيعات من انفقراء أن الروالـه يأتون بذبيحة

فيعقرون قوائم الناقة ويديرون راسها على حجر كبير وينحرونها فتسيل الدماء وتملأ الموضع . قال : " وفى يوم الدين يوضع الحجر المنضوح بالدماء فى كفة الميزان الإلهى فترجح الاعمال الصالحة على الخطايا والمأثم . ولربما ضحى الاعرابى ضحية وهو فى قيد الحياة فبنحر الجزور ويقول : " يارب تقبل ضحيتى قبل مماتى " .

ويقول بوركاردت (ملاحظات ، ج ١ ، ص ١٠٠) انه في يوم عيد الضحية فوق عرفات ، تذبح كل اسرة عربية من الإبل بقدر عدد من مات من أفرادها البالغين خلال السنة الاخيرة ، سواء كانوا ذكورا أم إناثا . وحتى إذا لم يترك الميت لوارثه سوى بعير واحد فإن من الواجب التضحية به . وإذا لم يترك شيئا فعلىأقاربه ان يذبحوا بعيرا من ابلهم الخاصة . ومن الممكن الاستعاضة عن البعير بسبع من الشياه . واذا تعذر الحصول على كل العدد اللازم من اجل قربان سنة الوفاة ، فمن الممكن تعويض العجز بذبح بعض منها فى السنة أو السنوات التالية .

ولدى الروالة يضع أقرب أقارب الميت عند عيد الضحية التالى : شدادا على ناقة صحيحة (لايستعمل جمل اطلاقا) . يضع عليه خرجا يحتوى على دقيق وحجر صوان مما يستخدم فى قدح النار ، وقربة مملوءة لبنا ، وسميل ، وقربة ماء ، وأشياء اخرى قليلة الأهمية . واذا كان الميت امرأة وضع على الناقة حداج ووضع نوع حرام ، وثوب نسائى ، وتوضع نفس المؤونة كما هو الحال عند موت رجل . وأمام خيمته يقول قريب الميت وهو يقبض على رأس الناقة : " يا فلان دونك ضحيتك " . وبعد أن يردد هذه العبارة ثلاث مرات يذبح الناقة وينثر دمها فى اتجاه جهات العالم الأربع ، ويدعك اللحم بالملح وأما أن يتصدق به أو يطهوه خارج الخيمة . وكل ما تحمل الناقة ، وجلدها ولحمها يخص الميت . وكل هذه الأشياء من الواجب التصدق بها ، لكن من الممكن أيضا أستعارتها من الميت كما هو الحال بالنسبة لسكين المستخدمة فى ذبح الناقة ، والاناء الذى تم فيه سلق اللحم ، والمنسف الذى تم تكويم اللحم عليه : (موسيل ، ص ٦٧٢) .

الفصل السابع عشر
عادات ومعتقدات متفرقة

تمارس القبائل العربية المعاصرة بالإضافة إلى ما سبق أن وقفنا عليه الكثير من العادات ويشيع لديها العديد من المعتقدات التى لا تخلو من الطرافة .

ونستعرض ، فيما يلى ، طائفة من هذه العادات والمعتقدات .

١ - توقير اللحية :
يجرى العرف لدى القبليين العرب بإعتبار اللحية مظهرا هاما لشرف صاحبها وكرامته ، ولذلك فهى محل توقير كبير .

يقول أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر أن توقير المسلمين للحيتهم أمر شائع ، ولا يستطيع العبيد أن يطلقوا لحاهم . وحلاقة ذقن رجل هو أمر مهين لكرامته : لذلك يقسم البدو بلحاهم وهم ممسكون بها بأيديهم : (وصف مصر ، حـ ٢ ، ص ١٩٧) . ومن صيغ حلف اليمين لدى بعض العرب : " على لحيتى " ، " وحياة دقنى " : (دوتى ، ص ٣٠٩) .

ويقول دوتى (ص ٣١١) أن اللحية ينظر إليها فى بلاد العرب بوصفها رمزا لكرامة الإنسان وشرفه ، وانتزاعها يعتبر أقصى إهانة يمكن توجيهها لصاحبها وعن الرجل الشريف يقولون " لحيته طبية " ، وعن الوضيع يقولون (ما ليه لحية) .

وقص اللحية أو نتفها يستخدم كجزاء فى بعض القبائل العربية لبعض الجرائم .

ففى احدى قرى شرق الأردن شرع رجل فى سرقة محل لآخر . وتمكن صاحب المحل من القبض على اللص ، فأوثقه بشدة ونتف شعر لحيته واحدة بعد أخرى ، ثم إقتاده إلى شيخ القرية وقال له : لقد قبضت على السارق وعاقبته ولا أريد أى تعويض آخر : (جوسان ، ص ٢٢٩) .

وجرت العادة فى بعض جهات شرق الأردن بأن يلقى السارق حين القبض عليه أمام باب الخيمة وقد أوثقت يداه خلف ظهره ، ثم تدعك لحيته بعجين الدقيق ويترك حتى يجف . ثم يؤتى بجدى يشرع فى أكل العجين وينتزع فى نفس الوقت الشعر من ذقن السارق : (جوسان ، ص ٢٢٩) .

وفى الثلاثينات من هذا القرن عندما أحتلت قوات الملك عبد العزيز آل سعود مكة لاحظ الجنود من البدو أن مدير التكية المصرية كان حليقا . وكانوا يشعرون بالأسى الشديد من أجله لإنهم كانوا على يقين من أنه أرتكب جرما فظيعا ، بسببه أمر حاكم مكة السابق بإزالة لحيته عقابا له . ففى نجد ، حلق اللحية يعد عقوبة أشد من عقوبة الموت . ففى الحالات القصوى عندما يريد الحاكم تقديم عبرة للناس ، يأمر بإزالة لحية الجانى ، وفى بعض الأحيان تؤرخ الأحداث بنسبتها إلى مثل هذه الوقائع فيقال مثلا : " فلان ولد أو تزوج أو قتل فى السنة التى حلقت فيها لحية فلان " : (وهبة ، ص ١٨).

٢ - طقوس خاصة بشعر الرأس :

ترتبط بشعر الرأس ، وبخاصة شعر الأطفال ، طقوس متعددة . ففى بعض الجهات عندما يبلغ الوليد الأربعين من عمره يجرى له إحتفال فريد من نوعه وهو الإحتفال بحلاقة شعر الرأس . وللشعرات الأولى من رأس الطفل مقام خاص . فلا يجوز حرقها أو رميها بل يجب الإحتفال بها أو دفنها فى موضع معين فى التراب أو فى شق من شقوق الجدران إتقاءا للعيون الحاسدة : (سالمة ، ص ١١٨) .

وفى اليمن وحتى وقت قريب كانوا يحلقون للطفل شعر رأسه إلا جزءا فوق الجبهة أو قمة الرأس . ويعتقد أن مثل هذا الطفل قد بيع إلى ولى الله " العيدروس " أو الإمام المهدى أو الولى سفيان أو الولى عمر بن على أو غيرهم : (لقمان ، ص ١٠٤) .

وفى بعض جهات حضرموت تجرى العادة بحلق كل الصبية شعور رءوسهم إلى درجة الصفر باستثناء شريط من مقدمة الرأس إلى مؤخرتها بعرض بوصتين ويسمى الشريط الحاجز بين جانبى الرأس " قمزوز " . ويترك هذا الشريط حتى بلوغ الصبى الخامسة عشرة من عمره وذلك لإعلان أنهم ما زالوا صبية لكيلا يقتلهم أحد خطأ : (ستارك ، ص ٩٨) .

وفى كل القرى المصرية صبية صغار حلق شعر رءوسهم فيما عدا بعض خصلات تركت دون أن تمس . وكل هذه الخصلات مكرسة لولى أو قديس ، تبعا لما إذا كان الوالدان مسلمين أم نصرانيين . وفى بعض الأحيان تكرس الخصلات جميعها لنفس الحامى المقدس . . . . وعندما يراد حلقها تقام حفلة هامة للغاية . حيث يؤتى بالطفل ، كلما أمكن ذلك ، إلى قبر الولى أو قبور الأولياء الذين كرست لهم خصلات الشعر ، وفى داخل هذه الأماكن المبجلة ، أو عند أبوابها ، يتم إجراء العملية . وفى حالات أخرى يتم ذلك فى المسجد . وإذا كانت الأسرة قبطية يؤخذ الطفل إلى الكنيسة التى تحمل أسم أو أسماء القديسين الذى كرست لهم خصلات الشعر . وإذا كان الصبى مسلما إإستدعى حلاق القرية لإزالة هذه الخصلات . ولدى الأقباط يتولى ذلك أحد القساوسة . ويجرى الإحتفال عادة عندما يبلغ طول الشعر أربع سنتيمترات أو خمسا : (بلاكمان ، ص ٧٢) .

ولدى التياها (فى النقب) يحمل كل الأطفال شعورا طويلة وعندما يكبرون ، حالما يبدأ شعر الذقن فى الظهور ، يتولى أبو الطفل أو أحد أقاربه قص شعره ويعجل بذفنه فى الأرض .

وفى قرى صعيد مصر يحرص الفلاحون على الإحتفاظ بالشعر المقصوص أو الذى يظل عالقا بالمشط . وكذلك بقلامات الأظافر خشية أن تقع فى يد عدو يستخدمها فى إلحاق الإذى بصاحبها . ولنفس السبب تدفن بعناية أو تحرق العظام التى أكل ما عليها من لحم أو قشر الفاكهة التى اكلت وهكذا .... (بلاكمان ، ص ١٩٠) .

وتلجأ النساء إلى قص أجزاء من شعورهن يعلقنها على شجرة من تلك الأشجار التى يعتقدون فى قداستها كوسيلة لإستمالة روح الشجرة أو كتعبير عن العرفان بالجميل لها لأنها إستجابت لرغبة أو حققت أمنية لصاحبة الشعر .

يقول جوسان مثلا (ص ٣٣٣) أنه كثيرا ما كان يشاهد خصلات شعر معلقة إلى فرع شجرة . وأن مرافقه فسر له ذلك . بأن هذه الشعور تخص نساءا مريضات زرن الشجرة وقصصن شعورهن تعبيرا عن تبجيلهن لها .

ولدى بعض قبائل شرق الأردن وفلسطين يستخدم قص الشعر بوصفه نوعا من الجزاء . فعندما كان يقبض على قاتل ويوثق فى الإغلال ، لا يقتل دائما للحول دون إستمرار العداوة وتقديم الدليل على الكرم . فيقول له ولى الدم " أنا أعفو عنك " لكن قبل أن يطلق سراحه يقص شعره . فيحلق له كل رأسه وأيضا السوالف والذقن . ثم يطلقه .

ولدى التياها عندما يؤسر رجل فى الحرب ولا يرغبون فى قتله ، يأخذونه إلى المضرب ويحلقون جانبا من رأسه فوق السوالف ويطلقون سراحه .

وفى بعض الأحيان يقبض البدو على خائن أفشى للأعداء خطتهم فى المعركة ، ويحلقون له كل شعر رأسه فى أحد الجانبين ، ويقصون شعر شاربه من الناحية الأخرى ويطلقون بعد ذلك سراحه " (جوسان ، ص ٩٥).

كذلك يعمد أقارب الميت الأقربون ، وبخاصة من النساء ، إلى قص شعورهم تعبيرا عن حزنهم لموته .

فلدى بعض قبائل شرق الأردن وفلسطين تقض النساء شعورهن ، عند موت زوج أو أب أو قريب دنى . وتمدد الضفائر الطويلة على القبر أو تلف حول الحجر الذى ينصب عند رأس القبر . وقد يقام عمودان أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ويمد بينهما حبل لتعلق إليه هذه الضفائر (جوسان ، ص ٩٤) .

٣- الحسنه أو الحسنى :

الحسنه أو الحسنى هى العمل الخير الذى يقوم به شخص من أجل آخر لا يبتغى من ورائه أجرا . والقبلى العربى وبصفة خاصة البدوى يشعر بالإمتنان الشديد لكل من أسدى له خيرا أو قدم معروفا وهو لا يزال يذكر هذا الخير أو المعروف طيلة حياته ، وإذا مات ورث خلفه من بعده الشعور بالإمتنان لمن قدم الخير لمورثهم . ولا يقتصر الأمر على العرفان بالجميل أو الشعور بالإمتنان بل أن الرجل يكون على أتم الإستعداد ليقابل الخير بالخير والمعروف بالمعروف . فالقبلى العربى وإن كان لا ينسى أية إساءة وجهت إليه فهو أيضا وبنفس القوة لا ينسى أى خير أسدى إليه .

يصف شقير (جـ ٢ ، ص ١٤١١) موقف عرب سيناء فى هذا الخصوص فيقول :

" وكما أن البدوى لا ينسى السيئة فهو لا ينسى الحسنة فإذا فعل أحد معه جميلا " شال له الحسنة " أى حفظ له هذا الجميل وأورث الجميل لأبنائه من بعده إلى إنقراض الذرية ولا فرق أن كان صاحب الجميل بدويا أو حضريا أما أهل العريش فيحرصون على حسناتهم مع البدو ويدونونها فى كتبهم . واما أهل البادية فيحفظونها فى صدورهم ..

وفائدة العرايشة من هذه الحسنات فى البادية عظيمة جدا . فإذا فقد لأحدهم بعير فتش " الحسانى " عليه حتى يجدوه . وإذا ضاع له حق عند أحد البدو ساعدوه على رده . وإذا كان له حاجة فى البادية وأضافهم أكرموه وقضوا له حاجته . وإذا إختصم إثنان من الحسانى على ضيافته حكم بالضيافة لصاحب الحسنة الأهم لأن الحسنات درجات فى الأهمية . وإذا حصلت حرب بين قبيلة المحسن وقبيلة المحسن إليه فالمحسن إليه لا يحارب المحسن ولا يقربه بسوء .

وأخبرنى الشيخ سليمان القصير شيخ اللحيوات الأسبق بشأن الحسنات بين العرب بعضهم وبعض : أن التياها قتلوا أخاه خشيبا فى جهة الطور منذ نحو أربعين سنة وتركوه فى مكانه . قمر به الزميلى شيخ العليقات فى ذلك الحين فحمله على جمل ودفنه فى تربة لهم فى جهة الرملة . فأتيت إلى الشيخ الزميلى وشكرت له جميله ونقلت له الحسنى وقلت : " ناقل لك الحسنى عـ الخمسة (أى خمسة جدود) لا هاملة ولا مرعية " . وأنا لا زلت أحفظ له هذا الجميل وسأورثه لأولادى من بعدى لخامس جد " : (شقير ، حـ ٢ ، ص ٤١٣) .

ولدى قبائل شرق الأردن وفلسطين ، العمل الطيب موضع ثناء وإعجاب دائما ومكافأة فى بعض الأحيان ويتبدى العمل الطيب فى العديد من الأشكال . وفيما يلى واحد منها محل تقدير بالغ :

قد يصل إلى مضرب أو جهة خبر مقتضاه أن جثة عدو أو غريب متروكة للطيور الجارحة أو لأنياب الضباع . عندئذ ينهض بضعة رجال ذوى قصد طيب فى الحال ويسرعون بأداء الواجبات الأخيرة نحو هذه البقايا القانية فهذه حسنة . ولن تنسى القبيلة أو على الأقل جماعة القرابة التى ينتمى إليها الميت التعس هذه المروءة . فإذا حدث فى غزوة أو حرب أن سرقت ماشية صاحب الحسنى فعند مطالبته بها سوف ترد إليه بالكامل . ففى يوم من الأيام أبلغ العزيزات فى كيرك أن حميدى ، وقد قتل حديثا ، تركت

جثته على الطريق دون دفن . وفى الحال قام خمسة من البدو لدفن جثة هذا العدو رغم سقوط الثلج وإشتداد البرد . فهذه حسنى : (جوسان ، ص ٧٧) .

٤ - طلب العفو :

ثمة أساليب جرى بها العرف ، لدى القبليين العرب ، لطلب العفو عندما يخطىء شخص فى حق آخر ويرغب فى الإعتذار له لكى يصفح عنه .

يقول دوتى (ص ٣١١) مثلا عن عادة بعض العرب فى هذا الشأن : " قبل جبهة أى إنسان غاضب وسوف يزول حنقه . وعلى الخصم أن يباغت خصمه وإلا فسوف يرفع الأخير يدين صارمتين لمقاومتك "

كذلك يقول دوتى (ص ٣١١) أن من يتوسل إلى آخر من أجل أن يصفح عنه يمكنه أن يعقد عقدة معينة فى غترة آخر ، وبهذا ينقذ نفسه : فحتى ولو كان الآخر ولى دم فعليه أن يعفو من أجل الله .

٥ - الأيمان :

يكثر القبليون العرب من إستخدام القسم فى حياتهم اليومية . فى أحيان كثيرة يقسم القبليون لتأكيد هذا الأمر أو ذاك ، جل هذا الأمر أو صغر ، وهم يستخدمون فى هذا الشأن العديد من الصيغ .

يقول دوتى (ص ٣١٢) مثلا أن عادة البدو تجرى بتأكيد كل كلمة ينطقون بها بيمين مثل " وحياة " ، وذلك فيما عدا الجهات الخاضعة للنفوذ الوهابى حيث يعتبرون القسم بحياة أى بخلوق نوعا من الوثنية . ويحلف البدو حتى بحياة الجماد فيقولون : وحياة النار ، وحياة هذه القهوة . ومن الأيمان : وحياتك وحياة رقبتى . ويقول الرجل أحيانا وحياة ابنى . ومن صيغ اليمين التى يشيع إستخدامها بين الأمهات فى قبيلة " بلى " " وحياة وليدك " و " حياة وليدى " . وقد تقول المرأة البدوية لابنها مؤكدة قولها " وحياة أبوك اللى جابك منى " : (دوتى ، ص ٣١٢) .

٦ - **التبييض والتسويد :**
نتحدث أولا عن التبييض ثم عن التسويد .

أ - **التبييض :**
يجرى العرف ، لدى كثير من القبائل العربية ، بأن يقوم الرجل الذى أدى له آخر خدمة أو قدم إليه معروفا بإتخاذ إجراء يعبر من خلاله عن عرفانه بالجميل . ويسمى هذا الإجراء التبييض ، وهو عكس التسويد . ويتخذ التبييض أشكالا تختلف بإختلاف القبائل لكنها تنطوى جميعا على الإعلان عن هذا الإعتراف بالجميل .

فلدى بدو سيناء قد يتخذ الإعتراف بالجميل صورة ما يسمى بالرجم .

" والرجم حجر أبيض أو مجموع من الحجارة البيضاء تقام على ماء شهير أو درب جهير إعترافا بجميل أو ردا لشرف أو تخليدا لأثر . فإذا فعل رجل مع آخر جميلا بأن انقذه من خطر أو نشله من فقر نصب له رجما على درب جهير أو ماء شهير وجعل عليه وشم قبيلته إشهارا لجميله . وإذا عاب بعضهم شخصا حكم المنشد عليه بإقامة رجم للمعتدى عليه على درب جهير أو ماء شهير ، ردا لشرفه " (شقير ، حـ ٢ ، ٤٠٨) .

وقد يتخذ التبييض صورة نصب راية بيضاء على ماء شهير أو درب جهير أشهادا بفضل أو إشعارا بجميل . فهو كالرجم إلا أن الرجم من حجر وهذا من قماش : (شقير ، حـ ٢ ، ص ٤٠٩) .

ب ـ **التسويد :**
تفتقد المجتمعات القبلية العربية ، كقاعدة عامة ، السلطة المركزية القوية التى بإستطاعتها تمكين صاحب الحق من الحصول على حقه من غريمه ولو بإستخدام وسائل القهر والإجبار عند الإقتضاء ومع ذلك فصاحب الحق ليس مجردا من كل وسيلة لإجبار خصمه على الوفاء له بحقه . فقد

تمحض العرف عن بعض وسائل يمكن لصاحب الحق الإستعانة بها من أجل الوصول إلى حقه .

فلصاحب الحق مثلا أن يستولى على بعض أموال غريمه ويعهد بها على سبيل الأمانة إلى شخص محايد ، ويحتفظ بها هذا الأخير إلى حين إستيفاء صاحب الحق خقه . وفى العادة تتجاوز قيمة الأموال المستولى عليها قيمة الحق المطلوب مما يشكل ضغطا على الخصم لحمله على الوفاء لصاحب الحق بحقه .

ومن الوسائل التى يضعها العرف ، لدى بعض القبائل العربية ، تحت تصرف صاحب الحق لتمكينه من الحصول على حقه وسيلة تنطوى على نوع من الضغط الأدبى على خصمه لحمله على المبادرة إلى إعطاء صاحب الحق حقه . وهى وسيلة على جانب كبير من الفعالية فى المجتمع القبلى لما نستتبعه من إستثارة الرأى العام فى الجماعة ضد كل من يحاول التملص من الوفاء بما عليه من إلتزام . وتتمثل هذه الوسيلة فيما يعرف بالتسويد .

ويتخذ التسويد صورا متعددة .

فلدى قبائل سيناء يتخذ التسويد صورة رفع راية سوداء على ماء شهير أو درب جهير تشهيرا لقبيح أو للتقصير فى وفاء دين أو غرامة . فإذا كفل رجل أخر فى سداد حق لثالث ولم يف بكفالته نشر المكفول له عباءته كعلم فى ملأ من الناس وقال هذه راية فلان فإنه نكث بوعده وقصر فى كفالته ونحو ذلك من العبارات التى تسود وجه الكفيل . فإن كان المكفول له محقا سكت الكفيل وإلا طلبه للمنشد وغرمه غرامة شديدة : (شقير جـ ٢ ، ص ٤٠٩) .

ولدى قبائل بنى صخر (فى شرق الأردن) عندما يؤذى بدوى بدويا آخر من قبيلته إيذاء متعمدا وعندما يكون الأذى بالغا ، لكن لا يصل فى

جسامته حد إقتضاء سفك الدم ، على الطرف المعتدى عليه الإعلان عن رغبته في التسويد . وعندئذ إذا كان في مقدور المتهم إصلاح الأذى ، وجب إعطاؤه الفرصة لذلك أو لكي يثبت أنه برىء .

وإذا لم يكن بإستطاعته أن يفعل لا هذا ولا ذاك ، يجرى التسويد بعد ثلاثة أيام .

فيبدأ المعتدى عليه بغرس راية سوداء أمام خيمة المذنب ، ثم يمتطى راحلته ويقوم بالدوران حول المضرب ويزرع ستة عمد أخرى على ربوات ظاهرة .

ولمدة ثلاثة أيام تظل الرايات السوداء تخفق في الريح ، وعندما يأتى غرباء لزيارة المضرب ، فرادى أو جماعات ، تكرر العبارات الشعائرية .

وسواء كان المسود محبوسا داخل خيمته أما كان قد هرب من العار قبل ذلك مع أمواله وأسرته ، وهو أمر يسمح له به ، غير أنه فى هذه الحالة لا يسمح له بالعودة إطلاقا ، كما لا يسمح له بهدم الخيمة أو أخذها معه . (سيبروك ص ٩٠) .

وفى الأجيال السالفة كان وقع التسويد ثقيلا على أسرة الرجل المباشره : أولاده وأبيه وأخوته مثلما كان ثقيلا على الرجل نفسه . وفى الوقت الحاضر ما زالت تستخدم الصيغة الشعائرية القديمة " وأسرته " . وإلى هذا الحد يشكل التسويد عارا عليهم جميعا ، غير أن المقاطعة اللاحقة لا تلحق ، فى العادة ، سوى الفرد المذنب فحسب .

وإذا بقى المسود فى المضرب سمح له بحمل السلاح ، والمشاركة فى الغزو أو الحرب ، وسمح له بحيازة الأموال لكنه يكون مجللا بالعار ، ويستبعد من حلقات القهوة والمجالس .

وفى العادة يظل هكذا ، وبعد فترة مناسبة من الوقت ، يسعى على نحو آخر إلى التكفير والإعتذار ، عارضا السلام على المجنى عليه فى صورة بعير أو بضع رءوس من الماعز ، لكى يحمله على العفو عنه ورد إعتباره . وعندما يكون الضرر فرديا ، يكون منح العفو أو رفضه بين يدى المجنى عليه .

وعندما يكون الجرم غير قابل للعفو أو غير قابل للإصلاح يترك المسود قبيلته ، وعنئذ يصبح دمه مهدرا ، فلن تقبله أية قبيلة أخرى ولو كان بينها وبين قبيلته دم .

والتحالف الوحيد الذى يمكنه عقده هو التحالف مع عصابات البدو الغجر الذين لا ينتمون إلى قبيلة ما ، ومع الأنذال وقطاع الطرق : (سيبروك ، ص ٩٠) .

ويشرح سيبروك (ص ٩٢) دلالة اللون الأسود لدى البدو فيقول أن اللون الأسود لدى البدو هو رمز المصيبة والإثم ، والحزن ، وسوء الحظ ، لكن الشر فى الرمز وليس فى اللون الأسود ذاته . فالسواد لا ينطوى على صفة سحرية أو عار ذاتى . فالرجل له قلب أسود (شرير) ، وسود وجهه (الحق به العار) . ومع ذلك فالخيام التى يقيم فيها البدو سوداء ، وعباءات الرجال يغلب عليها السواد ، والعقال أسود ، والألبسة الشائعة لكل نسائهم سوداء من الرأس إلى القدم .

وبالمثل فرغم أن الطلعة السمراء تعتبر عيبا فى جمال المرأة أو الرجل فإن الزنوج بينهم لا يعانون ، سواء كانوا أحرارا أم عبيدا ، من أى إحتقار .

٧ – عادات مرتبطة بالسفر :

ترتبط بالسفر عادات متعددة قد تختلف تبعا للقبائل نستعرض بعضا منها فيما يلى :

أ – وسيلة لضمان عودة قريبة للمسافر :

من العادات المعروفة عند بعضهم (فى حضرموت) بالنسبة للمسافر أنهم يضعون كمية من التراب يطأها برجله ثم يصرونها فى خرقة يعلقونها فى سقف درح منزله قبل مغادرته البلد اعتقادا منهم بأن فى هذا التراب جلبا له من السفر ليعود قريبا . وقد تجد فى بعض الديار عددا من هذه الصرر بقدر عدد المسافرين من أهله ـ وما أكثر المهاجرين من حضرموت : (الشاطرى ، جـ ١ ، ص ٢٩٤) .

ب ـ وسائل لضمان عودة سالمة :

ولدى بعض قبائل شرق الأردن وفلسطين عندما يزمع أحد البدو السفر يأخذ قطعة من خبز بيت مشهور بالطيبة والفضل والسعد . فيدخل البدوى إلى البيت أو الخيمة ويقول لصاحبه " اعطنى قطمة من خبزك : فال " فيرد عليه صاحب البيت أو الخيمة " خذ : تقول " ويعطيه قطعة من الخبز . ويطلب الفال بصفة خاصة من عروسين . وعندما تكون الرحلة المراد القيام بها صعبة وتنطوى على مخاطرة ، لا ينسى صاحب الشأن مطلقا طلب " الفال " للحصول على البركة واستبعاد الخطر : (جوسان ، ص ٣٨٥) .

وفى كيرك لعشيرة " الصعوب " شهرة بأنها تجلب النحس . فإذا صادف البدوى عند خروجه من القرية أحد أفراد هذه الأسرة أسرع بالعودة إلى أحد الأصدقاء للحصول على " فال " وليحصن نفسه على هذا النحو ضد الخطر الذى يهدده . وقد يستعد أحد العرب للسفر ، لكن فى الليلة السابقة لرحيله يظهر له فى الحلم شخص معروف (ويسمى عرض) . فإذا كان هذا الرجل طيبا فللمسافر أن يشرع فى السفر ، فلن يحدث أى حادث مؤذى . لكن إذا رأى فى الحلم إنسانا شريرا فعليه أن يمتنع عن الرحيل : فسوف تنتظره مصيبة فى الطريق : (جوسان ، ص ٣٨٥) .

٨ – كراهية الرجال لفحل الخيل :

ذكر سيبروك (ص ٥٤) أن لدى ذكور قبيلة بنى صخر كراهية غريبة نحو فحول الخيل . فرغم أن الفحل لا يعد نجسا ، كما هو الحال

بالنسبة للحمار ، فقد لاحظ أن الرجال يتجنبون لمسه أو الإقتراب منه كلما أمكن ذلك . وذكر سيبروك أنه لا يستطيع أن يقطع ما إذا كان سبب هذه الكراهية غيرة الذكور غيرة غامضة بدائية من هذه الفحول أم مجرد الإحتياط فى مواجهة حيوانات خطرة فى بعض الأحيان . وكانت كراهيتهم ملحوظة . فلم يكونوا يمتطون هذه الفحول إطلاقا . فقد كانت كل خيولهم المسرجة أفراسا وهى التى يكنون لها حبا عظيما .

٩ - نجاسة بعض الحيوانات :

يشيع لدى بعض القبائل العربية الإعتقاد فى نجاسة بعض الحيوانات وفى مقدمتها الحمار والكلب .

أ - نجاسة الحمار :

يسود ، لدى بعض القبائل العربية ، الإعتقاد فى نجاسة الحمير ، ويجرى العرف بمنع الرجال من إستخدامها أو حتى لمسها .

ومن هذه القبائل قبيلة بنى صخر فى شرق الأردن . وقد روى رحالة أمريكى (سيبروك ، ص ٥٤) زار هذه القبيلة فى أوائل القرن الحالى أن لمس بدوى ذكر من أى قبيلة مسلمة حمارا ومن باب أولى ركوبه يعتبر عارا وينطوى على نجاسة . ففى مضرب متقال (شيخ القبيلة فى ذلك الوقت) كان هناك الكثير من الحمير غير أن إستخدامها كان مقصورا على النساء ، اللاتى كان يمكنهن لمسها دون أن يلحقهن عار . وكذلك الحال بالنسبة للذكور غير البالغين . وروى سيبروك أنه إرتكب ، دون وعى ، خطأ التربيت على حمار صغير عصر يوم من الأيام فى مضرب متقال . ولولا أنه قدم مسبقا الدليل على رغبته فى التعرف على أعرافهم وإحترامها لتركوه " يفقد وجهه " دون أن يعيروا ذلك أدنى إهتمام . وبدلا من ذلك أسرع رجلان فى الحال لكفه عن ذلك وشرحا له الأمر بكل حرص وأخذاه إلى إحدى الخيم حيث كان عليه أن يغسل يديه بصابونة وكانت أول صابونة يشاهدها فى مضرب من المضارب .

ورغم نجاسة الحمار قد يجرى العرف باستخدام بعض أجزاء الحيوان الميت كوسيلة سحرية لكسب مودة الزوج .

ففى معان والبلقاء بشرق الأردن تلجأ المرأة التى ترغب فى إثارة المحبة نحوها فى قلب زوجها إلى إجراء معين ، وقد وصفه لجوسان أحد مرافقيه :

" قالت لى فضة فى يوم من الأيام خذ ربع المجيدى هذا وتعالى ساعدنى فى شق رأس حمار بن حمار . وقادتنى إلى قرب حمار نافق ملقى فى مستودع قمامة . وتلبية لرغبتها شققت رأس الحيوان الملقى أمامنا . وتناولت المرأة المخ وطوته بعناية فى كمها الطويل وحملته إلى بيتها . وكان عليها أن تعجنه مع دقيق وتجعل منه خبزا ، تعطيه لزوجها لكى تجذبه نحوها وتحظى بحبه " : (جوسان ، ص ٣٧) .

ب ــ نجاسة الكلب :

روت باحثة انجليزية فى اوائل هذا القرن ماشاهدتة فى بعض قرى الصعيد فيما يتعلق بالوسائل التى كانت تستخدمها النساء لحماية أطفالهن المولودين حديثا فقالت أن من النساء من يقتلن كلبا صغيرا أثناء الشهر السابع من الحمل . ويضعنه على قطعه من القماش يسيل عليها دمه . وعند ولادة الطفل يلف بهذه القماشة الملوثة بدم الكلب . أما راس الكلب فبعد أن تكون قد حفظت فى الملح تحملها الأم المقبلة وتنقلها بعد الولادة إلى المولود . والسبب فى استخدام الكلب هو أن الكلب يعتبر فى مصر حيوانا شديد النجاسة ، ومن ثم فإن قرينة الأم لن تقترب من الجنين طالما أن الحامل تحمل هذا الواقى . ولنفس السبب لن يتعرض الطفل لآى أعتداء أو أذى من قبل قرينة الأم طالما أنه يحمل هذه التعويذه : (بلاكمان ، ص ٥٤) .

١- عادات ومعتقدات خاصة بالإبل :

تسود لدى القبائل التى تقتنى الإبل بعض العادات والمعتقدات التى تتصل بالابل ومنتجاتها .

ا- معاملة الابل :

يحسن البدو معاملة إبلهم ولايلجأون الى ضربها إلا فيما ندر وهم لايقسون فى ضربها أبدا ويسيئهم أبلغ إساءة أن يروا الابل وقد اسيئت معاملتها على أيدى الفلاحين .

فبدو مادبا يعتقدون مثلا أن سوق الابل بغير عصا اللوز خطيئة عظيمة لاعتقادهم أن الأنبياء ساقوا الإبل بعصا اللوز (العزيزى ، ص ١٦٦) .

(ب) الحلف بالإبل :

يحلف البدو بالابل باعتبارها أكبر نعمة أنعم الله عليهم بها . والحلف بالابل عندهم بعتبر يمينا عظيمة ومن ثم لايخطر فى بال أحدهم أن يحلف بنياقه كاذبا .

يصف العزيزى (ص ١٦٧) موقف بدو مادبا فى هذا الخصوص فيقول :

" ولكرامة الابل عندهم ، فانهم قد يحلفون بالله ، وبالنبى غير صادقين ، مرارا ، ولايحلفون بنياقهم كاذبين . وقد أتفق لنا أن سألنا مرة أحد الشرارت لماذا تحلف بالله كاذبا ، ولاتحلف بنويقاتك ؟ " اجاب " الله ، ربنا ياطويل العمر ، طويل الروح ، والزين مطموع بيه ، وان حلفت وأنا ملزوز بالكذب ، ما يؤاخذنى . وهو الله ، الله يهداك ، مايموت ، ان حلفنا بيه كاذبين ، ولاعليه خلاف من كذبى ، ان كذبت ، ولاهو يكسب من صدقى إن صدقت . لكن نويقاتى إن حلفت بيهن بالكذب ، يموتن " .

(ج) حلب الابل :

من الشائع لدى القبائل التى تقتنى الابل قصر حلب الابل على الذكور دون الاناث .

وفى ذلك يقول العزيزى (ص ١٩٦) عن بدو مادبا أنه من كرامة الإبل عندهم أنه لايجوز للمرأة حلبها ، كانهم يعتقدون أن لبن الابل تقدمة لله أو قربان ، لايحق للمرأة أن تقدمه ، لأن تقديم القرابين من خصائص الرجال.

ولحلب اللبن مقتضيات لابد من مراعاتها .

فلا يجوز فى عرف البدو حلب الناقة من الجهة اليسرى ، كذلك من الواجب الحذر من سقوط اللبن على الأرض ، فهم يؤمنون بأن سقوط قطرات منه على الأرض موجب لسخط الله ونقمته . حتى أن العرش الالهى ليضطرب أشد الاضطراب ، نقمة على دافق اللبن . فهم عندما يحلبون ، يمنعون حلب الابل عند غروب الشمس خاصة لئلا يسقط من حليبها شىء على الأرض .

ومن اقوالهم " العرش ماجص (ضج) إلا من ثلاث :
١- دفقة اللبن (لبن الابل) .
٢- دفقة دم الصاحب .
٣- دفقة دم المعور البارد (المعور الذى لاسلاح له تشبيها بالعورة المرأة والبارد المستسلم الذى لايريد أن يحارب) : (العزيزى ، ١٦٦) .

(د) لبن الابل :
تسود لدى القبائل البدوية معتقدات خاصة بلبن الابل .

فلدى بدومادبا لايجوز فى اعتقادهم أن تنفخ الرغوة عن اللبن ، لئلا يكون ذلك إيذانا بذهاب الابل من عند أهلها ، كما تزول الرغوة عن الحليب . ولايجوز غلى لبن الناقة لأن ذلك فى اعتقادهم - احتقار لنعمة الله . ومن الكبائر عندهم خلط القهوة بالحليب . وقد سمع أحد زعماء البدو يقول " والله مأناخايف من ذنب ، خوفى من حط السكر على لبن البل نوبه " (العزيزى ، ص ١٦٧) .

وعادة عدم غلى لبن الإبل والأبقار منتشرة فى أرياف البلاد العربية والصومال وأفريقيا ، حيث يعتقد أن غليه يجعل لبن الابل والأبقار يجف أو تنقص كميته ، خصوصا بعد أن يلد الحيوان ، لان اللبن فى تلك الأثناء يبقى مرتبطا بعلاقة حية بالحيوان يحيث أن الحيوان صاحب اللبن يصيبه الضرر بواقع التعاطف بمثل الاساءة التى لحقت باللبن . ومعنى هذا أن غلى اللبن فى الوعاء يساوى غليه فى ضرعها ، وهذا من شأنه أن يجعل اللبن يجف فى مكانه الطبيعى : (لقمان ، ص ٧٢) .

(هـ) بول الابل :

من الشائع لدى القبائل العربية استخدام بول الابل لعلاج بعض الامراض المعوية ، وكغسيل لشعر الرأس لقتل ماقد يكون علق به من حشرات ، وفى بعض الأحيان تستحدم النساء بول الناقة كنوع من الصبغة يضفى على الشعر لونا أقرب إلى الشقرة .

فلدى آل مرة فى الربع الخالى يستخدم بول الناقة فى علاج أوجاع المعدة حيث يتم تناوله فى مقادير صغيرة . ويفضلون عليه قيء الناقة الذى يحصلون عليه بإدخال عصا فى حلقها . كذلك يستخدم البول كغسيل للشعر يقتل الحشرات : (توماس ، الأصل ، ص ٢٢٤) .

ويغسل بدو شمال الحجاز اطفالهم ببول الابل ويعتقدون أنه يحميهم من الحشرات . وبول الابل لاذع لاسيما عندما تكون أكلت من بعض الشجيرات القلوية مثل الرمث (rimth) . وفى هذا السائل يمشطون جميعا ، رجالا ونساءا ، شعورهم الطويلة (دوتى ، جـ ١ ، ص ٢٧٩) .

(د) الابل الضالة :

قد يفقد بدوى جمله أثر غارة أو سرقة عادية ، وعندئذ لن يهدأ له بال حتى يكتشف اين هو ، ويكتشف أى شيخ أو فرد أو قبيلة يكون حائزا له . وللتوصل إلى ذلك لديه وسائل عدة أكثرها شيوعا الطريقة المعروفة بالبلاصة :

وتتمثل في دفع بعض المال لشخص محايد لكى يذهب ويتجسس على الجهة ويعرف مكان الحيوان . (ديكسون ، ص ٣٤٢) .

(١١) عادات ومعتقدات خاصة بالأفاعى :

للافعى ، فى أعتقاد القبليين العرب ، وضع خاص ، ويرتبط بها بعض العادات والمعتقدات التى تنطوى على شىء غير قليل من الغرابة .

فمن السائد لدى القبليين العرب الاعتقاد فى أن الجن كثيرا مايتحذ صورة الافعى . وكما أن من الجن الصالح والطالح فكذلك الحال بالنسبة للافعى منها الطيب ومنها الشرير حسب طبيعة الجن الذى يتلبسها .

فلدى بدو جنوب تونس اذا ظهر حنش فى جدار المنزل فأول من يراه من أصحاب المنزل يصيح به : سلم تسلم فان أظهر الحنش الطاعة ، وانساب إلى جداره ، أو هرب إلى جهه أخرى ، تفاءلوا الخير ، ادعاء بان ذلك الحنش من الصالحين الذين لايؤذون أحدا ، وربما كان يمنا وبركة على السكان ، وإذا أظهر الحنش عصيانا وابدى استعداده للعراك وللدفاع عن نفسه بأن رفع رأسه وفتح فاه ، تشاءموا به ادعاء بأنه من أهل الشر وقتلوه : (المرزوقى ، ص ١٨٧) ويعتقد شيعة البحرين أن الافاعى جن فى هيئات مادية وانه لاينبغى قتلها . ومع ذلك فالافاعى الصغيرة تقتل وتوضع فى الشمس مع قليل من الملح وعندما يجف اللحم تماما يقطع ويوضع فى حقائب ويحمل كتعويذه ضد عين الحسود . وكثيرا ماتستخدم الافعى بواسطة السحرة فى تعزيماتهم ، وايضا فى إعداد العقاقير والادوية التى تستخدم فى علاج الاضطرابات ، العضوية والنفسية ، التى يعانى منها زبائنهم : (زويمر ، ٢٢٤) .

وروت باحثة مصرية (بدوى ، ص ٥٨) قامت بدراسة لعادات وتقاليد قبائل مصر الشرقية فى منطقة حلايب عن موقف قبائل العبايدة من الثعابين فقالت : " أثناء انحدارنا للوادى من فوق ربوة عالية تسمرت قدماى فى الأرض من الخوف والرعب ، فعلى مرمى بصرى ووسط الوادى يزحف ثعبان كبير يزيد طوله عن أربعة أمتار ، وجسمه غليظ ولونه مزيج من

الأصفر والبنى انه شكل ثعبان الاصله . لاحظت روينا (احدى نساء القبيلة) الرعب الذى حل بى فامسكت بيدى وكأنها تطمئننى ، وطلبت منى الجلوس والانتظار حتى يذهب الثعبان الى البئر وينتهى من شرب الماء . فهذا هو سلوك البدو تجاه الثعابين ، فلابد من توفير الأمان للثعبان حتى لايهاجمهم . وإذا أقبل الثعبان على البدوى فعليه أن يرسم بعصاه أمام الثعبان سبعة خطوط ويقول مخاطبا الثعبان : " تلك حدود الله بينى وبينك " فاذا انصرف الثعبان بعيدا فهو فى هذه الحالة من الجن المؤمنين ولايؤذى . اما اذا مر فوق الخطوط مقبلا على الرجل فهو جن كافر . ويحق قتله .

ولاتنتهى المسألة عند هذا الحد . ولكن يجب حمل الثعبان الى مكان آخر بعيدا عن المكان الذى قتل فيه . ويكون بعيدا عن منازل السيول ، ويحفر له قبر يوضع فيه سبع بعرات ضأن وفوقها الثعبان المقتول وفوقه سبع بعرات جمل . وتلك البعرات هى بمثابة حراس للقبر حتى لاتعود الروح ثانية للثعبان ، فينتقم من قاتله .

واذا تصادف وجود ثعبان فوق قبر ثعبان اعتبروه وليا ، فهو من الجن المؤمنين ويقدمون له الطعام والشراب . ويوفرون له الحماية .

والثعبان الوحيد الذى يتم قتله بدون تردد هو ثعبان " الطريش " وهو يعتبر بحق وحش الصحراء . فهو صغير الحجم ولايزيد طوله على ٦٠ سم ويتحرك وجسمه ملفوف على بعضه البعض ورأسه على شكل مثلث ويقفز من فوق الأرض . وليس من علاج للدغة إلا بتر الجزء المصاب وسكب الدهن المغلى عليه حتى يتوقف النزيف "

ويقول زويمر (ص ٢٢٤) أن الفكرة الخرافية التى تقول أن لكل أسرة ثعبانا حارسا شائعة للغاية فى مصر . وأن كثيرا من الأسر مازال يقدم صحنا من اللبن من اجل أفعاهم الحارس ، معتقدين أن المصائب سوف تحل بهم إذا أهمل الأفعى . وهذا أثر تخلف لاشك عن الاعتقاد القديم فى أن الافعى هى بنت الأرض : إقدم سكان الأرض وحارسة الأرض . " والتسويغ

الدينى لتقديس الأفعى نجده فى حالة الشيخ " هريدى " الذى يرى قبره أو مقامه ، مع قبر أو مقام زوجه ، فى التلال الرملية فى صعيد مصر على مقربة من مدينة أخميم . فالشيخ هريدى هو فى الحقيقة افعى يفترض أنه يشغل احد القبور . ويقع عيد ميلاد هذا الافعى المقدس فى الشهر التالى لشهر رمضان ويستمر حوالى ثمانية ايام . ويحضر هذا الاحتفال جمهور من المريدين ، الذين يعسكرون حول المقام أثناء الاحتفال .

وإلى جوار المقامين يوجد فلق فى الصخر لعله الجحر الذى كان يقيم فيه الولى قبل اقامه المقام .

ويحضر احتفال عيد الميلاد جمهور من المؤمنين المخلصين . ومازال يروى الكثير من الحكايات عن قوى الولى الخارقة . الذى يقال عنه أنه أفعى " فى سمك فخد الرجل " وانه اذا عومل باحتقار أو ازدراء نفث النار فى وجه المعتدى الذى يموت فى الحال ، كذلك يوصف الولى بأنه شديد الغيره على السمعة الطيبة لزوجته . ويقتل الولى كل اولئك الذين يبدون نحوها عدم إحترام .

وروى ديكسون (ص ٤٧١) عن موقف بدو قبائل شمال شرق الجزيرة العربية فقال " اصر البدو المرافقون لى على دفن نفس الأفعيين الكوبرا فى المكان الذى قتلتا فيه فى قبرين طويلين ضحلين . ثم وضعوا سبعة أصداف بحرية بيضاء بطول كل من القبرين قالوا عنها أنه دية القتل لتمتع زوج الأفعى من البحث عنهم والثأر منهم . وقالوا أن سبع حصوات بيضاء أو سبع بعرات جمل يمكن أن يكون لها نفس المعفول .

(١٢) الروح تترك الجسد اثناء النوم :

يسود الاعتقاد لدى القبائل العربية فى أن الروح تترك الجسد أثناء النوم . وتتجول كما يحلو لها ثم تعود اليه مرة أخرى . كما يسود الاعتقاد فى ضرورة ايقاظ النائم برفق وذلك حتى تتاح لروحه فرصة العودة الى جسده . ولعل هذا الاعتقاد يفسر العرف الشائع لدى القبليين العرب والذى يحظر قتل

انسان نائم . فلابد من ايقاظ النـائم قبل قتلـه . وقتل انسـان نـائم يستتبع لـدى القبائل العربية الخزى والعار لفاعله وللقبيلة التى ينتمى اليها .

فاهل القرى فى صعيد مصر يعتقدون أن الروح قد تترك الجسد أثناء النوم ، ويترتب على ذلك ان ايقاظ شخص بغتة ينطوى على خطورة فقد لاتتمكن الروح من العودة الى جسده . ولهذا فعندما يراد ايقاظ نائم لابد من فترة انتقال تتاح فيها للروح فرصة كافية للعودة : (بلاكمان ، ص ١٩٢) .

ويعتقد ابناء قبيلة الفقراء أن الروح تترك الجسد أثناء النوم وتذهب تتجول . وخلال جولتها ترى أشياء لطيفة تبتهج لها لكنها قد تقابل ايضا أشياء مزعجة ، تؤدى الى اكتئابها الشديد . ويلاحقها الحزن حتى بعد انتهاء فسحتها عندما تعود الى جسدها : (جوسان وسافبنياك ، العرب ، جـ ٨،٧ س ٢٨ ، ص ٥١١) ولدى بنى صخر لايجوز تحت أى ظرف من الظروف قتل رجل وهو نائم .فاذا ذهبوا لخيمة رجل ليقتلوه فعليهم أن يوقظوه اولا وأن يعطوه فرصة للحديث والطعام والشراب والتدخين . وفى احدى المرات ندب عبد لدى قبيلة الصردية لتنفيذ عقوبة الموت التى أصدرها مجلس القبيلة على احد الرجال . واهمل العبد ، ربما يداعى الخوف ، إيقاظ الرجل وقد ترتب على ذلك أن أعداء الصردية ، ولسنين طويلة ، ظللوا ينعتونهم عند لقائهم فى المعارك صائحين : " يا ذباحين النوام " : (سيبروك ، ص ١٢٦) .

(١٣) مصير أرواح البشر بعد الموت :

تشيع لدى القبائل العربية معتقدات معينة بخصوص مصير ارواح الموتى . فالقبلى العربى يعتقد ان الموت يقضى على الجسد اما الروح فلا يعتريها الفناء بل تظل موجودة . وتختلف القبائل فى تصورها لمصير أرواح الموتى .

فابناء قبيلة الفقراء يعتقدون أن لأرواح الموتى حياتها الخاصة . فكل منها تصعد الى السماء على هيئة طائر ، واحيانا تهبط الى جهنم . ولكن ،

بصفة عامة ، يعتقدون أن الروح تذهب الى بيت المقدس فى هيئة ذبابة ، لكى تنتظر فى بئر الارواح ، يوم القيامة .

وروى أن فتاة ، تدعى فاطمة ، قتلت فى مدائن صالح وظل قاتلها مجهولا ، وبعد ان خرجت روح الفتاة من جسدها ذهبت الى بيت المقدس ونزلت فى بئر الأرواح ، ولم تستطع أم الفتاة الصبر على فقد ابنتها ، فأخذت طريقها نحو المدينة المقدسة ، على أمل أن ترى روح أبنتها ، وتعرف اسم القاتل . واقتربت من البئر ونادت : (يافاطمة يابنتى) وأجابتها روح الفتاة : (فلان هو الذى قتلنى) ، ارجعى الى بلدنا وأبلغى اخوتى ، وعادت الأم المسكينة إلى خيمتها ، واطلعت أخوة فاطمة على اسم من قتل اختهم . واستعملوا حقهم فى الثأر وذبحوا التعس . وتوجهت روح هذا الأخير الى بئر الارواح فى بيت المقدس . وقالت لروح فاطمة (لماذا لم يطلب أخوتك الدية بدلا من أن يقضوا على حياتى . كان من الممكن ارضاؤهم . هاأنذا الآن غارق فى التعاسه) . وبعد أن رأت أم فاطمة انه قد تم الاخذ بالثأر عادت الى القدس ، وانحنت على بئر الا رواح ، وشاهدت القاتل التعس يتجول فى شقاء فى قعر البئر ، وكان يحمل حبلا حول رقبته يقبض على طرفيه رجلان . وكان العطش يبرح به ، غير انه فى كل مرة ينحنى ليشرب يشد الرجلان الحبل بقوة ويعيدان راسه الى الخلف ، وامام هذا المنظر أطلقت أم فاطمة ضرخة فزع وسقطت فى بئر الأرواح ، ولتجنب حوادث مماثلة مستقبلا اغلقت فتحة البئر : (جوسان وسافتينياك ، العرب ، جـ ٧ ، ٨ ، س ٢٨ ، ص ٥١٢) .

ويعتقد بدو بير سبع أن الجنة حديقة حقيقية تجرى بها الانهار وتكثر الخيول والابل وقطعان الغنم والماعز ، وهى مكان توجد به مراعى غنية لاينالها الجفاف ولايمسها الحر الشديد أو البرد القارص ، وهى مأوى لكثير من النساء والجوارى الجميلات ، فيها تتحقق كل حاجة وتلبى كل رغبة ، فيها لاتلعب النقود أى دور فى المتعة التى قد يطلبها الانسان .

وفيها ايضا يمكن للصديق أن يلقى صديقه بمجرد أن تثور لديه الرغبة فى لقائه ، فيها يرتدى الجميع ثيابا رقيقه ، فيها لامكان للحزن أو الاسى أو المرض : (العارف ، ص ٤٠) .

ويعتقدون أن الجحيم حفرة ذات لهب محرق فيها يعيش الانسان فى حالة موت لايأتى ابدا . وهى مكان عذاب دائم للجسد والروح والعقل .

ويعتقد بدو بير سبع ان الانسان عندما يترك حياته المادية لايذهب مباشرة الى الجنة أو الجحيم وليس ثمة اهمية لجسده أما روحه فتتجول خلال ممر لتعبر طرقا يقف عندها محمد (صلعم) والله (تعالى عما يصفون) وبناء على توصية محمد (صلعم) يرسل الله الروح الى مصيرها : (العارف ، ص ٤٠ ، ٤١) .

ويعتقد الروالة أن الجنة توجد فى مكان ما تحت الأرض . وهناك مطر بصفة منتظمة وربيع دائم ووفرة ومرعى طيب وهناك أيضا يسطع القمر بصورة دائمة . وفى الجنة يعيش الروالة معا وهم شباب لا تتقدم السن بهم أبدا . وهناك يمكنهم الزواج ويكون لهم أولاد كبار فى الحال . ولكل واحد خيمة كبيرة وقطيع كبير وأولاد كثيرون . ويغيرون على القبائل المعادية التى مصيرها النار ، حيث يذهب كل أعداء الروالة .

وتوجد الجحيم أما فوق الشمس أو فى مكان آخر فوق الأرض . وهناك لسعات الشمس ليلا ونهارا ، والمطر نادر ، وتتلاقح الإبل بدون فائدة ، وتحتاج التربة إلى الرى بصورة منتظمة ، ويضطر البدو هناك إلى القيام بأعمال شاقة ولمدة طويلة . وهناك يخدمون الفلاحين ، وعليهم إطاعة الحكومة ، وهم يجندون ، ويؤدون الخدمة العسكرية ، ويعلم الله نفسه كل عذاباتهم . وفى هذا المكان لا يسطع القمر ولا النجوم على الإطلاق .

ويقيم الله فى الجنة والنار فى نفس الوقت . فهو موجود فى كل مكان وهو يسمع ويرى كل شىء غير أنه لا يرى ، وبإذن من الله من الممكن حتى

للموتى أن يتركوا الجنة أو النار ويذهبوا لزيارة أقاربهم الذين يظهرون لهم فى الأحلام : (موسيل ، ص ٦٧٥) .

ويسود الاعتقاد لدى القبليين العرب ان روح الميت قد تاتى لزيارة أهلها الذين على قيد الحياة ، ولهذا السبب يعمد الأحياء إلى زيارة قبور الموتى ردا لزيارتهم .

ففى مصر يعتقد أهل الصعيد أن الموتى يمكن أن يظهروا للاحياء ، وأن يتحدثوا اليهم ، بل ويصدروا الاوامر إليهم : (بلاكمان ، ص ١٩٢) .

ولدى قبائل شرق الاردن يسود الاعتقاد فى أن الميت كثيرا مايظهر لاقاربه فى الحلم ويوبخهم على اهمالهم فرض الضحية فيسعى الأهلون باداء الواجب وتقديم الذبيحة : (سلمان ، ص ٢٤٩) .

ولدى بدو مادبا يشيع الاعتقاد فى ان روح الميت تظل حائرة إلى الأربعين ، وأنها تعاود زيارة الأهل إلى نهاية السنة . وهذا هو السر فى كون الحداد عندهم سنة كاملة : (العزيزى ، ص ١٩٣) .

ومن العادات الشائعة لدى كثير من القبائل العربية زيارة القبور . اذ يعتقد كثير من القبليين العرب أن روح الميت تظل هائمة على مقربة من قبرها ، أو أنها تأتى إلى القبر فى بعض المناسبات مثل الاعياد وغيرها . ويعتقدون ان هذه الزيارة تمثل لقاءا حقيقيا بين الأحياء وارواح الموتى وأن من شأنها أن تدخل الراحة والبهجه على أرواح الموتى .

يقول دوتى (   ) مثلا لقد رأيت فى بعض القرى نساء المسلمين بل والنساء المسيحيات يذهبن فى ايام معينة الى القبور لينتحبن . ولقد رايت ارملة تصحب أطفالها اليتامى الى القبر حيث ركعوا معا ، ورأيت الأرملة تعلم أولادها النحيب ، وكانت تنتحب على فقيدها بصوت مختنق وهى تقول : " ياحبيبى " .

الفصل الثامن عشر
الطب القبلى

للقبائل العربية ، شأنها فى هذا شأن غيرها من المجتمعات ، وسائلها الطبية التى تستهدف العلاج من المرض أو الوقاية منه ولا تقتصر الوسائل الطبية على البشر ، فمنها ما يخص الحيوانات . فكما تعرف القبائل العربية الطب البشرى ، كذلك تعرف الطب البيطرى ونتحدث أولا عن الطب البشرى ثم عن الطب البيطرى .

أولا : الطب البشرى

تعرف القبائل العربية العديد من الوسائل التى تستهدف علاج بنى الإنسان أو وقايتهم من الأمراض المختلفة .

ونستعرض فيما يلى أهم هذه الوسائل .

أولا : وسائل العلاج :

يعرف القبليون العرب وسائل متنوعة تستهدف علاج المريض من مرضه . وهى وسائل يستند بعضها إلى التجربة والخبرة بينما يستند البعض الآخر إلى معتقدات سحرية أو غيبية . ونستعرض ، فيما يلى ، بعضا من وسائل العلاج التى يمارسها القبليون العرب المعاصرون :

(١) الفصد والكى :

الفصد وهو إسالة بعض دم المريض ، والكى وهو وضع حديد محمى فى النار على موضع الألم وسيلتان شائعتان للعلاج لدى القبائل العربية البدوية والمتوطنة على السواء .

وقد أشارت السيدة سالمة فى مذكراتها (ص ٢٣٧) إلى دور الفصد أو الحجامة كوسيلة للعلاج فى بيئتها العمانية بقولها :

" والعلاج الرئيسى العام هو الفصد أو الحجامة وكان هذا هو العلاج لكل مرض من الجدرى إلى الكوليرا وما بينهما ، وكان الإعتقاد أن نزيف الدم هذا لا يشفى من جميع الأمراض فحسب بل إنه وسيلة وقاية أيضا . وعلى هذا الأساس فإن غالبية الناس ، وحتى الإصحاء الأقوياء الذين لا يشكون من ألم ، يسلمون أنفسهم إلى مشرط الحجام مرة واحدة على الأقل فى كل عام . لينظف دمهم وتقوى أجسامهم ويكتسبوا المناعة والوقاية من الأمراض " .

وفى اليمن كان الكى يتم على شكل خطوط تحدثها قطع من الحديد المحمى فى النار إلى درجة الإحمرار فى مواضع الألم .

وتقوم العجائز الخبيرات بالمهنة بعمليات الحجامة والكى ، وكن يثقبن جلد المريض فى ظهره أو بين كتفيه وفى عدة أماكن أخرى بالموسى ، ثم يضعن قرن بقرة على الجرح ويسحبن من المريض ما يملأ عدة قرون ، الأمر الذى يسبب ضعف المريض وهزاله . وتكرر العملية ثانية بعد بضعة أيام حتى يسحب جميع الدم الفاسد فى إعتقادهم من جسم المريض وتقوم هذه العملية على فكرة تجديد الدم . وكثيرا ما يتعرض الفرد للحجامة مرتين وثلاث مرات أو أربع مرات فى السنة . ومنهم من يحجمون مرة كل شهر : (جوهر وأيوب ، ص ١١٥) .

ويقول الرحالة الأمريكى سيبروك (ص١٠١) ، فى أوائل القرن الحالى أن شيخ بنى صخر فى ذلك الوقت أطلعه على قرن ماعز أسود واسع الفتحة عند أحد طرفيه ضيقها عند الطرف الآخر ، يستخدم فى فصد الدم . وذكر أن الكى كان يتم باستخدام الحديد المحمى أو بالعسل المغلى ، وكان إستخدامه شائعا لعلاج كل البثور والجروح سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان .

ولدى الفقراء يستخدم الكى فى علاج كثير من الأمراض . فهو يستخدم فى علاج الأمراض التالية : (أم جنوب) وهو مرض فى الأمعاء فى الجنب ، (الطرف) وهى برودة تعقبها سخونة وقىء ، و (الزرد) وهو ألم بالرقبة . والكحة الشديدة ، و (الحبة) وهى البثرة ، و (أم ظل) وهو مرض بالعين : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٣ ، ٤ ، س ٢٨ . ص ١٨٧ ، ١٨٨) .

ولدى بدو سيناء رأس الدواء الكى . فهم يستعملونه لوجع الرأس والمعدة والظهر وسائر الأمراض الباطنية :(شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٩٤) .

(٢) التوابل والأعشاب :

يشيع ، لدى القبليين العرب ، استخدام التوابل والأعشاب فى علاج الأمراض المختلفة . وقد جرت العادة عندهم باستخدام توابل أو أعشاب معينة لعلاج أمراض محددة . فلكل مرض ما يعالجه من توابل أو أعشاب .

فقد روى سيبروك أن الشيخ متقال ، شيخ بنى صخر :

" ذهب إلى شق الحريم وعاد بصندوق خشبى صغير كان يحتوى على كل الدواء الذى فى بيته وكانت به صناديق صغيرة وثلاث أو أربع زجاجات وعدد من الأكياس الجلدية وكانت هناك قطعة من الصمغ كان يسميها حلتيتة . وكان هناك أيضا كافور ، وثوم ، وفلفل أسود ، ومسحوق ذو لون بنى رمادى لا طعم له أخبرنى أنه مسحوق بعر الغنم . والقيمة الطبية لمختلف الفضلات معروفة للقبائل فى كل بلاد العالم . وكان هناك نوعان من الأعشاب العطرة لم استطع تحديد ذاتيتهما ونسيت أسميهما العربيين . وأخبرنى أن الفلفل الأسود يستعمل كشراب من أجل الحمى . والثوم يعطى فى لبن رائب من اجل وجع البطن ، وأن الكافور مفيدمن اجل البرد : (سيبروك ، ص١٠٠) .

ويستخدم الفقراء بعض الأعشاب فى علاج أمراض معينة (فالأكلة)

وهى مرض بالأنف يعالج باستنشاق بخار ماء مغلى فيه نبات عطرى . و(الشقيرة) وهى مرض يهاجم العظام ويؤدى إلى ورم الساقين والعلاج هو الصوم ويوضع على العضو المريض رماد ثمرة الحنظل . و (الحصر) وهو إحتباس البول يعالج بوضع نبتة الرشاد فى إناء مملوء باللبن المغلى ويتناول الفقراء حب الخنظل ويستخدمون أيضا نبتة الغزالة : (جوسان وسافينياك ، حـ ٣ ، ٤ ، س ٢٨ ، ص ١٨٧) .

ويستخدم بدو سيناء الكثير من الأعشاب والنباتات فى علاج مختلف الأمراض . فهم يستخدمون الشيح يبخرون به منازلهم لطرد الثعابين منها وتستحم به النفاس ، والقيصوم وله رائحة ذكية يغلى وتغسل بمائه العين الرمداء ، واللصف وهو لا ينبت إلا فى شقوق الصخور ويداوون به الروماتزم وذلك بإغلاء ورقه وتبخير المصاب به حتى يتصبب العرق منه ، و " العاذر " وهو نبت كالزعتر ويستعمل دواء للمغص . والحرجل وبه أيضا يداوون الروماتزم ، والعضو وهو نبت سام إذا أكلته الإبل ماتت ويستعمل علاجا للجرب يدقونه ويغلونه على النار ويغسلون بمائه الإبل الجرباء فتبرأ : (شقير ، حـ ١ ، ص ٩٠) .

(٣) السكر :

كان السكر يستخدم لدى بعض القبائل البدوية كوسيلة لعلاج المريض .

ففى مادبا (بشرق الأردن) كان السكر قديما ، نادرا جدا . وكانوا يسمونه (شراب) ، ومن النادر ، النادر أن يوجد شىء منه فى بيوت الشعر، وكانوا يصفونه علاجا لمن أصيب بمرض . ولم يكن غريبا ، أن تسمع مناديا فى جوف الليل ينادى :

" من هى بنت الحلال ، اللى أبوها نشد عن خالها ، ويلتقى فى ذخرتها، ضرس شراب دواء للمريض " .

وكانت المراة التى يوجد عندها شىء من السكر ، تعتز بذلك كل الإعتزاز . لكن ملابسة الحضارة ، وتوفر النقود ، جعلت كل أنواع الطعام ميسرة " (العزيزى ، ص ١٦٤) .

(٤) فضلات الحيوانات :

كان من الشائع لدى القبائل العربية إستخدام فضلات الحيوانات وبخاصة بول الإبل والخيل فى علاج بعض الأمراض .

فلدى بدو بنى صخر (فى شرق الأردن) من أكثر الأدوية شيوعا بول الحصان الذى يستخدم على السواء كمطهر وكمقىء ، وهو مفيد أيضا فى حالة الحمى : (سيبروك ، ص ١٠١) .

ولدى بدو الربع الخالى يستخدم بول الناقة فى علاج أوجاع المعدة حيث يتم تناوله فى مقادير صغيرة . ويفضلون عليه قىء الناقة الذى يحصلون عليه بإدخال عصا فى حلقها . كذلك يستخدم البول كغسيل للشعر يقتل الحشرات : (توماس ، الأصل ، ص ٢٢٤) .

كذلك كان من الشائع لدى القبليين العرب إستخدام بعر الحيوانات لعلاج بعض الأمراض .

فلدى بدو سيناء كان الجراحون القبليّون يعالجون الجراح بخياطتها وغسلها كل يوم بمستحلب بعر الحمير مدة أربعة أيام وكانوا يغلون البصل بالماء ويصفونه ويغسلون به الجرح ويسقون المجروح القليل منه لعدم تعفن الجرح ودقع أذى الرائحة ثم يغلون المر بالسمن ويجعلونه دهانا فيدهنون به الجرح أربعين يوما حتى يبرأ : (شقير ، حـ ٢ ، ص ٣٩٤) .

ووجد سيبروك فى صندوق الأدوية الذى جاء إليه به شيخ قبيلة بنى صخر مسحوقا ذا لون بنى رمادى لا طعم له أبلغه أنه مسحوق بعر الغنم .

وذكر دوتى (ص ٢٩٨) أنه شاهد يوما إحدى نساء المنزل (المضرب) تقلب بعر حمار فى إناء به ماء سوف تعطيه ، مع اللبن ، لأخيها المريض ، رغم أن العرب يعتبرون الحمار حيوانا نجسا وبصفة خاصة فضلاته .

(٥) ذبح ذبيحة :
يجرى العرف لدى بعض العرب بذبح ذبيحة كوسيلة لشفاء المريض .

ففى قرية العلا (فى المملكة العربية السعودية) كانت العادة تجرى بعمل فدو من أجل المصاب بالكوليرا . فيؤتى بضحية بالقرب من المريض ، ويطاف بها حوله ثم تذبح أمامه ، ويدفن الدم فى الأرض ، ويوزع اللحم على المساكين : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٣ ، ٤ ، س٢٨ ، ص١٨٩) .

(٦) وسائل سحرية :
من الشائع لدى القبليين العرب إستخدام وسائل ذات طابع سحرى تتمثل فى حجاب يعده أحد السحرة أو رجل من رجال الدين .

فقد وصف أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر (وصف مصر ، حـ ٢ ، ص ١٩٨) موقف قبائلها من علاج الأمراض بقوله :

" وللتعاويذ والتمائم نفوذها الكبير على العقلية الساذجة لهؤلاء القوم البسطاء ، حيث يحمل الكثيرون معهم كيسا صغيرا من الجلد ، مدلى فى رقبته أو تحت إبطه ، ويحتوى على قطعة من الورق كتبت عليها كلمات غامضة على يد درويش . بل وفى كثير من الأحيان على يد مسيحيين أو يهود وهم الذين ينظر إليهم البدو على أنهم أكثر علما من المسلمين فى تلك الأمور التى تتصل بالتمائم والرقى . وقد شاهدت بعضا منهم يحملون كذلك بعض أحجار عليها نقوش بحروف كوفية لا يفهمونها على الإطلاق بل وكذلك بعض التعاويذ المصرية القديمة . وفى النهاية فإنهم يولون ثقتهم الكثيرة فى

التميمة التى عملت خصيصا لمرض أصابهم أكثر مما يولون هذه الثقة لكل فنون الطب وأسراره " : (وصف مصر ، حـ ٢ ، ص ١٩٨) .

وفى بعض جهات الجزيرة العربية كثيرا ما يستخدم السحرة الأفعى فى تعزيماتهم ، وفى إعداد العقاقير والأدوية التى تستخدم فى علاج الإضطرابات العضوية والنفسية التى يعانى منها زبائنهم : (زويمر ، ص ٢٢٤) .

وتلجأ النساء ، لدى بعض القبائل العربية ، إلى بعض وسائل ذات طبيعة سحرية لعلاج أطفالهن المرضى .

فعندما يمرض طفل تستعين الأم بالوسيلة التالية.:

تأخذ إحدى عظام الطائر المعروف باسم " جدة العيال " . وتقربها من النار ثم تمررها وهى متأججة تماما فوق أعضاء المريض كما تحرق ريش نفس الطائر وتمرر الطفل خلال الدخان الناشىء عن إحتراقه (جوسان ، ص ٣٠) .

وفى بعض قرى صعيد مصر ثمة تعويذة تحملها المرأة الحامل إذا كان أطفالها السابقون ماتوا عن عمر يقل عن السابعة . وها هى مكوناتها : رأس بومة ، ظفر ثعبان ، جزء صغير من الشفة السفلى لحمار ميت وجزء من عينه ، ناب جمل ، حرباية ، وحجاب مكتوب وتحمل المراة الحامل هذه التعويذة معلقة تحت ذراعها الأيمن أثناء الحمل . ثم تنتقل بعذ ذلك إلى المولود : (بلاكمان ، ١٥٧) .

ولدى قبيلة الفقراء عندما يمرض أحدهم يسرع إلى الحصول على حجاب يخلصه من المرض . وهو يلصقه بالجزء من الجسم الذى يعانى من المرض : فوق الرأس ، أو الظهر ، أو الصدر : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٥ ، ٦ ، س ٢٨ ، ص ٣٦٤) .

ويشيع لدى القبليين العرب الإستعانة بالسحرة ذكورا وأناثا لشفاء المرضى الذين تلبسهم جان . وقد ذكر جوسان العديد من هذه الحالات لدى قبائل شرق الأردن وفلسطين .

ففي طيبة ، في حوران ، كان هناك رجل تلبسه الجن وكان يعذبه منذ فترة طويلة . وأراد والداه تخليصه من هذا الشقاء فاستدعيا فقيرة من جهة قريبة وأتت هذه إلى الشقة التي حبس فيها الشاب . فأمسكت به وجعلته في منتصف الغرفة وأخذت تدور حوله . وهي تضرب على الدف . وعند سماع هذه الموسيقى البدائية ، تململ الروح ، واعترت المريض تشنجات . وسألت الفقيرة الروح الخبيث :

- " من أين تريد الخروج ؟ عن طريق الرأس ؟ .
- لا .
- عن طريق العين ؟ .
- لا .
- عن طريق الفم ؟ .
- لا .

واستمرت في تعداد أجزاء الجسم المختلفة ، حتى أجبرته في النهاية على الخروج من خنصر القدم : (جوسان ، ص ٣٨٧) .

كذلك كانت هناك ساحرة تدعى " عليه " مشهورة بعلاج الجنون وفي يوم من الأيام أحضروا لها فتاة صغيرة سقطت في نوبة جنون . وحبست الساحرة الفتاة في غرفة لمدة سبعة أيام . وكانت تزورها أثناء النهار وتضربها وتلقيها على الأرض ، وتنفث فيها بضع نفثات تتخللها تعزيمات ، وكانت تشعل البخور حولها . وقد إنتهى أمر الفتاة المسكينة بالشفاء : (جوسان ، ص ٤٨٧) .

(٧) العلاج بالقرآن :

يشيع ، لدى القبليين العرب ، إستخدام الآيات القرآنية الكريمة كوسيلة

للعلاج من الأمراض لا سيما عندما تعجز الوسائل الأخرى عن تحقيق الشفاء للمريض .

وقد أشارت السيدة سالمة (ص ٢٣٨) إلى إحدى الطرق المادية فى إستخدام الآيات القرآنية كوسيلة لعلاج الأمراض الشديدة بقولها : "

" أما فى حالات المرض الشديد فليس لنا من علاج إلا رحمة الله نطلبها بالدعاء وتلاوة آيات الذكر الحكيم أو بكتابة الأدعية . والأدعية هى آيات من القرآن الكريم يكتبها رجال من أهل الورع والتقوى بماء الزعفران على صحن أبيض ثم يغسلون الكتابة بماء الورد فيصبح الدعاء شرابا سائغا ويشربه المريض ثلاث مرات فى اليوم مع وجوب الحذر الشديد من أن تنسكب قطرة من هذا العصير الغالى على الأرض فيبطل مفعوله " .

ويصف سيبروك (ص ١٠١) موقف أبناء قبيلة بنى صخر فى هذا الخصوص بقوله : " وما زال الإعتقاد فى التعاويذ والسحر لا سيما فى فعالية بعض الآيات القرآنية لطرد الجن أو علاج المرض شائعا .

ويقول دوتى (ص ٣٠١) أن ثمة أطباء للمجانين فى الجزيرة العربية يعتقد فى قدرتهم عن طريق تلاوة تعاويذ فعالة مقتبسة من الكتاب المقدس (القرآن الكريم) على المريض إخافة وطرد الأرواح الشريرة التى تلبسته .

ثانيا : الوقاية من المرض :

تتعدد لدى القبليين العرب وسائل الوقاية من المرض وعرف البعض منهم فكرة إعتزال المريض كوسيلة لتفادى إنتقال مرضه إليهم ويحدث ذلك بصفة خاصة فى حالة الأوبئة . ومن الوسائل الوقائية التى يلجأ إليها القبليون العرب ما يلى .

(١) الفدو أو شراء الشر :

قد يعمد القبليون العرب إلى ذبح حيوان أو أكثر بهدف توقى المرض

المنتشر فى صورة وباء .

فلدى قبيلة الفقراء للوقاية من مرض الكوليرا ، كانوا يقومون بذبح ذبيحة (فدو) . فيؤتى بالضحية أمام الخيام ويطاف بها حول البيوت ثم تذبح : وهذا هو (شراء الشر) وهذا هو الفدو . وينثر الدم الذى يتم تلقيه فى صاج على الإبل وقوائم الخيمة على سبيل الوقاية من الوباء . أما البشر فلا ينثر عليهم دم : (جوسان وسافينياك ، العرب ، حـ ٣ ، ٤ ، ص ١٨٩) .

(٢) وسائل سحرية :

قد يعمد بعض القبليين العرب إلى إستخدام وسائل ذات طبيعة سحرية بهدف الوقاية من الأمراض .

ففى بعض جهات حضرموت عندما يأتى وباء معد ، يذر بعض الناس الرماد حول بيوتهم لمنع سريان العدوى : (اليافعى حـ ٢ ، ص ١٢١) .

وأورد جوسان (ص ٢٩ وما بعدها) العديد من الوسائل التى تستعين بها نساء بعض قبائل شرق الأردن وفلسطين لوقاية الأطفال من الأمراض المختلفة .

فلوقاية الطفل من لسع العقرب ، يحمل الطفل الرضيع على ابتلاع رماد عقرب سبق شيها وصحنها وخلطها باللبن .

وعندما ينتشر المرض بين الأطفال تعمد الأم لإنقاذ طفلها إلى إلباسه ثياب أطفال آخرين أقوياء وأصحاء ، وهى تزعم بذلك نقل الصحة إليه وتحصينه من كل مرض . (جوسان ، ص ٢٩) .

وعندما ينتشر المرض فى أطفال أحدى الأسر ، تأتى الأم برأس بعير وتدفنه تحت عتبة باب البيت ، وهى تظن أنها وضعت بذلك حاجزا ضد الوباء الذى لن يقوى بعد ذلك على المرور .

وعندما يولد طفل يوم سبت يقولون : هذا اليوم غير مواتى وسوف يموت الطفل . ولإستبعاد هذه المصيبة يأخذون ديكا ويذبحونه ويدفنون فى نفس المكان الذى ولد فيه الطفل دم الديك وأحشاءه .

وفى حالة الخوف من القرينة ، وهى الملاك المفوض من إبليس لقصف أرواح الأطفال ، من الممكن طردها من البيت وذلك بذبح ديك ودفنه تحت عتبة الدار . كذلك يمكن إستخدام حجاب أعده خطيب لإبعاد الروح الشريرة التى تستمتع بتدمير الأسر : (جوسان ، ص ٢٩ ، ٣٠).

وفى بعض قرى فلسطين كثيرا ما ترى إمرأة تقف وراء العريس فى أثناء عقد قرانه تخيط ثيابه بإبرة فيها خيط غير معقود وفى إعتقادهم أن هذا الإجراء يبطل السحر (أو الربط) الذى ربما فعله أحد الأقرباء أو أحد الأصدقاء بالعريس ليمنعه من ممارسة واجباته الجنسية : (حلقة العناصر المشتركة ، ص ١٠٩) .

(٣) إعتزال المريض :

عرف القبليون العرب فكرة إعتزال المريض بمرض معدى كوسيلة للوقاية من إنتقال مرضه إلى من يخالطه ، ولهذا يعمدون إلى تركه وحيدا مع إمداده بالماء والطعام الذى يكفيه مدة معينة .

فلدى قبيلة بنى صخر إذا مرض أحد أفراد القبيلة ، رجلا أم إمرأة ، مرضا شديدا ، وإذا بدت عقاقيرهم البسيطة غير مجدية ، تركوه معزولا فى خيمة صغيرة تقام بعيدا عن الخيام الأخرى ـ لديهم فكرة محدودة عن العدوى ـ وتركوا معه طعاما يكفيه لمدة أسابيع وتركوه وحيدا ليشفى أو ليموت : (سيبروك ، ص ١٠١) .

ولدى بدو العراق إذا ابتلى أحدهم بمرض معد كالجدرى وغيره ، فإنهم يتركونه وحده ويرحلون عنه ، على أن يتركوا له من يمرضه إذا كانت له منزلة محترمة ، وإن لم يكن كذلك أو لم تكن له مقدرة ، يترك له شىء من

الزاد والشراب بجانبه مع كلب يحرسه حتى يشفى أو يموت ويفعلون ذلك تخلصا من العدوى : (الراوى ، البادية ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٣٢٧) .

ثانيا ــ الطب البيطرى

كما هو الحال بالنسبة للطب البشرى ينقسم الطب البيطرى إلى قسمين طب علاجى وطب وقائى .

أولا ــ الطب العلاجى :

يعرف القبليون العرب وسائل متعددة لعلاج حيواناتهم المريضة أو الجريحة ، وتتمثل هذه الوسائل بصفة خاصة فى الكى والأعشاب وبعض الوسائل ذات الطبيعة السحرية .

أ - الكى :

الكى من أكثر وسائل علاج الحيوانات شيوعا . ويتم عادة عن طريق تسخين قطعة من الحديد إلى درجة الإحمرار ثم وضعها على الجزء المصاب من الحيوان . وقد يقوم بذلك صاحب الحيوان نفسه ، وقد يقوم به شخص عرف بخبرته فى هذا المجال .

ب - الأعشاب :

تستخدم الأعشاب فى علاج الحيوانات المريضة . فقد تعلم القبليون بحكم التجربة أن ثمة أعشابا معينة من شأنها أن تعالج بعض الأمراض التى قد تصيب الحيوانات .

فبدو سيناء مثلا يستخدمون نباتا معينا يسمى " الغصو " وهو ذو طبيعة سامة إذا أكلت منه الإبل ماتت ، فى علاج الجرب الذى قد يصيبها . فيأخذونه ويدقونه ويغلونه على النار ويغسلون بمائه الإبل الجرباء فتبرأ : (شقير ، ص ٩١) .

جـ - وسائل سحرية :

يستعين القبليون العرب بالعديد من الوسائل ذات الطبيعة السحرية لعلاج حيواناتهم التى ينسبون ، فى بعض الأحيان ، أمراضها للسحر أو الحسد .

ففى ظفار يلجأ أفراد قبيلة القرا إلى تبخير البقرة القليلة اللبن ، حيث أن قلة لبنها ينسب إلى الحسد .

ولدى بعض القبائل العربية يستخدم صاحب البعير لعابه فى علاج بعيره ، حيث يأتى بإناء فيه ماء ويزمزم ويبصق فى هذا الإناء عدة مرات . ثم يقدم الماء إلى البعير ليشربه وهو على ثقة بأن البعير سوف يشفى من مرضه .

ثانيا ــ الطب الوقائى :

أهم الوسائل التى يستخدمها أصحاب الحيوانات لوقايتها من الأمراض هى التعاويذ والرقى والتمائم ، حيث أنهم يعزون مرض حيواناتهم إلى الجسد فى أغلب الأحوال . ولهذا يحرصون على تعليق التمائم والتعاويذ إلى حيواناتهم لكى تكف عنها عيون الحاسدين . وقد يعمدون أيضا إلى ذبح أضاحى .

ملحق ١ السلوك الجنسي

حوادث

الأب « أعدم » ابنته بحقنة مبيد !

لم يتحمل الاب وقع الصدمة .. ومادت الارض تحت قدميه .. ولم يجد حلا امامه سوى الخلاص من وحيدته الشابة .. وعندما هبط الظلام على القرية ، وراحت ابنته فى نوم عميق .. اقترب منها فى هدوء وحقنها بالمبيد السام .. وماتت الابنة دون ان تشعر ان اباها هو الذى قتلها .

وحاول الاب اقناع رجال الشرطة ان الوفاة طبيعية ، ولكن التحريات وتقرير الطبيب الشرعى اكدا جريمة الاب ، الذى انهار عندما اكتشف ان الخبر الذى قتل ابنته من اجله ، لم يكن فى حقيقته سوى شائعة مغرضة .. وكانت ابنته ثمن تسرعه المجنون !

عجوز «تشوى» ابنتها داخل الفرن

الاسماعيلية ـ عبدالله ضيف :

وقعت جريمة قتل بشعة بالاسماعيلية قامت سيدة بتقييد ابنتها بالحبال والقت بها فى فرن المنزل حتى احترقت تماما بسبب اشاعة عن سوء سلوكها

شاب يخنق اخته بإيشارب والأم تعترف باشتراكها فى الجريمة

كتب .. خيرى رمضان :

خنق شاب بالهرم اخته الكبرى بعد معايرة اصدقائه له بسوء سلوكها . حيث ربطها بالحبل بمعاونة امه ثم سلم نفسه للشرطة واعترف انه ارتكب الجريمة بمفرده بينما اصرت الام على الاعتراف باشتراكها معه فى الجريمة .

□ ١٩٩٤/٤/٣٠ □

اعتراف أب!

عندما اعلن المستشار نبيل حبيب ابو الخير حكم محكمة الجيزة بالاشغال الشاقة ٣ سنوات صرخ الاب من داخل القفص، وقال: اعدمونى حتى القى ابنتى فى الآخرة وارجوها ان تسامحنى لأنى ازهقت روحها البريئة الطاهرة وهى لم تقترف ذنبا.

منهم لله أولاد الحرام اوغلوا صدرى ضد ابنتى واتهموها بالباطل وكيف لفتاة عمرها ١٥ سنة تفعل هذه الأشياء؟ تربصت بها حتى نامت وانهلت على رأسها بشاكوش وبيدى الأخرى على فمها حتى لفظت انفاسها وحاولت اخفاء الجثة فى منزل مهجور إلا ان المباحث برات ساحتها واثبت تقرير الطبيب الشرعى انها عذراء طاهرة وأنا اب جاحد قتل ابنته البريئة ..

يقتل ابنته ويزعم أنها ماتت فى حادث تصادم

كتب ـ عصام مليجى:

فى الوقت الذى تبذل فيه مباحث الخانكة جهودها لكشف غموض العثور على جثة لفتاة مجهولة الشخصية وملقاة بمنطقة الخصوص، كشفت مباحث القاهرة سر إقامة سرادق بمنطقة الشرابية لتقبل العزاء فى فتاة تنطبق عليها نفس الأوصاف (٢٠ سنة) حيث يزعم والدها الذى يعمل بائعا متجولا انها لقيت مصرعها فى حادث تصادم سيارة وتبين انها صاحبة الجثة المجهولة ، وان والدها استدرجها الى القليوبية وقتلها انتقاما منها لشكه فى سلوكها، ثم كانت المفاجأة ان الفتاة القتيلة مازالت بكرا.

يقتل شقيقته خنقا لشكه فى سلوكها

كتبت ـ سهام عبد العال:

أمرت نيابة مركز امبابة بحبس تاجر بسوق خضار روض الفرج قتل شقيقته بعد خنقها بالفوطة أمام والدته وشقيقته وزوجها لشكه فى سلوكها وحاول الهرب الى الصعيد إلا ان شقيقته سارعت بالابلاغ فتم القبض عليه.

ملحق ٢ . تقسيم العمل بين الجنسين



في صعيد مصر





في جنوب تونس



في بعض دول الخليج





□ بدويات من سيناء يجمعن المحاصيل ويسرن على أقدامهن لمسافات طويلة.





بدوية من سيناء

ملحق ٣ آداب إجتماعية



في خيمة الزعيم ، تدق القهوة بالمهباش ، ويطرب الشاعر الضيوف ، بأنغام الربابة .



بعض الطورة في خيمة لهم

عدة القهوة



تناول الطعام

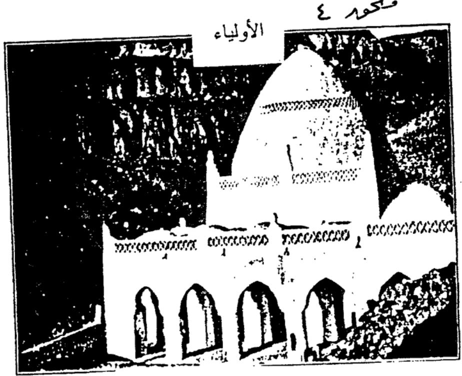


لقاء الضيف



ملحق ٤

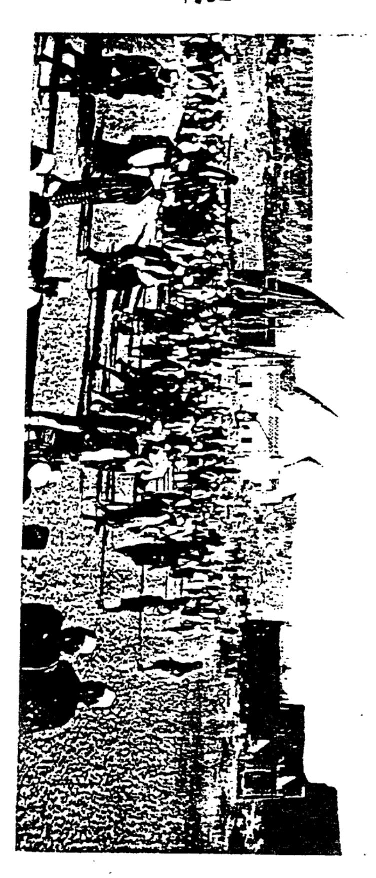
الأولياء



قبر النبى " هود " فى حضرموت



أضرحة بعض الأولياء فى حضرموت



زيارة الأضرحة والقبور في حضرموت



ضريح ولى وشجرة مقدسة

بالقرب من مدينة الجزائر



قبر ولى فى صعيد مصر



أضرحة أولياء فى أسوان



مصر - ويفتح ابواب وزارته التى تشبه القلعة الحربية امام صبى يدعى سيد الاهطل يدخل الوزارة بثياب رثة وممزقة ، ليعرض عليه الوزير قراراته الهامة ، فاذا هز « سيد الاهطل » راسه بالموافقة ، يوقع الوزير على القرار ، وإذا لم يهز راسه تراجع الوزير ، ويفسر عبد الحليم موسى استشارته للصبى الابله بانه بركة ومكشوف عنه الحجاب .

وتكتمل صورة الوزير ، عندما يكشف احد كبار الضباط عن زيارته المتكررة لاحدى الشقق المخصصة لاعمال الدجل والشعوذة بالقاهرة ، يقوم بها احد انجال الشيخ ابو العيون ، ويصطحب الوزير معه كبار رجال الشرطة ليحصلوا على « البركة » من نجل الشيخ ابو العيون .

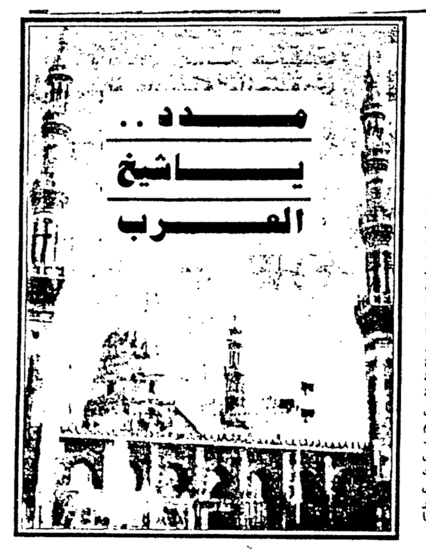
وفى الايام الاخيرة للوزير ، قام بزيارة خاصة الى دشلوط بالقرب من ديروط ، واعتقدت قيادات الشرطة انها زيارة سرية رسمية ، فرفعوا درجة الاستعداد ، فاذا بهم يجدون الوزير يتجه بركبه الى مقام الشيخ ابو العيون ، ويخلع نعليه ، ويشكو لمقام الشيخ من المتآمرين عليه ، ويطلب منه



اليوم.. الاحتفال بالليلة الختامية لمولد سيدى أحمد البدوى

طنطا - محمد عيسى وسوزان وهبى

تحتفل محافظة الغربية والطرق الصوفية اليوم الخميس بالليلة الختامية بمولد العارف بالله سيدى احمد البدوى بدار الخلافة الاحمدية بتلاوة القرآن الكريم والأحاديث النبوية والمواعظ الدينية ويشارك فيها كبار العلماء والمفكرين ومشاهير قراء القرآن الكريم. ويشهد الاحتفال بعض الوزراء والمحافظ المستشار ماهر الجندى واعضاء مجلسى الشعب والشورى. وفى هذا اليوم من كل عام تفتح طنطا ابوابها وذراعيها لنصف مليون زائر يفدون اليها من كل بقاع الجمهورية ويحتل المولد الاحمدى مكانة مرموقة بوصفه قوة فعالة ظلت تؤثر فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية طوال عدة قرون ماضية ومنذ حوالى ٧٠٠ سنة يحتفل المسلمون فى مصر بمولد السيد البدوى منذ عام ١٢٧٧ لمدة ٣٠ يوما فقط الا انها فى عهد على بك الكبير امر بان يستمر الاحتفال لمدة ٧ ايام يقيمون فيها المهرجانات الدينية والفنية والاعلامية والمعارض الكبيرة وسوف للانتاج وحلقات للذكر فى السرادقات والخيام ويجتمع فيها عشرات الالاف من البشر.



حوادث وقضايا

ضبط تاجر يدير شقته بمصر القديمة لأعمال السحر والشعوذة

كبار الفنانين والفنانات والمشاهير ترددوا على الدجال لحل مشاكلهم مقابل آلاف الجنيهات

كتبت ـ منال الغمرى:

ضبطت مباحث الاحداث شابا يتردد عليه كبار الفنانين والفنانات وموظفى الدولة وبعض السائحين فى شقته بمصر القديمة فى اوقات مختلفة من اليوم، حيث يمارس أعمال السحر والشعوذة والدجل ويوهم المترددين عليه بان له صلة بالجان لحل مشاكلهم ويستغل مجموعة من الاطفال فى التنويم المغناطيسى لعملائه، مقابل حصوله على مبالغ تتراوح من ٦٠٠ إلى ٢٠ الف جنيه عن الحالة الواحدة طبقا لظروفها الاجتماعية..

وعقب ضبطه عثر بشقته على ٥ الاف جنيه نقدا حصيلة ٤ ساعات وخمور ثمنها ١٥٠ الف جنيه ومجموعة من الاقراص المخدرة، والجماجم الآدمية والاعشاب الطبيعية، وامر

تسعيرة الدجال:
١٠٠ جنيه للكشف المستعجل!

كتب ـ احمد عبدالكريم:

سقط اخطر دجال بالقليوبية ل قبضة رجال المباحث متلبسا بممارسة اعمال الشعوذة والدجل على النساء بعد ايهامهم بقدرته على شفاء الأمراض المستعصية وعمل احجبة المحبة والانجاب .. حدد الدجال سعر الكشف للحالات المستعجلة بمائة جنيه وعند تكرار الجلسة ٥٠ جنيها .. امر

الدجال رفع سعر تحضير الجان فى رمضان ١٠ أضعاف الايام العادية !!

كتب محيى عبدالرحمن :

جلس الدجال يحملق فى اثنتين من زبائنه فشل فى اقناعهما بتأجيل العمل فى رمضان الاولى قالت تزوجته رغما عنى واليوم اريد الطلاق . وقالت الثانية هذا الشاب الوسيم جارى احبه ولا استطيع ان اعيش بدونه وارجوك اجعله يحس بى ويهوانى ولايتزوج احدا غيرى . قال الدجال تعلمين ان الاجر ٥٠ جنيها قالت نعم والآن نحن فى شهر رمضان والجان لايتواجد فى رمضان الا بالاكراه وهذا يتطلب رفع الاجرة ١٠ اضعاف . قالت ندفع لك ٥٠٠ جنيه . بدأ الدجال فى اطلاق البخور وظل يحمر ويتمتم بكلمات غير مفهومة وازعج الجيران فارسلوا شكاوى وسكالمات تليفونية لا [illegible]

ضبط مشعوذة تدعى انها متزوجة من عفريت وفى منزلها ٧٠ رجلا وامرأة يطلبون حل مشاكلهم !

كتب بدر الالفى:

ضبطت مباحث الغربية مشعوذة (٤٥ سنة) ادعت انها متزوجة من عفريت يظهر لها ليلا فقط عثرت المباحث بمنزلها على مجموعة من الاحجبة وادوات السحر ومبلغ ١٦٣ جنيهاً..

كما وجدت الشرطة ٧٠ من الرجال والنساء داخل منزلها جاءوها لحل مشاكلهم فى الحب والانجاب والعلاج !! كما تم ضبط احد ابنائها من زواجها الاول يعاونها فى اعمال السحر والشعوذة..

حكاية شاب هرب من بئر التقاليد !

البئر يسكنها روح

كتب حسن فكرى :

حادث غرق عادى جدا !

لكن الامر - غير العادى - أن والد الغريق يتهم ابن أخيه بالجريمة !
والامر الاغرب هو الحكم الذى « أفتى » به أهالى احدى قرى بنى سويف التى يقيم بها المتهم والمجنى عليه .. لقد طالبوا والد المتهم بالقاء ابنه فى « بئر » .. فاذا غرق فهو القاتل واذا لم يغرق فانه برىء من دم ابن عمه !!

الحكاية بدات عندما وقف والد الشاب المتهم امام عاطف بربك وكيل نيابة الهرم والدموع تنهال من عينيه .

فساله وكيل النيابة : ايه الحكاية بالضبط ؟

فقال الاب فوجئت انا وشقيقى باحد ابناء القرية يبلغنا بان ابن شقيقى غرق فى البحر . فاسرعنا الى المكان فلم نجده .. وظللنا نبحث عن الجثة فلم نجدها .. وبعد عدة ايام فوجئنا بالجثة تطفو على سطح البحر .. وقمنا بانهاء اجراءات دفن الجثة .

لكن شقيقى قال . انه يشك فى وفاة ابنه "

قلت له ان التحقيقات اثبتت ان الوفاة بسبب الغرق وليس هناك شبهة جنائية

وكانت المفاجاة عندما اخبرنى اخى الاكبر بانه يشك فى ان ابنى هو الذى قتل ابنه ومن ساعتها ولم اتمالك نفسى وقلت له لماذا ؟ ابنى هو اخ له ؟ .. ولكن اخى الاكبر سار فى القرية يشيع بان ابنى قتل ابنه !

ويقول الاب جلست مع ابنى .. وقلت له اخبرنى بالحقيقة ياولدى .. فقال لى كيف يشك عمى اننى قتلت ابنه .. ولماذا ؟

وقال الاب والغريب ان اهل القرية رفضوا ايضا ان يصدقوا كلام ابنى ؟

وكان « قرار » اهل القرية انه لابد من اختبار ابنى لمعرفة اذا كان هو القاتل ام لا ؟

وفى جلسة شيوخ القرية اتفقوا على ان نذهب الى بئر فى مدينة ببا بمحافظة بنى سويف .. وهذه البئر يقال عنها إنها اذا القى الشخص فيها وهو صادق فانه يطفو ولا يغرق .. واذا كان كاذبا غرق ومات داخل البئر !

قال الاب لوكيل النيابة : كان صعبا على ان اقبل هذا الاتفاق ! وكيف اقبل ان القى بابنى فى هذه البئر ! ولكن كنت فى صراع فيما يقوله شقيقى ومن براءة ابنى فانا متاكد من براءته .. ومن اجل هذا وافقت على شرط شيوخ القرية .

واستمر الاب فى حديثه قائلا : اتفقت مع ابنى وقلت له لابد أن تثبت براءتك امام الجميع ! ولكن ابنى قال لى : ماذا لو اننى غرقت فى هذه البئر . فهل ستكون سعيدا ؟!

اننى برىء ياوالدى ؟

وبعد الحاح شديد وافق ابنى وقررنا السفر انا وشقيقى وشيوخ القرية .. وكان موعدنا فى صباح اليوم التالى .. وكانت المفاجاة اننى لم اجد ابنى فى سريره ووجدت رسالة صغيرة قائلا فيها انه كتبها بدموعه قبل ان يخرج من المنزل .

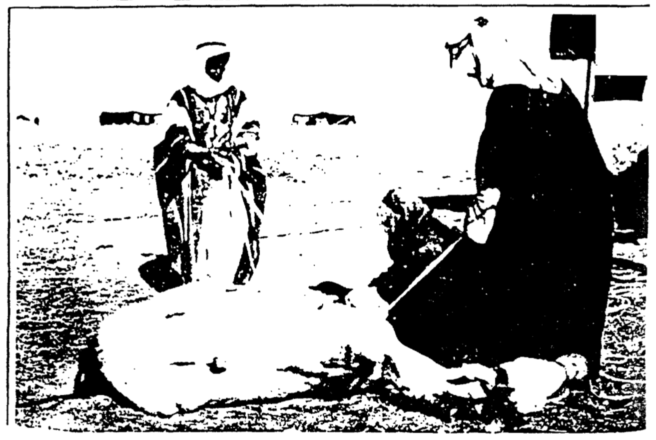
وقال انه برىء من قتل ابن عمه ! وقال فى نهاية رسالته : اننى لم اجد وسيلة للهروب من القبر سوى ترك المنزل !

ومازال الابن هاربا من منزله ومن القريه وتقاليدها البالية !

امر وكيل نيابة الهرم بحفظ التحقيقات لعدم وجود شبهة جنائية فى الوفاة ..

ملحق ٦ الطب القبلى



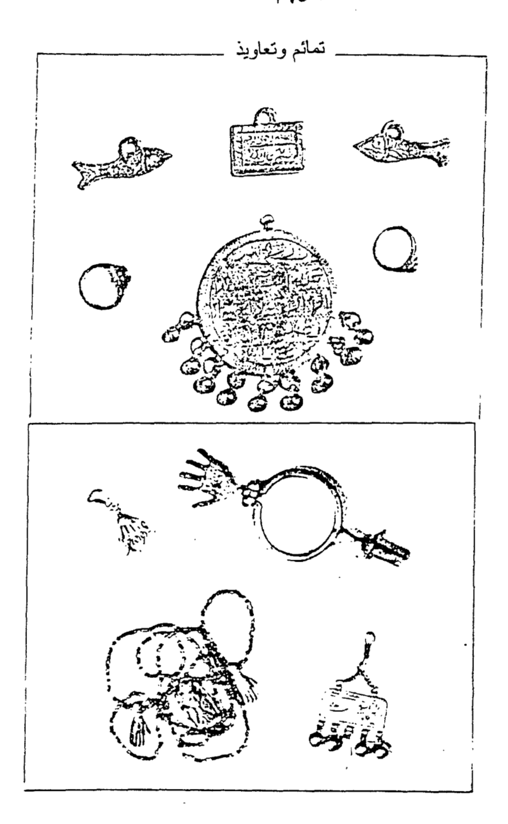


تمائم وتعاويذ





تمائم وتعاويذ



أحدث علاج لإخراج «الجن»

طبيب يضرب المريضة بالعصا حتي الموت!

كتب ـ خالد ادريس:
انهال طبيب نفسي بالعصا علي ربة منزل مريضة لاخراج «الجن» من جسدها حتي لفظت انفاسها.
ألقي القبض علي الطبيب واخطرت النيابة

.. حكاية دجال ..

يضربه حتى الموت ليخرج العفريت من جسمه

ارتابوا في تصرفاته وعدم رجوعه لحالته التي عهدوها فيه ولما فشلوا في علاجه اعتقدوا ان به مسا من الجان فاحضروا له شخصا اشتهر بتحضير الارواح واتصاله بالجان فطلب مجموعة من جريد النخيل الخضراء وجرد المريض من ملابسه بعد ان اوثقوه بالحبال واخذ يضربه بالجريد ويصيح قائلا اخرج ايها الجن الخبيث ولكن الذي خرج هي روح المريض المسكين الذي لم يسمع احدا استغاثاته ولم يستجب اقاربه لتوسلاته حتى فارق الحياة وقع هذا الحادث في قرية العنبرية مركز المنشاة حيث كان المجني

ثبت المصادر

أولا ـ باللغة العربية :

١- آل علم الدين (عز الدين) :

فى بادية الشام ، مجلة المقتطف ، ابريل ١٩١٨ .

٢- أمين (أحمد) :

قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ .

٣- بدوى (د. نادية) :

يوميات باحثة مصرية فى حلايب ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٣ .

٤- البردونى (عبد الله) :

فنون الأدب الشعبى فى اليمن ، ١٩٨١ .

٥- البلادى (عاتق بن غيث) :

الأدب الشعبى فى الحجاز ، دار مكة ، ١٩٨٢ .

٦- ابن بطوطة :

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .

٧- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد ١١٤٤ - ١٢١٧ م) :

رحلة بن جبير ، بيروت ، دار بيروت ، ١٩٧٩ .

٨- ابن المجاور (بن محمد بن مسعود البيسابورى) :

صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز : المسـماة تـاريخ المسـتبصر .

ليدن ١٩٥١ .

٩- تاميزيه :

رحلة تاميزيه إلى الجزيرة العربية ،

ترجمة د . يوسف شلحد " العرب " جـ ١ ، ٢ س ٢٥ ، ١٩٩٠ .

١٠- التنوخى (عز الدين) :

الرحلة التنوخية من الزرقاء إلى القريات ، جمع وتحقيق د. يحي عبد الرؤوف جبر .

١١- تيسيغر (ولفريد) :

رمال العرب ،

تعريب نجدة هاجر وإبراهيم عبد الستار ، بيروت ، المكتب التجارى ، ١٩٦١ .

١٢- تيسيكر (ولفريد) :

المعدان أوسكان الأهواز ، ترجمة باقر الدجيلى ، بغداد ١٩٥٦ .

١٣- توماس (برترام) :

البلاد العربية السعيدة ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومى والثقافة ١٩٨١ .

١٤- جوسان وسافينياك :

أعراف قبيلة الفقراء ، ترجمة د. محمود سلام زناتى ،

" العرب " عدة أعداد ، س ٢٧ ، ٢٨ .

١٥- حلقة العناصر المشتركة فى المأثورات الشعبية فى الوطن العربى : ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٧١ .

١٦- جوهر (حسن محمد) وأيوب (محمد السيد) :

اليمن ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .

١٧- الحوالى (محمد بن على [illegible]

صفحة من تاريخ اليمن الإجتماعى وقصة حياتى ، مطبعة الكاتب العربى ـ دمشق .

١٨- دراسة فى المجتمع والتراث الشعبى الفلسطينى :

" قرية ترمسعيا "

منظمة التحرير الفلسطينية . مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٧٣ .

١٩- رفعت باشا (اللواء إبراهيم) :

مرآة الحرمين ، القاهرة ، دار الكتب ١٩٢٥ .

٢٠- رفيع (محمد عمر) :

فى ربوع عسير ، القاهرة ١٩٥٤ .

٢١- الزركلى (خير الدين) :

ما رأيت وما سمعت ، الطائف ، مكتبة المعارف ١٩٢٧ .

٢٢- سالمة (بنت السيد سعيد بن سلطان) :

مذكرات أميرة عربية ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى ، الطبعة الأولى ، ألمانيا ١٨٨٦ .

الترجمة ، أبو ظبى ١٩٧٤ .

٢٣- سلمان (بولس) :

خمسة أعوام فى شرق الأردن ، ١٩٢٦ .

٢٤- سليمان (عبد على) :

المجتمع الريفى فى العراق ، بغداد ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٠ .

٢٥- الشاطرى (محمد أحمد بن عمر) :

أدوار التاريخ الحضرمى ،جدة ، عالم المعرفة، الطبعة الثانية ١٩٨٣

٢٦- شقير (نعوم) :

تاريخ سيناء والعرب ، مصر ١٩٢٦ .

٢٧- الشعبينى (د. محمد مصطفى) :

اليمن : الدولة والمجتمع ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ .

٢٨- صبرى باشا (أيوب) :

مرآة جزيرة العرب ، ترجمة د. أحمد فؤاد متولى و د. الصفصافى أحمد المرسى ، دار الرياض ١٩٨٣ .

٢٩- العبادى (د. أحمد عويدى) :

من القيم والآداب البدوية ، عمان ، وزارة الإعلام ، ١٩٧٦ .

٣٠- العزيزى (روكس بن زائد) :

صفحات من التاريخ الأردنى ومن حياة البادية : مادبا . وضواحيها ، حريصا ١٩٦١ .

٣١- عطيوه (خير الله فضل) :

رحلة الألف عام مع قبائل أولاد على ، الأسكندرية ١٩٨٢ .

٣٢- العظم (نزيه مؤيد) :

رحلة فى بلاد العربية السعيدة : من مصر إلى صنعاء ، بيروت ، دار قتيبة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

٣٣- العياشى (عبد الله بن محمد ـ ١٠٩٠ هـ) :

مقتطفات من رحلة العياشى ، حمد الجاسر ، الرياض ، دار الرفاعى ، ١٩٨٤ .

٣٤- لقمان (حمزة على) :

أساطير من تاريخ اليمن ، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمنى

٣٥- المرزوقى (محمد) :

مع البدو فى حلهم وترحالهم ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٤ .

٣٦- موسى (سليمان) :

رحلات فى بلاد الأردن وفلسطين ، عمان ، دار بن رشد ١٩٨٤ .

٣٧- ناصر خسرو (أبو معين الدين) :

سفرنامة ، ترجمة د. أحمد خالد البدلى ، الرياض ، جامعة الملك سعود

٣٨- وصف مصر :

ألفه علماء الحملة الفرنسية على مصر ، ونقله إلى العربية زهير الشايب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ .

٣٩- اليافعى (صلاح البكرى) :

تاريخ حضرموت السياسى ، جـ ٢ ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٣٦ .

ثانيا ـ بلغة أجنبية :

1. Abo-Lughod (LiLa) :

Veiled sentiments : Honor and poetry in a Bedouin Society,

The American University in Cairo Press, Cairo 1986 .

2. El-Aref (Aref) :

Bedouin Love, Law and legend .

First ed. Jerusalem 1944

New ed. New York, Ams Press 1974

3. Burchardt (John Lewis) :

1. Travels in Arabia .

First ed. London, Henry Clburn,1 1829 .

New ed. London, Frank Cass and Co. 1968 .

2. Notes on the Bedouins and the Wahabys .

First ed. London 1831 .

New ed. U. S. A. 1967 .

4. Blackman (Winifred) :

Les Fellahs de la Haute Egypte. Trad. Franc. Payot, Paris 1948 .

5. Chelhod (J.) et un groupe d'auteurs :

l'Arabie du Sud, Paris , Maisoneuve et Larose 1985 .

6- Cole (Donald Powell) ;

Nomads of the Nomads :

The Al - Murrah Bedouin of the Empty Quarter .

Chicago, Aldine Publishing Company, 1975 .

7. Dickson (H. R. P.) :

The Arab of the desert .

First ed. London 1949 .

New ed. London 1967 .

8. Der Meulen (D. Van) :

Hadramaut : some of its mysteries unveiled .

Leyden (1932, 1964) .

9. Doughty (Charles) :

Travels in Arabia Deserta .

First ed. Cambridge U. P. 1888 .

New ed. London Jonathan Cape, 1964 .

10. Granqvist (Hilma) :

Marriage conditions in a palestinian village .

11. Gratz (Liesel) :

The Omanis

Longman , London and New York, 1982 .

12. Guarmani (Carlo) :

Northern Najd,

London 1938 .

Hclsing fors, 1931 .

New ed. New York, Ams Press 1975 .

13. Ingrams (Doreen) :

A time in Arabia,

John Murry, London 1970 .

14. Jaussen (Antonin) :

Coutumes des Arabes au pays de Moab .

Permiere ed. Paris 1908

Nouvelle ed. librairie d'Afrique et d'Orient, 1948 .

15. Jaussen et Savignac :

Coutumes des Fuqara, Paris, Librairie Paul Geuthner, 1920 .

16. Montagne (R.) :

La civilisation du desert :

Nomades d'Orient et d' Afrique du Nord, Paris, Hachette , 1947 .

18. Niebhur (M.) :

Travels through Arabia and other countries .

Edinburgh 1792 .

19. Philby (H. st. J. B.) :

Arabian Highlands .

New york, Cornell University Pres . 1952 .

20. Philips (Wendell) :

Unknown Oman .

Beirut , Librairie du Liban 1971 .

21. Salim (S. M.) :

Marsh dewellers of the Euphrates Delta .

London, University of London, 1962 .

22. Seabrook (W. B.) :

Adventures in Arabia,

New York, Harcourt, Brace and Company, 1927 ,

23. Stark (Freya) :

A winter in Arabia,

London, John Murray 1940, 1972 .

24. Thesiger (Wilfred) :

1. Arabian . Sands

   First ed. London 1959

   5 th impress. 1959 .

2. The Marsh Arabs , New York, Dutton 1964 .

25. Thomas (Bertram) :

Arabia Felix,

London, Readers ' union LTD., 1938

26. Wahba (Sheikh Hafiz) :

Arabian Days,

Arthur Barker limited, 1964 .

27. Westermarck (E.) :

Survivances paiennes dans la civilisation Mahometane

Tr. Fr- Payot , Paris 1938 .

28. Zwemer (Samuel) :

The influence of animism on Islam .

New York 1920 .

ثبت المحتويات

كتب أخرى للمؤلف

١- النظم القانونية الإفريقية وتطورها ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ نفذت .
٢- تاريخ النظم الإجتماعية والقانونية فى المجتمعات البدائية والقبلية والمدنية القديمة ، القاهرة ١٩٧٣ . نفذت
٣- تاريخ النظم الإجتماعية والقانونية ، فى بلاد النهرين وعند العرب قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ .
٤- حقوق الإنسان (مدخل تاريخى) ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .
٥- الإسلام والتقاليد القبلية فى إفريقية ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ .
٦- نظم العرب قبل الإسلام ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ .
٧- نظم العرب القبلية المعاصرة ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ .
٨- نظم وعادات (مجموعة مقالات) ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ .
٩- تاريخ القانون المصرى ، طبعة جديدة ، ١٩٩٣ .
١٠- نظم العرب القبلية المعاصرة ، الجزء الثانى ١٩٩٤ .

تطلب من :

مكتبة النهضة المصرية ، ٩ شارع عدلى . القاهرة . ت : ٣٩١٠٩٩٤ .
دار النهضة العربية ، ٣٢ شارع عبد الخالق ثروت . القاهرة . ت : ٣٩٢٦٩٣١
مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٦٥ شارع محمد فريد . القاهرة . ت : ٣٩١٤٣٣٧
دار الفكر العربى ، ٦ شارع جواد حسنى . القاهرة . ت : ٣٩٣٠١٦٧
دار الفكر الحديث ، ١٥ شارع شريف . القاهرة ت : ٣٩٢٧١٢٧
دار الشروق ، ميدان طلعت حرب ، القاهرة . ت : ٣٩١٢٤٨٠
دار النشر للجامعات المصرية ، ٤١ شارع شريف القاهرة ت : ٣٩٣٤٦٠٦
مكتبات مؤسسة الأهرام . إدارة التسويق . ت : ٥٧٤٠١١

